شرح

تعليم المتعلم

طريق التعلم

قال الله تعالى في كتابه الكريم بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله

وصلى الله على أشرف الأنبياء والمرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م

دار النعمان للعلوم

دار المعالي للعلوم

دمشق - برامكة - جانب دار الفكر - هاتف: ٢٢٢١٧٦٧

دمشق - حي النزهة : ٥١١١٣٠٦ - ص.ب : ١٨٧

شارع بغداد - عقيبة - قرب جامع التوبة - هاتف: ٢٣١٩٧٦٧

شارع بغداد - سادات - جادة عاصم - هاتف: ٤٤٧٤٧١٦

جوال : ٠٩٣٢٦٦٧٣٣٩ - ٠٩٥٥٨٩٣٢٨٣

E-mail:alnouman1@yahoo.com

شرح

تعليم المتعلم

طريق التعلم

صنفه
برهان الإسلام الزرنوجي
من القرن السابع

شرحه
العلامة إبراهيم بن إسماعيل
من القرن العاشر

حققه وعنونه وعلق عليه
عبد الجليل العطا
«البكري»

دار النعمان للعلوم
دار المعالي للعلوم

الإهداء

إلى فلذات الأكباد وآمال الإسعاد .. إلى زينة الحياة وذخر الممات

إلى الإخوة المتكاملين .. من البنات والبنين

منية .. غنية .. يمنة

ثم إلى مزيج الدم والأدب .. ورديف العلم والنسب

سعيد عبد المولى أحمد عبد النور

سائلاً المولى سبحانه أن يجعلكم مثالاً يحتذى

أخوة نسب وعلم .. ومجلى دين وعمل

ولحمة مودة وإخاء .. وسدى ألفة ورحمة

.. ومنهاج تعلم وتعليم ..

وأن يجعلكم قرة عين للحبيب المصطفى الأعظم صلى الله عليه وسلم (أسوتكم)

وقرة عين لخليفته الصديق الأفخم رضي الله عنه (جدكم)

.. ولتسلموا لوالدكم ..

مقدمة شرح تعليم المتعلم:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي بنعمته تتمُّ الصالحات، وتتيسَّر الخيرات، وتُقبلُ المبرَّات، وتعظمُ الحسنات، وتنمو الزاكيات.

وأفضل الصلاة وأزكى التحيات على خير الخلائق والبريَّات المبعوث بالهدى والعظات، وعلى آله وأصحابه نجوم الاهتداء في الظلمات، وبدور الخير في المدلهمَّات.

أما بعد؛ فإنَّ أساسيَّة الكتاب في حياة العالم والمتعلِّم وطالب العلم لا ينتطح فيه عنزان، ولا يتجاذب فيه رأيان، ذلك لأنَّ مادَّة العلم والتعلُّم هي الكتاب والقرطاس، مع قلمٍ ونون!!

أما النون والقلم فحسبهما شرفاً قسم العزيز الجبَّار بهما جل جلاله، وحسب القرطاس عزَّاً أنَّه صفحات تدوين المعارف والعلوم، والمنطوق والمفهوم، وفيه يحفظ الماضي وبه ينقل الحاضر، وفيه التاريخ والمستقبل، وهو رسالة الأجداد إلى الأحفاد، وذكرى المآثر والأمجاد.

وحسب الكتاب أنَّه الاسم العَلَم على التنزيل، بل فيه الهدى بلا ريب، وإليه يعود الخير كلُّه بلا شكٍّ.

وإذا كان الفضل لكلِّ كتاب بما يحتويه؛ فإنَّ أهميَّة الكتاب الذي نقدِّمه

أنَّه يرسم للطالب منهاج تعامله مع الكتاب الذي يختاره ليتلقَّى منه.

ومع المدرِّس الذي يأمله ليجد عنده بغيته.

وعن زميل الطالب الذي يأخذ بيده ليشدَّ عضده فيتأهَّل بمن يصحبه؛ ليكونا أهلاً لحمل أمانةٍ ناءت بها الجبال، وأشفقت السماوات والأرض بما تضمَّنته من أهوال.

وها هنا تكمن أهميَّة هذا الكتاب الذي كان ومايزال من طليعة الكتب الأساس التي لا يجوز لطالب؛ أو عالم؛ أو باحث؛ أو متعلِّم أن يتجاوز اغتنامه لئلا يفوته عمرٌ مجيدٌ ليقف على بعض فوائده من تجاربه، وكيلا تمرَّ لحظات من وقته دون درب واضح يسلكه، ومن ثمَّ ستنغمر في متاهاتٍ عسرة أقلُّ ما فيها ضياعُ ثورة شبابه في غير ما يجدي تفوُّقه وارتقائه، فإذا به بعد زمن غير قليل في مراتع الحضيض.

ثمَّ إذا كان أصحاب الفهم والفكر يقولون: (لايغني كتاب عن كتاب).. فإنَّ أهل الغفلة والجهل يتصوَّرون أنَّه (قد يغني كتاب عن ألف كتاب).

وإذا كان (تعليم المتعلم طريقَ التعلم) يغني عن عشرات الكتب التربوية التي هو طالعتها وفاتحةُ السبق فيها.. فإنَّه لن يغني عن شرحه هذا الذي طالما تطلَّعت النفوس التوَّاقة للوقوف عليه والحظو به، فإنَّه أماط اللثام عن كثيرٍ من مكنونات أصله، وأفاض سجال الفهم على كثير من غالق عباراته، ووضع نقاطاً جليَّة على حروف خفيَّة فأزالت إعجامها،

وأنارت شعلتها، بعد أن كادت أن تخبوَ بعض ملامح ضيائها.

واسمح أخي القارئ أن لا أقدِّم لك شيئاً بين يـديك.. فلـيكن في مـا تراه كفاية مما تقرأ؛ أو تسمع، وليكن تقريرك بين عينيك.

حقَّاً لقد طال الفصل بين صدور المتن وشرحه، ولكن ما لا يدرك كلُّـه يمكن أن يستدرك جلُّه.

وقد شاء المولى سـبحانه أن نحـضِّر هـذا الـشرح بهيئـة العَجَـل الـذي حضَّرنا به متنه قبل سنوات، ولكن بقي في النفس الكثيرُ الكثيرُ مما يجيش في الخاطر، ويلزم تقديمه، ولكن عبثاً ننتظر فراغاً!! فليكن في وجـوب التلبيـة العاجلة عذر عن الفكرة المنتظرة الآجلة.

سائلين المولى سبحانه إكراماً لإخواننا الطلبة الأصفياء وبفضل صـالح دعواتهم أن يهيئ لنا من أمرنا رشداً، ومن ضيقنا مخرجاً، ومن أسباب الفهم والفتوح مرشداً، ومن التقوى شعاراً لججاً، لنقدِّم لهم ما تقرُّ به أعينُهم، ثمَّ تقرُّ به أعين أساتيذهم، لتقرَّ بالجميع عين الحبيب المصطفى ﷺ.

إنَّه سبحانه وتعالى أكرم مسؤول وخير مأمول، وبالإجابة جدير، وعلى ما يشاء قدير.

وصلَّى الله وسلَّم وبارك على المبعوث رحمة والمرسل هدايـة، وعـلى آلـه وصحبه وسلِّم تسليماً كثيراً. آمين.

الشارح والشرح

لم يتوفر لنا معرفة وافية عن شارح هذا الكتاب النفيس !!

وقد ضنَّت المصادر بترجمته أكثر مما ضنَّت بترجمة سابقه (مؤلِّف الكتاب)!!

وقد عرفنا من خلال إهدائه الكتاب إلى السلطان مراد الثالث بن السلطان سليم في فاتحة شرحه أنه من أعيان القرن العاشر ، ولا ندري كم قدِّر له من الحياة !! ولا أين توفي!! وكلُّ الذي عرفناه أنه العالم الفاضل إبراهيم بن اسماعيل . وأن مادَّته التي طرحها في هذا الشرح تدلُّ على قيمة علمية ، وتمكُّن لغوي متين ، وعناية عامَّة بشتى العلوم الإسلامية ، وبخاصة علوم الآلة (من نحو وقواعد وبلاغة وغير ذلك) .

أما هذا الشرح الممزوج .. فقد اهتمَّ بالجوانب اللغوية أكثر من اهتمامه بالجوانب التربوية والتوجيهية ، وكان بودِّنا لو استوعب ما يلزم من توضيح تمثيلي للمناهج الذي ذكرها المؤلف ، وما يتبع من شواهد قرآنية أو نبوية أو قصص وحكايا لأهل العلم والتربية والسلوك !! إذن لكان موسوعة تربوية جديرة باهتمام الباحثين والدارسين لتبقى منهلا ثرياً لأجيال مديدة ومؤسسات تربوية عريقة .

ومهما يكن من أمر .. فإن هذا الكتاب قد سبق طبعه أكثر من مرَّة أولاها في مطبعة مصطفى محمد سنة : ١٣٠١ في ٥٢ صحيفة والثانية في المطبعة الميمنية : ١٣١١ في ٦٢ صحيفة وبهامشها ((تعليم المتعلم)) والثالثة في مطبعة البابي الحلبي : ١٣٤٢ في ٤٨ صحيفة وبهامشها ((تعليم المتعلم)) .

وأرجو الله تعالى أن يكتب لهذا الطبعة القبول والتوفيق لتكون تلبية لائقة لطالب العلم.

مقدمة التحقيق[1]

الحمد لله، وصلى الله على سيِّدنا رسول الله.

وبعد؛ فإنَّ هذا الكتاب المختصر يعتبر من طليعة التصانيف التربوية التي أسهمت وما تزال تسهم في رسم خطط التعليم الهادف والتربية الصحيحة لطالب العلم، وتعمل على ضبط مسلكه وتسديد خطاه..

وهذا كتابٌ مدرسيٌّ نفيسٌ ومفيدٌ جدَّاً، أطبقت شهرتُه بقاعاً شتَّى لأجيال عديدة، وعُرف مؤلِّفه بهذا الكتاب اليتيم، كما عرف بتلمذته للفقيه الشهير صاحب «الهداية».

ولكنَّ عَلَميَّة هذا الكتاب بما فيه من توجيهات تربوية مفيدة وضرورية خفقت في سماء الأقطار الإسلامية المتباعدة، وفي أندية العلم المتناثرة؛ فاكتسب عناية وافرة لدى الناشرين والباحثين؛ بله الطلبة والمبتدئين، فحظي مع إشراق شمس الطباعة بكثير من أشعتها الفتية فطبع مرات عديدة كان أهمُّها:

١- في ألمانيا سنة ١٧٠٩، وليبسيك: ١٨٣٨، وفي مرشد آباد وتونس: ١٢٨٦هـ، وفي الآستانة: ١٢٩٢، وفي قازان: ١٨٩٨ وفي مصر: ١٣٠٠ وغير ذلك الكثير، وكان آخرها في مطبعة البابي الحلبي: ١٣٦٧ ثم وفقنا الله تعالى لإصداره تلبية لحاجة ملحَّة قبل سنوات وبقي في النفس رغبة صارمة لإصدار

---

(١) للمتن (تعليم المتعلِّم) المجرَّد قبل أن نضيف إليه الشرح فأبقينا عليه.

شرح له، أو إخراجه مرَّة ثانية مع شرحه. ـ انظر (مقدمة الطبع) ـ وهذا فضلاً عن مئآت النسخ الخطية التي ما يزال متداولاً منها الشيء الكثير.

وهكذا فإن مؤلِّف هذا الكتاب قد قدَّم لأبناء دينه ولغته وأحفاده من طريق العلم ما يجب أن يخلِّد له الذكر الحسن والثناء العطر والصيت الذائع.. حيث سبق في ميدان التربية والتوجيه والتعليم قروناً ومحاولاتٍ تربويةً هادفةً، فكان مَنْ كتب بعده عالة عليه ناهلاً من معينه.

ولكن ترى هل صاحب هذا الكتاب هو برهان الإسلام الزَرْنُوجِي، أم رجل آخر غيره؛ وقد اختصره الزَرْنُوجِيُّ!؟ وإذا كان الأمر كذلك فلماذا أغفل اسم المؤلف الأول، ثم لماذا نُكِّرَ هذا الثاني؟!

والذي أستطيع أن أبرِّر فيه هذه الاستفهامات أنَّ عبارة المؤلف ههنا تدلُّ على أن الزرنوجي (تلميذ صاحب الهداية) ولكنَّ هذا الكتاب ليس تصنيفاً مبتدأً له ـ كما أظنُّ ـ ولكنه مختصر من كتاب آخر يجب أن نستحثَّ الخُطَا وندأب البحث لنقف فيه على حقيقة الحال ومجلى الواقع! وهذا ما أعِدُ به في تحقيقٍ آخر لهذا الكتاب؛ إن شاء الله تعالى، أو استنهض فيه همَّة مباركة للراغبين بالحقيقة والمهتمِّين لها، وإلاَّ! فأعِدُ أن أتتبع ذلك المسلك الوعر لأسهم في ردِّ النصاب لصاحبه ومنح الوسام لمستحقِّه.

وعلى كلِّ حال ـ ومع محافظتنا على نسبة الكتاب لصاحبه ـ نقول: إنَّ في عبارات الكتاب ما يُشير إلى ما أريد أن أقوله، فدونك ـ إن شئت ـ قوله في

الفصل الثاني: (وأنشد الشيخ الإمام الأجلُّ برهان الدِّين) ولم يشر الى تلمذته عليه، ولم يذكر أي لقب يدلُّ على الإضافة (شيخنا...)؟!

وكذلك بعده بقليل... أنشدنا الشيخ الإمام الأجل قوام الدين...

بينما في آخر الفصل ذاته يقول: وقد كان إمامنا!!، وكذلك في الفصل الرابع: وكان أستاذنا شيخ الإسلام...

وتأمَّل قوله في الفصل السادس: بداية السبق: انتهى وقال أيضاً (؟!)... آفة. قال أستاذنا...

وتأمَّل وأنعم النَّظر في قوله في الفصل الخامس (قال المصنف رحمه الله؟!: وقد اتفق لي في هذا المعنى...).

هكذا يتراآى لي!! ولكنِّي لستُ في مقام التصويب أو اليقين، وإنَّما أضع هذا بين أيدي الباحثين المأمونين، وأُسهم معهم في هذه الخيوط الضئيلة الباهتة فأجعلها بين ناظريهم من ترجمة المؤلِّف بغيةَ الوقوف على حقيقة الحال؛ فأقول ـ وبالله التوفيق ـ:

ترجمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

لقبه: هو برهان الإسلام، أو برهان الدين. والأولى أشهر.

اسمه: لا يُعْلَم اسمه العَلم على وجه التحديد. والله أعلم مَنْ وراء خفائه!!

نسبته: إلى (زرنوج) بلدة مشهورة من وراء النهر بعد خوجند، من أعمال تركستان.

شيوخه: قرأ وتتلمذ على العلامة الجليل علي بن أبي بكر المرغيناني الرشداني (مؤلف الهداية)، وقد اشتهر بنسبته إلى هذا الشيخ الجليل حتى غلب على اسمه؛ فضلاً عن كنيته.

ومن شيوخه أبو المحامد قوام الدين حماد بن إبراهيم الصفار، وقد ترجمناه بإيجازٍ في بعض الهوامش..

ومما يدل على تلمذته للعلامة الكبير حسن بن منصور (قاضيخان) قوله في الفصل الرابع: وكان أستاذنا القاضي...

ومن شيوخه أيضاً ركن الإسلام محمد بن أبي بكر الجوغي المعروف بـ(إيمان زاده) صاحب «شرعة الإسلام» المتوفى سنة ثلاثٍ وسبعين وخمس مئة.

ومنهم سديد الدين الشيرازي كما يفهم مما ذكره في الفصل الرابع.

طبقته: عرف من أهل طبقته تاج الدين النعمان بن إبـراهيم الزرنـوجي المتوفى ببخارا يوم عاشوراء سنة أربعين وست مئة، لـه «الموضـح» في شرح «المقامات».

ومن أقرانه في الطلب عنـد الـصفار: افتخـار الـدين طـاهر بـن أحمـد (صاحب الخلاصة).

تصانيفه: لم يعرف له إلا هذا الكتاب الذي اشتهر به.

وفاته: لم نعثر على تاريخ دقيق لوفاته، إلا أنه من أعيان القرن السابع!

* * * *

* * *

* *

*

مقدمة الطبع

بسم الله الرحمن الرحيم

في ظرف خاصٍّ... وبين يدي مسؤولياتٍ كثيرة.. ومن خلال التزاماتٍ عديدة.. قصدنا بعض طلبة العلم من بلاد بعيدة يرغبون أن نوفر لهم عدداً من كتاب «تعليم المتعلم».. هذا الكتاب النفيس الذي لا يجوز أن يستغني عنه طالب علمٍ، لأنه يرسم له خطة تجعل منه علماً عاملاً، أو على الأقل طالب علمٍ موفقاً، ولأن لي بهذا الكتاب صلةً طيبة حينما حققت رسالة تتشابه معه في أبحاثه وعباراته ونصوصه هي «ترغيب المتعلمين» للقسطموني.. ولأجل النصيحة بل الأمانة الملقاة في أعناقنا.. لم أجد بُدَّاً من أن ألبِّي هذه الرغبة الواجب تنفيذها لهؤلاء الإخوة القادمين.

وحاولت أن استرق من وقتي ما هو ضيق لأنفذ هذه الرغبة التي لامست شغاف قلبي لأقدم لإخواني وأحبابي من طلبة العلم عموماً، وأبناء المعاهد الشرعية خصوصاً ما يجعلهم أهلاً لحمل المسؤولية الملقاة على عواتقهم...

وبحثت في أنحاء مكتبتي لأجد نسخة ما من هذا الكتاب فعثرت على مطبوعة في مطبعة البابي الحلبي سنة ١٩٤٨ وعثرت على نسخة ثانية مع

الشرح الوحيد لهذا الكتاب للشيخ إبراهيم بن إسماعيل مطبوع أيضاً في مطبعة البابي الحلبي سنة ١٩٤٢ وهو الشرح الذي ذكره في «كشف الظنون».

ولم نجد له شارحاً آخر، فوجدت من بعض الواجب توفير نسخة للشرح تعمُّ فيه الفائدة بالقدر الممكن، فإن قدَّر الله سبحانه أن يكرمنا بشرحه يكون هذا الشرح بلغة بين أيدي إخواننا الطلبة، وإن لم يكن يُقَدِّر المولى ذلك... نكون قد أدَّينا بعض الواجب نحو الشارح رحمه الله بإحياء كتابه، ونشره المتحتِّم على الغيور على العلم وأهله.

وقد اعتمدنا المطبوعة المذكورة، اكتفاء، لا كفاية.

وقد حاولت تلبية نصيحة المؤلف في (الفصل الثاني) فألحقت تيسيراً على الطالب وصية إمامنا الأعظم ليوسف بن خالد السمتي وجعلتها رديفة لهذا الكتاب لمالها من صلة وثيقة في كيفية تعامل العالم مع من حوله.

وألحقت أيضاً تلك القصيدة العصماء التي تعبر عن شخصية الوريث المحمدي فأثبتها مع هذا الكتاب.. كما ستجد ذلك، وقد عنونتها بـ «خلق العالم».

وهكذا سيبدو للقارئ الكريم أني تخيَّرت نسخة مميزة لهذا الكتاب جمعت فيها عدداً من النسخ إضافةً إلى تصويب ما يلزم لهذا النَّصَّ مستعيناً بكتب التراجم على حسب ورودها في مواضعها؛ نقلاً عن هذا الكتاب.

وإن كان لابدَّ من بيان المنهج المتَّبع في إخراج هذا الكتاب فقد:

١ ـ ضبطت النصَّ ضبطاً تاماً.

٢ ـ رقمته بعلامات الترقيم.

٣ ـ عنونت فقراته كاملةً.

٤ ـ عزوت الآيات لمواضعها، وخرَّجت الأحاديث الشريفة.

٥ ـ أتممت فوائده بما يحتاجه طالب العلم مما هو ضروريٌّ؛ أو مفيد.

٦ ـ ترجمت الأعلام الوارد أسماؤها مما أراه مؤدياً بعض الغرض.

٧ ـ شرحت الغريب مما يلزم للطالب ملاحظاً الشريحة الأوسع.

٨ ـ حاولت التعريف بالكتاب ومؤلفه.

٩ ـ وضعت فهارس عامة لتسهيل الاستفادة منه.

ختاماً.. أسأل الله تعالى أن يوفقنا جميعاً لما يحب ويرضى، وأن يتقبل صالح أعمالنا، وأن يجعله سبباً للنفع الدائم والإفادة المثمرة، وأن يجزي عنا شيوخنا وآباءنا وأهلينا وأحبابنا ومحبينا خير الجزاء، ويحسن ختامنا وختامهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وصلى الله على سيِّدنا محمَّد، وعلى آله وصحبه وسلم.

عبد الجليل العطا البكري

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أنعم علينا بأنواع النعم ولطائف الإحسان، وفضَّلنا على سائر خلقه بتعليم العلم والبيان، والصلاة والسلام على محمَّد المبعوث بخير الملل والأديان[1]، وعلى آله وأصحابه بدور معالم الإيمان؛ وشموس عوالم العرفان.

وبعد؛ فلمَّا رأيت الكتاب المسمَّى بـ(تعليم المتعلم) مرغوباً ومقبولاً بين أيدي أولي التعليم والتعلُّم؛ خصوصاً بين الطالبين الساكنين في حرم أشرف الملوك والسلاطين، وكان في بعض نظمه ونثره مواضعُ محتاجة لكشف أستاره.. أردتُ أن أشرحه شرحاً يبيِّن معاقده ويكشف معانيه ومبانيه؛ رجاءً من الطالبين الملتمسين[2] أن يذكروني في دعائهم إلى يوم الدين، وجعلته تحفةً للحضرة الرفيعة والسُدَّة السَّنِيَّة، لا زالت كعبة الآمال وقبلة الإقبال.

عَمَّ البَرَايَا جَمِيعَاً فَيْضُ رَاحَتِهِ ... كَمَا تَعُمُّ أَيَادِي البَحْرِ وَالمَطَرِ

هَيْهَاتَ أَنَّهُمَا جَادَا بِدُونِ حِجَا ... وَأَنَّهُ بِالمَعَانِي أَعْلَمُ البَشَرِ

---

(١) لا تجوز صيغة الجمع في (الأديان)؛ وإنَّما هي (شرائع)!!.

(٢) الالتماس: طلب الأدنى ممن هو أعلى منه.

أعني به السلطانَ الأعظم والخاقان المعظَّم صفوةَ سلاطين الأمم، ظلُّ الله على مفارقِ[1] أهل الدنيا، العالم مولى ملوك العرب والعجم؛ السلطان ابن السلطان/ السلطان: مرادخان ابن سليم خان خلَّد الله له خلافته، وأيَّد سلطَنَتَهُ ما دار الفلك الدوَّار، واختلف الليل والنهار، وأنا أرجو من محاسن كرمه وكمال شيمه أن يقبله بحسن القبول؛ إنَّه خير مأمول وأكرم مسؤول[2].

﴿وَمَا تَوْفِيقِيٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾[3].

قال المصَنِّف رحمه الله: الحَمْدُ لله

الحمدُ: هو الوصف بالجميل الاختياري على وجه التعظيم والتبجيل، وهو باللسان وحده.

والشكر يكون باللسان والجنان والأركان، لكن في مقابلة النعمة خاصَّة، فعلى هذا يكون بينهما عمومٌ وخصوصٌ من وجه.

وبقيد الاختياري خرج المدحُ، فإنَّه لا يختصُّ بالاختياري، بل يوجد في غيره!

كما يقال: (مدحت زيداً على حسنه ورشاقة قدِّه) فليس بينهما ترادف، بل بينهما أخوّة من جهة الاشتقاق الكبير وتناسب تام في المعنى؛ كالنصرة والتأييد، فإنهما متناسبان معنىً من غير ترادف، وإنما مرادف النصر الإعانة،

---

(١) المفرق: الهامة. أو أعلى الرأس في مفرق الشعر.

(٢) جرت العادة بهذا الاستعمال للحق جلَّ جلاله. فلا تطلق على الغير إلا مجازاً.

(٣) تضمين من الآية الكريمة.

ومرادف التأييد التقوية. فتدبَّر.

وارتفاعه[1] بالابتداء، وخبره الظرف وأصله (حمداً) بالنصب؛ كما هو شأن المصادر المنصوبة بأفعالها المضمرة التي لا تستعمل معها نحو شكراً وعجباً، وإيثار الرفع على النصب؟! للإيذان بأنَّ ثبوت الحمد لله تعالى لذاته لا لإثبات مثبت.

وأنَّ ذلك أمرٌ دائمٌ؛ لاحادث متجدِّد، كما يفيده النصب.

والله: اسمٌ للذات الواجب الوجود المستجمع لجميع الصفات الإلهيَّة، وهو وجه الاختيار على سائرها، وهو عند الخليل وابن كَيْسان وأبي حنيفة غير مشتقٍّ، وهو الأصحُّ، ووجهه مبيَّن في المفصَّلات، فلينظر ثمَّة.

الَّذِي فَضَّلَ بَنِي آدَمَ، وصفه بهذا الوصف بقوله تعالى في حقِّهم ﴿وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا﴾ [الإسراء: ٧٠].

وآدمُ: اسمٌ أعجميٌّ، والأقربُ أنَّ وزنه فاعل كـ(شالح) لا أفعل، والتصدِّي لاشتقاقه من الأدمَة بالفتح بمعنى الأُسوة، أو من (أديم الأرض) بناءً على ما رُوي عن النبيِّ ﷺ من أنَّ الله تعالى قبض قبضة من جميع الأرض سَهلِها و حَزْنِها، فخلق منها آدم، ولذلك اختلف ألوانُ ذرِّيته.

أو من الأدم والأدمة بمعنى الأنفة تعسُّفٌ؛ كاشتقاق إدريس من

---

(١) معناه: مرفوع بالإعراب.

(الدرس)، ويعقوب من (العقب)، وإبليس من (الإبلاس).

بِالعِلْمِ وَالعَمَلِ عَلَى جَمِيْعِ العَالَمِ قيل: العالم اسمٌ لذوي العلم من الملائكة والثقلين.

وقال المتكلِّمون: العالم اسمٌ لكلِّ موجود يعلم به الخالق؛ سواءٌ كان من ذوي العلم، أو لا، كالطابع لما يُطبَع به والخاتم لما يختم به، يقال: عالم الملك وعالم الإنس والجنِّ، وكذا عالم الأفلاك، وعالم النبات، وعالم الحيوان، وليس اسماً لمجموع ما سوى الله تعالى بحيث لا يكون له أفراد، بل أجزاء فيمتنع جمعه، سُمِّيَ به! لكونه علامة على وجود الصنائع، وهو في الأصل علم زيد الألف للإشباع.

روي عن وهب بن منبِّه أنَّه قال: إنَّ لله تعالى ثمانيةَ عشرَ ألف عالم، والدنيا عالَمٌ منها.

وَالصَّلَاةُ وهي من الله: الرحمة والمغفرةُ، ومن عباده: دعاءٌ، ومن ملائكته: استغفار.

فإذا قيل: (إنَّ الله تعالى يصلِّي على فلان)... فالمراد منه أنَّه تعالى يرحمه ويغفر له.

وإذا قيل: (إنَّ فلاناً يصلِّي على فلان)... فالمراد منه أنَّه يدعو له.

وإذا قيل: (إنَّ الملائكة يصلُّون على فلان)... فالمراد منه أنَّهم يستغفرون له.

عَلَى مُحَمَّدٍ، ومعناه المحمودُ المشكور مرَّةً بعد أخرى، كالمكرَّم الذي أكرم مرَّةً بعد أخرى، فهو المحمود في الدنيا، لما نفع به الخلق من العلم والحكمة، والمحمود في الآخرة بشفاعته عند ربِّه. كذا في (شرح «المقدِّمة»).

وفي «الصحاح»: التحميدُ أبلغ من الحَمْدِ، والمُحمَّد الذي كثرت خصاله المحمودة. وهذا إشارةٌ ألى أنَّ التكثير في الفعل مثل (جوَّلت، وطوَّفت).

وآمنة أمُّ النَّبيِّ ﷺ التي سمَّتْهُ به حين ولدته بإشارةٍ إلهيَّةٍ.

قال ﷺ : «اِسْمِي مُحَمَّدُ الَّذي سَمَّانِي بِهِ أَهْلِي».

وروى ثوبان مولى رسول الله ﷺ أنَّ آمنة لَمَّا حملت بالنَّبيِّ ﷺ أُتِيت[1]، فقيلَ: حَمَلتِ بسيِّد هذه الأمَّة، فإذا وقع على الأرض فقولي: (أُعِيذه بالواحد من شرِّ كلِّ حاسد) ثمَّ سمِّيه محمَّداً، فلما وضعته سمَّته محمداً.

سَيِّدُ العَرَبِ وَالعَجَمِ العَرَب: بالفتح، و[العُرْب] الضم اسم جنس، وكذا العجم.

والمراد من العجم: غيرُ العرب كائناً مَن كان[2].

والدليلُ على أنَّه سيِّدهما، قوله ﷺ: « أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ وَلَا فَخْرَ لِي».

وَعَلَى آلِهِ وَالآل في الأصل: الأهل.

---

(١) يعني: أتاها آتٍ من ربِّها سواء كان بمنام أو يقظة، أو إلهام.

(٢) يعني: من أيِّ الأمم كان! لا خصوص الفرس كما هو المشهور في الاستعمال. وذلك كالفارسية: تطلق على كل لغة ما عدا العربية، لا خصوص لغة فارس.

ولهذا قيل في تصغيره أُهَيْل، فإنَّه قد خُصَّ بالأشراف، فلا يقال: (آل حائك)! وقيل (آل فرعون)!! لتصوُّره بصورة الأشراف، وآله من جهة النسب أولاد عليٍّ وعبَّاس وجعفر وعقيل وحارث بن عبد المطلب.

ومن جهة السبب؛ وهو الدين: « كُلُّ مُؤمِنٍ»، أو « كُلُّ مُؤْمِنٍ تَقِيٌّ» على اختلاف الروايتين.

والظاهر أنه أراد به من جهة الدين لأنَّ آل الأنبياء متبعوهم.

قال الله تعالى في ولد نوح عليه الصلاة والسلام: ﴿إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ﴾ [هود: ٤٦].لما نادى ربَّه وقال ﴿إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى﴾ [هود: ٤٥].نفى ابنه أن يكون من أهله مع أنَّه ابنه خُلِق من مائه!! لمَّا لم يكن متَّبعاً له.

وَأَصْحَابِهِ جمع (صاحب) وهو: كلُّ مَن صحب النَّبيَّ ﷺ وشَرُفَ بشرف رؤية جماله.

يَنَابِيْعِ جمع يُنْبُوع؛ وهو عين الماء، العُلُومِ فهذا من قبيل إضافة المشبَّه به إلى المشبَّه كلجين الماء، والجامع كونهما في غاية اللطافة ونهاية القبول.

وَالحِكَمِ جمع حكمة؛ وهي: العلم بالأشياء على ما هي عليه.

وَبَعْدُ؛ فَلَمَّا رَأَيْتُ كَثِيْرَاً مِنْ طُلَّابِ العِلْمِ فِي زَمَانِنَا يَجِدُّونَ بكسر الجيم، من الجدِّ؛ وهو السعي، أو من الإجداد وهو السعي أيضاً، يقال: (جدَّ في الأمر) و(أجدَّ فيه) أيضاً. والجملة مفعول ثان لـ (رأيت).

إلَى العِلْمِ متعلِّق بقوله وَلَا يَصِلُونَ من الوصول،والمصنف ذكر علَّته فيما بعد.

أو مِنْ مَنَافِعِهِ[1] وَثَمَرَاتِهِ الضميران يرجعان إلى العلم، وَهِيَ العَمَلُ بِهِ وَالنَّشْرُ أي: نشر مسائله بالتعليم، وقوله: (أو من منافعه) متعلِّق بقوله: يَحْرِمُونَ بكسر الراء،من باب (حسِب) من الحرمان، ولَمَّا بيَّن أحوال طلبة زمانه من كونهم مجدِّين، ولكن لا يكونون واصلين مطلبَ العلم، بل يكونون محرومين من منافع العلم وثمراته بيَّن علَّتها؛ فقال:

لَـمَّا أَنَّهُمْ أَخْطَؤُوا طَرَائِقَهُ أي: في طرائق طلب العلم.وَتَرَكُوا شَرَائِطَهُ التي تذكر في هذا الكتاب، وَكُلُّ مَنْ أَخْطَأَ الطَّرِيْقَ الموصل إلى المطلوب ضَلَّ أي: يصير واقعاً في الضلالة.

وَلَا يَنَالُ المَقْصُودَ؛ قَلَّ أوْ جَلَّ أي: صغر ذلك المطلوبُ أو عظم.. أَرَدْتُ جواب (لـمَّا).

وَأَحْبَبْتُ أنْ أُبَيِّنَ لَهُمْ أي: للطلاب طَرِيْقَ التَّعَلُّمِ ؛كائناً عَلَى مَا رَأَيْتُ فِي الكُتُبِ[2]، وَسَمِعْتُ معطوفٌ على (رأيت) مِنْ أَسَاتِيْذِي أُولِي العِلْمِ وَالحِكَمِ قوله: (أولي) جمع ذي لا على لفظه مجرور على أنه صفةٌ لـ(أساتيذي) وهي جمع (أستاذ) مضافة إلى ياء المتكلم ؛ رَجَاءَ حال من فاعل (أنْ أُبيِّن) بمعنى راجياً الدُّعَاءَ لِي مفعول (رجاء)، مِنَ الرَّاغِبِيْنَ متعلِّق بقوله رجاء، أو بمحذوف على أنه حال من الدعاء؛ أي: كائناً من الراغبين فِيْهِ أي: في

---

(١) وهي العمل به ونشره.

(٢) الكتب التربوية والتعليمية التي تعنى بتوجيه طالب العلم وتسديده.

العلم، الْمُخلَصِيْنَ بفتح اللام، بِالفَوْزِ أي: بالظفر على المراد، وَالخَلَاصِ فِي يَوْمِ الدِّيْنِ أي: في يوم القيامة، بَعْدَمَا اسْتَخَرْتُ الله تَعَالَى فِيْهِ العامل في (بعد) أردتُ. أي: أردت بيان طريق التعلُّم لهم بعدما طلبت من الله تعالى الخيرة فيه.

وَسَمَّيْتُهُ معطوف على (أردت) والضمير راجع إلى الكتاب المذكور حكماً: «تَعْلِيْمُ الْمُتَعَلِّمِ» قوله: (المتعلِّم) مفعول أوَّل للتعليم ومفعوله الثاني طَرِيْقَ التَّعَلُّمِ.

وَجَعَلْتُهُ فُصُولاً:وهي ثلاثة عشر فصلاً.

فَصْلٌ أي: من الفصول فِي مَاهِيَّةِ العِلْمِ وَالفِقْهِ وَفَضْلِهِ.

فَصْلٌ: فِي النِّيَّةِ حَالَ التَّعَلُّمِ.

فَصْلٌ: فِي اخْتِيَارِ العِلْمِ وَالأُسْتَاذِ وَالشَّرِيْكِ وَالثَّبَاتِ.

فَصْلٌ: فِي تَعْظِيْمِ العِلْمِ وَأَهْلِهِ.

فَصْلٌ: فِي الجِدِّ وَالمُوَاظَبَةِ وَالهِمَّةِ.

فَصْلٌ: فِي بِدَايَةِ السَّبَقِ بفتح الباء وَتَرْتِيْبِهِ -أي: ترتيب قراءته بالتقدُّم والتأخُّر- وَقَدْرِهِ -أي: مقداره-.

فَصْلٌ: فِي التَّوَكُّلِ.

فَصْلٌ: فِي وَقْتِ التَّحْصِيْلِ.

فَصْلٌ: فِي الشَّفَقَةِ وَالنَّصِيْحَةِ.

فَصْلٌ: فِي الاسْتِفَادَةِ.

فَصْلٌ: فِي الوَرَعِ حَالَ التَّعَلُّمِ.

فَصْلٌ: فِيمَا يُورِثُ الحِفْظَ، وَفِيمَا يُورِثُ النِّسْيَانَ.

فَصْلٌ: فِيمَا يَجْلِبُ الرِّزْقَ وَمَا يَمْنَعُهُ، وَمَا يَزِيْدُ فِي العُمُرِ، وَمَا يَنْقُصُ.

وَمَا تَوفِيْقِي إلَّا بِالله، عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيْبُ.

* * * *

* * *

* *

*

الفصل الأول

فَصْلٌ فِي مَاهِيَّةِ العِلْمِ أي: في حقيقة العلم

وَالفِقْهِ وَفَضْلِهِ أي: فضل كلٍّ منهما.

والمصنِّف قدَّم في الإجمال ماهية العلم، وفي التفصيل قدَّم بيان فضله تنبيهاً على أنَّ المقصود في هذا الكتاب:

أوَّلاً: بيان فضل العلم والفقه؛ تحريضاً للطالبين على طلبهما.

وثانياً: بيان ماهيَّتهما لئلا يلزم طلب المجهول فقدَّم ماهو المقصود بالذات. فقال:

فرضيَّة العلم: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « طَلَبُ العِلْمِ فَرِيْضَةٌ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ »[1].

---

(١) أخرجه الإمام أبو حنيفة في «مسنده»: ٣٠؛ ٣١؛ عند عبد الله بن مسعود، وأبي هريرة.

وأخرجه ابن عبد البر في « جامع بيان العلم وفضله»: ٨/ ٩ عن أنس س مرفوعاً؛ وقد صحح بعض الأئمة بعض طرقه كما ذكره العراقي في « تخريج الإحياء». وقد جعله المزي حسناً بمجموع طرقه.

أما لفظ (مسلمة)! فهو داخل في إطلاق (مسلم). وقد قال السخاوي في «المقاصد»: ألحق بعض المصنفين بآخره كلمة (مسلمة)؛ وليس لها ذكر في شيء من طرقه، وإن كان معناها صحيحاً!!

قال إسحاق ابن راهويه: معناه أنه يلزمه علم ما يحتاج إليه من وضوئه وصلاته وزكاته؛ إن كان له مالٌ، وكذلك الحجُّ وغيره.

ابتدأ بالحديث الشريف تبرُّكاً وتيمُّناً يعني: طلب العلم فرض عينٍ على كلِّ مسلم مكلَّف ومسلمة مكلَّفة، كالعِلم المتكفِّل ببيان معرفته تعالى بالوحدانية ومعرفة صفاته وصدق الرسول، إذ لا يجوز التقليد فيه، لقوله تعالى ﴿ فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ ﴾ [محمد: ١٩].

وقوله ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣].

وكعِلم الصلاة والطهارة على كلِّ مسلم بالغٍ.. فقيراً كان؛ أو غنيَّاً، وكعلم الزكاة والحجِّ إن وجبا عليه.

وأما بلوغ رتبة الاجتهاد والفتوى.. ففرض كفايةٍ، إذا قام به واحدٌ من أهل بلد كفى،وسقط عن الباقين، وعليهم التقليدُ فيما يخطر من الحوادث، وإن تقاعدوا كلُّهم عنه؟ عصوا جميعاً، فإذن المسلم والعلم كلٌّ منهما عامٌّ مخصوص بعلم ابتلي به، ومسلم عاقل بالغ. كذا في (شرح « المصابيح»).

وإلى هذا المعنى أشار المصنِّف؛ فقال:

علم الحال: اعْلَمْ بِأَنَّهُ الضمير للشأن لَا يُفْتَرَضُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَ مُسْلِمَةٍ طَلَبُ كُلِّ عِلْمٍ، بَلْ يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ طَلَبُ (عِلْمِ الحَالِ).وهو علم أصول الدين وعلم الفقه.

والمراد من (الحال) ههنا: الأمر العارض للإنسان من الكفر والإيمان والصلاة والزكاة والصوم وغيرها من الأحوال؛ لا الحال المقابل للمستقبل.

فضيلته: كَمَا يُقَالُ: أَفْضَلُ العِلْمِ عِلْمُ الحَالِ، وَأَفْضَلُ العَمَلِ حِفْظُ الحَالِ من الضياع والفساد.

وَيُفْتَرَضُ عَلَى الْمُسْلِمِ طَلَبُ عِلْمِ مَا يَقَعُ لَهُ أي: للمسلم، فِي حَالِهِ أي: في صلاته مثلاً من المفسدات والمصلحات، فِي أَيِّ حَالٍ كَانَ أي: في الصحَّة والمرض والسفر والحضر، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ مِنَ الصَّلَاةِ؛ فَيُفْتَرَضُ عَلَيْهِ عِلْمُ مَا يَقَعُ لَهُ فِي صَلَاتِهِ من الشرائط والأركان بِقَدْرِ مَا يُؤَدِّي بِهِ فَرْضَ الصَّلَاةِ مثلاً القراءة فرضٌ في الصلاة، فعلمُ فريضة مقدار ما يؤدِّي به الصلاة يعني: آية طويلة أو ثلاث آيات قصار فرضٌ أيضاً.

وَيَجِبُ عَلَيْهِ أي: على المسلم عِلْمُ مَا يَقَعُ لَهُ في صلاته بِقَدْرِ مَا يُؤَدِّي بِهِ الوَاجِبُ مثلاً: ضمُّ السورة واجب في الصلاة، وعلمه أيضاً واجبٌ، لِأَنَّ مَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى إِقَامَةِ الفَرْضِ[1].. يَكُونُ فَرْضاً؛ كالوضوء، فإنَّه وسيلة لها فيكون فرضاً، وَمَا يُتَوَصَّلُ بِهِ إِلَى إِقَامَةِ الوَاجِبِ.. يَكُونُ وَاجِباً فالعلمُ بالفروض والواجبات سببٌ لإقامتها؛ فيكون فرضاً واجباً مثلها، وَكَذَلِكَ فِي الصَّوْمِ، وَالزَّكَاةِ إِنْ كَانَ لَهُ مَالٌ الشرط فيه للزكاة، وَالحَجِّ إِنْ وَجَبَ عَلَيْهِ يعني: يفترض عليه علم هذه الأشياء كما تفترض أنفسها.

وَكَذَلِكَ أعاد لفظ (كذلك) إشارة إلى المغايرة من جهة كون ماسبق من

---

(١) ومنه ما هو عيني وكفائي، فالعيني: مطلوب من كل مكلف على حدة، والكفائي: من مجموع المسلمين. فيجب التنبُّه لكلٍّ منهما.

العبادات، وما سيأتي من المعاملات فِي البُيُوعِ؛ إنْ كَانَ يَتَّجِرُ[1] من التجارة؛ يعني: يفترض على كلِّ مسلم علمُ ما يقع في مبايعاته الشرعية ليتحرَّز به فيها عن الربا والشبهات والخلل والفساد.

حقيقة الزهد: وأيَّد هذا المعنى بقوله: قِيْلَ لِمُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ[2] رحمه الله: أَلَّا تُصَنِّفُ كِتَابَاً فِي الزُّهْدِ؟ ألَّا بالتشديد كلمةُ تحضيض فمعناها إذا دخلت على الماضي: التوبيخُ واللوم على ترك الفعل، ومعناها في المضارع: الحثُّ على الفعل والطلب له، فهي في المضارع بمعنى الأمر؛ يعني خاطب بعضُ التلاميذ محمدَ بن الحسن بقولهم: (ألا تصنِّف كتاباً في الزهد محرِّضين إياه على تصنيف كتاب في الزهد)، وفي بعض النسخ: لم لا تصنِّف كتاباً؟ فحينئذٍ يكون استفهاماً عن علَّة عدم تصنيفه، قَالَ: صَنَّفْتُ كِتَابَاً فِي البُيُوعِ

---

(١) وكذا العقود والمعاملات؛ كنحو النكاح والطلاق لمن تأهل له، أو الإجارة والرهن وغير ذلك لمن يحتاجه ويباشر أسبابه وأعماله. أما إقدام الشباب والفتيات على النكاح دون أن يتعلم ما يفترض عليه من أحكام الطلاق ونحوه! فقد ترك لنا في المجتمع آثاراً سيئة ربما أدت إلى عشرة أهله بالحرام...!! فإنا لله وإنا إليه راجعون.

(٢) أبو عبد الله محمد بن الحسن الشيباني الكوفي، أصله من قرية قرب دمشق تعرف بـ «حرستا»، ولد بواسط سنة ١٣٢ هـ، ثم قدم الكوفة حَدَثاً والتحق بحلقة أبي حنيفة ولازمة أربع سنوات، وأخذ عن مالك والثوري والأوزاعي وغيرهم، وعنه الشافعي وغيره، وصنف (كتب ظاهر الرواية) في مذهب أبي حنيفة وبها انتشر المذهب. ولي قضاء الرقة وغيرها للرشيد. وتوفي بصحبته في الري سنة: ١٨٩ هـ. عدَّ من المجتهدين ولكنَّه حافظ على نسبته الى الإمام الأعظم.

وفي بعض النسخ بالإضافة، فعلى النسخة الأولى يكون المعنى: صنَّفت كتاباً في أحوال البيوع من الصحَّة والفساد، وطرق التحرُّز فيها عن الشبهات والمكروهات.

يَعْنِي هذا التفسير من المصنِّف، وإنما فسَّر كلامه!! لأنَّ ظاهر كلامه لا يكون جواباً لسؤالهم، لأنَّ أحوال الزهد غيرُ أحوال البيوع، لأنَّه عبارة عن ترك الزينة والهوى والدنيا، فلا يناسب بيانها في كتاب البيوع فلا بدَّ من تفسير كلامه.

الزَّاهِدُ: مَنْ يَتَحَرَّزُ أي: يحفظ نفسه عَنِ الشُبُهَاتِ جمع: شبهة، أي: عن تناول الأشياء التي في حلِّها شبهة وَالمَكْرُوهَاتِ أي: عن الأشياء التي لا يجوز فعلها مع الكراهة. فِي التِّجَارَاتِ ظرف لقوله (يتحرَّز)، فالزهد الذي هو ترك هوى نفسه كان موجوداً في التحرُّز عن الشبهات فكان كتاب الزهد كتابَ البيوع لا محالة.

وَكَذَلِكَ يَجِبُ التحرُّز عن الشبهات فِي سَائِرِ المُعَامَلَاتِ وَالحِرَفِ أي: الصنائع؛ جمع حرفة.

وَكُلُّ مَنِ اشْتَغَلَ بِشَيْءٍ مِنْهَا أي: من هذه المذكورات يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ عِلْمُ التَّحَرُّزِ عَنِ الحَرَامِ فِيْهِ أي: في ذلك الشيء.

علم القلب: وَكَذَلِكَ أعاد لفظة (كذلك) أيضاً للمغايرة بين ماسبق من الأحوال وما سيأتي: من جهة أنَّ ماسبق أحوال القالب، وما سيأتي أحوال

القلب يُفْتَرَضُ عَلَيْهِ عِلْمُ أَحْوَالِ القَلْبِ؛ مِنَ التَّوَكُّلِ وهو إظهار العجز والاعتماد على الغير، يقال: (توكَّل على الله) أي: أسلم أمره إليه، وَالإِنَابَةِ أي: الرجوع إلى الله تعالى، وَالخَشْيَةِ وهي: الخوف من الله تعالى، وَالرِّضَا بحكم الله وقضائه، فَإِنَّهُ تعليل للافتراض أي: العلم بأحوال القلب وَقَعَ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ غير مختصٍّ بحال دون حال، فيفترض علمها في كلِّ حال؛ بخلاف الفروض التي تفترض بحال دون حال، فإنَّ فرضيَّة علمها مختصَّة بتلك الحال، وأمَّا في غير تلك الحال.. فعلمُها فرض كفاية.. إذا قام به أحدٌ سقط عن الباقين.

شرف العلم: وَشَرَفُ العِلْمِ لَا يَخْفَى عَلَى أَحَدٍ، إِذْ هُوَ أي: العلم، مُخْتَصٌّ بِالإِنْسَانِيَّةِ أي: بصفة الإنسانيَّة، لِأَنَّ جَمِيْعَ الخِصَالِ سِوَى العِلْمِ يَشْتَرِكُ فِيْهَا الإِنْسَانُ وَسَائِرُ الحَيْوَانَاتِ.. كَالشَّجَاعَةِ تمثيل للخصال، وَالجُرْأَةِ وهي: الشجاعة التي هي شدَّة القلب عند البأس فهما لفظان مترادفان. كذا في «الصحاح» و« القاموس». وَالقُوَّةِ، وَالجُوْدِ وفيه بحث يعلم بالتأمُّل، وَالشَّفَقَةِ بفتح الفاء وَغَيْرِهَا سِوَى العِلْمِ. هذا مستغنى عنه لذكره آنفاً.

وَبِهِ أي: بالعلم متعلِّق بقوله: أَظْهَرَ الله تعالى قُدِّم[1] للتخصيص فَضْلَ آدَمَ عَلَيْهِ السَّلامُ عَلَى المَلَائِكَةِ، جمع (مألك) باعتبار أصله الذي هو (ملاك)

---

(١) لفظ الجلالة.

على أنَّ الهمزة مزيدة كـ (الـشمائل) في جمـع (شـمال) والتـاء لتأكيـد تأنيـث الجماعة، واشتقاقه من (ملك)!! لما فيه من معنى الشدَّة والقوَّة.

وقيل على أنَّه مقلوب من (مألـك) مـن الألوكـة؛ وهـي الرسـالة أي: موضع الرسالة، ومرسَل على أنَّه مصدر بمعنى المفعول، فإنَّهم وسائط بـين الله تعالى وبين الناس، فهم رسله أو بمنزلة رسله عليهم الصلاة والسلام.

واختلف في حقيقتهم بعـد الاتفـاق عـلى أنَّهـم ذواتٌ موجـودةٌ قائمـة بأنفسها!! فذهب أكثر المتكلِّمين إلى أنَّها أجسامٌ لطيفةٌ قـادرة عـلى التـشكُّل بأشكال مختلفة؛ مستدلِّين بأنَّ الرسل كانوا يرونهم كذلك! وذهب الحكـماء إلى أنَّها جواهر مجرَّدة مخالفة للنفوس الناطقة في الحقيقة، وأنَّهـا أكمـل منهـا علماً وأكثر قوَّة تجري منها مجرى الشمس من الأضواء؛ منقسمة إلى قسمين:

١- قسم شأنهم الاستغراق في معرفة الحقِّ والتنزُّه عن الاشتغال بغيره، كما نعتهم الله عز وجل بقوله ﴿ يُسَبِّحُونَ ٱلَّيۡلَ وَٱلنَّهَارَ ﴾.[الأنبياء: ٢٠]. وهـم العليُّون المقرَّبون يدبِّرون الأمر مـن الـسماء إلى الأرض حـسب مـا جـرى عليهم قلم القضاء والقدر، وهم ﴿ فَٱلۡمُدَبِّرَٰتِ أَمۡرًا ﴾. [النازعات: ٥].

و٢- منهم أرضية ومنهم سماوية، وفي بيان كثرتهم تفاصيل، فليطلـب من المفصَّلات.

وبيانُ إظهـار فـضل آدم عـلى الملائكـة مـذكور في تفـسير قولـه تعـالى ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلۡأَسۡمَآءَ كُلَّهَا ﴾. [البقرة: ٣١]. فلينظر ثمَّة.

وَأَمَرَهُمْ بِالسُّجُودِ لَهُ السجود في اللغة: الخضوع، وفي الشرع: وضع الجبهة على الأرض على قصد العبادة، فقيل: أمِروا بالسجود له عليه السلام على وجه التحيَّة والتكرمة؛ تعظيماً له واعترافاً وأداءً لحقِّ التعليم، واعتذاراً لما وقع منهم في شأنه. وقيل: أمِروا بالسجود له، وإنَّما كان آدمُ قبلةً لسجودهم؛ تفخيماً لشأنه وسبباً لوجوبه، فكأنَّه لما رآه أنموذجاً للمبتدعات كلِّها ونسخة منطوية على تعلُّق العالم الروحاني بالعالم الجسماني، وامتزاجهما على نمط بديع.. أمرهم بالسجود له، لما عاينوا من عظم قدرته.

فعلى هذا تكون اللام في قوله ﴿ٱسْجُدُواْ لِآدَمَ﴾. [البقرة:٣٤].

١- بمعنى (إلى) كما في قول حسان بن ثابت رضي الله عنه:

أَلَيْسَ أَوَّلَ مَنْ صَلَّى لِقِبْلَتِكُمْ وَأَعْرَفَ النَّاسِ بِالقُرْآنِ وَالسُّنَنِ

أو ٢- للتوقيت؛ كما في قوله تعالى ﴿أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِدُلُوكِ ٱلشَّمْسِ﴾ [الإسراء: ٧٨]. أي: اسجدوا لله وقت خلقه آدم عليه السلام. والقول الأوَّل أظهر.

كرامة التقوى: وَإِنَّمَا شَرَفُ العِلْمِ على صيغة الفعل؛ من باب حَسُنَ، أو على صيغة المصدر على أنَّه مبتدأ وما بعده خبر،يعني:ما صار العلم أشرفَ وأفضل إلَّا لِكَوْنِهِ وَسِيْلَةً إلى التَّقْوَى اسم الاتقاء من الوقاية؛ وهي فَرَط الصيانة، وفي عرف الشرع: عبارة عن كمال التوقِّي عمَّا يضرُّه في الآخرة.

أقوال في التقوى

وعن عمر بن عبد العزيز أنَّه: تركُ ما حرَّم الله تعالى وأداء ما فرض.

وعن بعض العلماء: المتَّقي مَن يترك ما لا بأس به حذراً من الوقوع فيما فيه بأس.

وعن بعضهم: بين يدي التقوى خمسُ عَقَبات لا ينالها من لا يجاوزهُنَّ:

١- إيثار الشدَّة على النعمة.

٢- وإيثار الضعف على القوَّة.

٣- وإيثار الذلِّ على العِزَّة.

٤- وإيثار الجهد على الراحة.

٥- وإيثار الموت على الحياة.

التقوى في التحقيق

والتحقيق: أنَّ للتقوى ثلاثَ مراتب:

الأولى: التوقِّي عن العذاب المخلِّد بالتبرِّي عن الكفر، وعليه قوله تعالى ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾ [الفتح: ٢٦].

الثانية: التجنُّب عن كلِّ مايؤثم.. من فعل أو ترك حتَّى الصغائر عند قومٍ، وهو المتعارف بالتقوى في الشرع، وهو المعنيُّ بقوله تعالى ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوْاْ﴾ [الأعراف: ٩٦].

الثالثة: أن يتنزَّه عن كلِّ ما يشغل سرَّه عن الحقِّ عز وجل، ويتبتَّل إليه

بكلِّـيَّته، وهو التقوى الحقيقي المأمور به في قولـه تعـالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

الَّذي يَسْتَحِقُّ بِهِ الكَرَامَةَ مرفوعٌ على أنَّه مفعولٌ لما لم يسمَّ فاعله، لقوله: (يستحقُّ) عِنْدَ الله تعالى وَالسَّعَادَةِ الأَبَدِيَّةِ[1] معطوف على (الكرامة).

وإنما صار العلم وسيلة إلى التقـوى!! لأنَّ الاتقـاء عـمَّا نهـى الله تعـالى موقوف على العلم به، فلو لم يكن معلومـاً كيـف يتَّقـي عنـه!! وإذا حـصل التقوى عن محارم الله تعالى فاز بالدولة الأبديَّة والسعادة الـسرمديَّة؛ وهـي الوصولُ إلى أعلى مراتب الجنان ولقاء الله الملك المنان يسَّرها الله بحرمة نبيِّه محمَّدٍ المبعوث في آخر الزمان.

كَمَا قِيْلَ هذا استدلالٌ على كون العلم وسيلةً إلى التقوى، أي: خوطـب لِمُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ بنِ عَبْدِ الله بن طاوس بن هرمز بن نوشران، فثبت أنَّ بينه وبين أبي حنيفة قرابةً، وسمَّاه صاحب «المنظومة» بـ(العالم الرَّبـاني) منـسوباً إلى الربِّ، وينبغي أن يقول: الرَّبِّيُّ إلا أنَّه زاد الألف والنون للمبالغة!! أي: الذي يعمل للربِّ جل جلاله.

---

(١) وإلا لكان العلم بغير تقـوى أخطـر مـدعاة للهـلاك بـالزيغ والانحـراف، ومـا ضـلال الشيطان وهلاكه عن جهل، وإنما على علم وقياس.. لم تحطه التقوى؛ ولم يـصنه الأدب والخلق. وما ضلال أهل الاستشراق عنا ببعيد!. وانظر رسالة « اقتضاء العلم العمـل» للخطيب البغدادي.

وقيل: هو الذي يربِّي المتعلِّمين بصغار العلوم قبل كبارها، وهو تلميذ أبي يوسف رحمه الله.

تَعَلَّمْ؛ فَإِنَّ العِلْمَ زَيْنٌ لِأَهْلِهِ قوله: (تعلَّم) أمرٌ حاضرٌ، وقوله (زين لأهله) أي: زينة لأهل العلم في التفسير، إنَّ أولى الأشياء بعد التوحيد أن يتعلَّم علم الفقه، لأنَّ الله تعالى أرى الملائكة فضل آدم عليه السلام بعلم الفقه. فقال ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ ﴾ [البقرة: ٣١]. وعلم العربيَّة من أهمِّ العلوم، لكن الأصول والفروع محتاجةٌ إليه في التحقيق وإنَّه مأثور عن عُمَرَ وعن عليٍّ رضي الله عنهما.

حكيَ أنَّ أعرابياً سمع رجلاً يقرأ قوله تعالى ﴿أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ وَرَسُولِهِۦٓ﴾ [التوبة: ٣]. بالكسر!.

فقال: إن كان الله تعالى بريء من رسوله.. فأنا بريء منه. فذهب الرجل إلى عمر رضي الله عنه فحكى الأعرابيُّ قراءتَه، فعنده أمر رضي الله عنه بتعلُّم العربية، فقال عليٌّ رضي الله عنه: الفاعلُ مرفوعٌ والمفعول منصوبٌ والمضاف إليه مجرور.

وتعلُّم الكلام والمناظرة فيما وراء قدر الحاجة مكروه، لما روي أنَّ أبا حنيفة نهى ابنه حمَّاداً عن ذلك، فقال: يا أبي رأيتُك فيما نهيتني عنه! فقال: يابُنيَّ كنَّا نتكلَّم فيه.. وكلُّ واحدٍ منا كأنَّ على رأسه الطير مخافة أن يزلَّ صاحبه، وأنتم تتكلَّمون وكلُّ واحدٍ منكم يريد أن يزلَّ صاحبه؛ وهذا

كإرادة أن يكفُر صاحبه، فمن أراد هذا يُكْفَر قيل أن يكفر صاحبه! وكذا الاشتغال بعلم المنطق وأمثاله؛ كما قيل في الشعر:

قُلْ لِلْحَكِيْمِ الفَيْلَسُوفِ المَنْطِقِيْ عِلْمٌ حَرَامٌ دَرْسُهُ لَا تَنْطِقِ

اِحْفَظْ عَنَانَكَ عَنْ مَنَاهِجِ دَرْسِهِ «إنَّ البَلَاءَ مُوَكَّلٌ بِالمَنْطِقِ»

وتعلُّم الكتابة والخطِّ من الأمور الجائزة والمعارف المعتبرة، فإنَّ الله تعالى أقسم به في كتابه المجيد بقوله ﴿نٓ وَٱلْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾ [القلم:١].

وقال ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ [العلق:٤].

وقال ﷺ: «جَفَّ القَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ». إلَّا أنَّهُ كُرِهَ تَعَلُّمُهُ للنساء، لقوله ﷺ: «لَا تُعَلِّمُوا النِّسَاءَ الخَطَّ».

وقال بعض العلماء: اعلم أنَّ الخطَّ الحسن طرازُ الأدب.

وقيل: هو نصف العلم.

وقال بعض المفسِّرين في قوله تعالى ﴿يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ﴾ [فاطر: ١]: أراد به الخطَّ.

وقال فضيل بن سهيل: من سعادة المرء أن يكون صاحب حَسَنِ الخطِّ وفصيح العبارة.

وقال الشاعر:

تَعَلَّمْ قَوَامَ الخَطِّ يَا ذَا التَأَدُّبِ وَمَا الخَطُّ إلَّا زِيْنَةُ المُتَأَدِّبِ

فَإنْ كُنْتَ ذَا مَالٍ فَخَطُّكَ زِيْنَةٌ وَإنْ كُنْتَ مُحْتَاجاً فَأفْضَلُ مَكْسَبِ

وَفَضْلٌ وَعُنْوَانٌ لِكُلِّ المَحَامِدِ العنوان: العلامة، والمحامد: جمع المحمدة؛ وهي بمعنى المفعول؛ أي: العلم فضلٌ، وعلامةٌ لكلِّ الخصال المحمودة المقبولة عند الله تعالى والناس.

وَكُنْ مُسْتَفِيْدَاً كُلَّ يَوْمٍ زِيَادَةً قوله: (مستفيداً) خبر (كن)، و (كلَّ يوم) ظرف وقع مفعولاً فيه، و(زيادة) مفعول به لقوله (مستفيداً).

مِنَ العِلْمِ وَاسْبَحْ فِي بُحُورِ الفَوَائِدِ[1] قوله: (من العلم) متعلِّق بمحذوف وقع صفة لقوله:(زيادة)، وقوله: (واسبح) أمر معطوف على (كن) من السبح وهو: الذهاب على وجه الماء.

وقوله: (في بحور الفوائد) من قبيل لُجَيْنِ الماء أي: في فوائد كالبحار، والمعنى: كنْ طالباً زيادة فائدة من العلم كلَّ يومٍ واسبح سباح حوتٍ في قلزم[2] المعاني والفوائد، فإنَّ أفضل الأنبياء محمَّداً ﷺ كان يقول في دعائه: «رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا». لأنَّه بهذا أمره ربُّه تعالى بقوله ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

والحال أنَّه عالم بعلم الأولين والآخرين، فكيف تقنع أيُّها الطالب بما حصَّلتَه من العلم؛ وهو في جنب علمه ﷺ كالقطرة في البحر!

تَفَقَّهْ؛ فَإِنَّ الفِقْهَ أَفْضَلُ قَائِدٍ قوله: (تفقَّه) أمرٌ من باب التفعُّل، أي: كن ساعياً ومتكلِّفاً في تحصيل علم الفقه، (فإنَّه أفضل قائد) أي: أفضل دليل.

---

(١) الأبيات من البحر البسيط. والمستفيد: طالب الفائدة بكتاب أو سماع.

(٢) من أسماء البحر الأحمر الفاصل بين جزيرة العرب ووادي النيل.

إِلَى البِرِّ وَالتَّقْوَى وَأَعْدَلُ قَاصِدِ المقصد العدل يعني: أنَّ علم الفقه أعدل جنس العادل، لأنَّه علمٌ يُبيِّن الشرائع والأحكام التي لا ظلم فيهما قطعاً، لأنَّها أحكام الله تعالى قطعاً المنزَّه عن الظلم لعباده، لأنَّه من سِمات العجز والنقص، والله تعالى منزَّهٌ عنهما.

هُوَ العَلَمُ[1] الهَادِي إِلَى سَنَنِ الهُدَى (السَّنن) بالفتح: الطريق، والهدى، بمعنى الهداية؛ وهي: الدلالة بلطف إلى ما يوصل إلى المطلوب. أي: علم الفقه هو الذي يدلُّ الناس بلطفٍ إلى طريقٍ يوصل إلى المطلوب؛ وهو الفوز بالحياة الأبديَّة والسعادة السرمديَّة التي هي الوصول إلى جناب رحمته والستر بأستار لطفه ومغفرته.

هُوَ الحِصْنُ خاصَّة يُنْجِي طالبه ومتعلِّمه مِنْ جَمِيْعِ الشَّدَائِدِ التي من جملتها الجهلُ بأوامر الله تعالى ونواهيه، فإنَّ الجهل بها من أعظم الشدائد، كما لايخفى.

فَإِنَّ فَقِيْهَاً وَاحِدَاً مُتَوَرِّعَاً أي: متجنِّباً عن الحرام كمالَ التجنُّب أَشَدُّ خبر (إنَّ) عَلَى الشَّيْطَانِ مِنْ أَلْفِ عَابِدٍ[2] غير فقيه يعني: بقاء فقيه واحد

---

(١) الراية.

(٢) أخرج الترمذي: ٢٦٨٣، وابن ماجه: ٢٢٣؛ عن ابن عباس يرفعه: « لفقيهٌ واحدٌ أشد على الشيطان من ألف عابدٍ». وأخرجه ابن عبد البر، عن أبي هريرة، ولا يكون الفقيه فقيهاً حتى يكون ورعاً؛ وإلا فهو مسجِّلٌ للأحكام ناقل لها، وقد قيل للحسن البصري =

وحياته أشدُّ وأبغض على الشيطان من بقاء ألف عابد وحياتهم، لأنَّ الفقيه عدوُّ الشيطان، لأنَّ الشيطان يأمر الناس بالفسوق والكفر، والسبيل المائلُ عن الحقِّ، والفقيه يأمر بالإيمان والطاعة ويدعوهم عن سبيل الشيطان إلى سبيل الرحمان، ولا يحصل من العابد شيءٌ من هذه الأحوال.. إذا كان غير عالم، بل يعبد الله على غير بصيرة، ولم يُرَد بالألف في مثله العَدَدُ المعيَّن[1]، بل الكثرة؛ كما تقول: لو تمشي إلى زيد ألف مرَّة لا يعطيك شيئاً.

تنقية الأخلاق: وَكَذَلِكَ معطوف على (كذلك) السابق، أي: مثل افتراض علم أحوال القلب يفترضُ العلم فِي سَائِرِ الأَخْلَاقِ.. نَحْوَ: الجُوْدِ، وَالبُخْلِ وَالجُبْنِ بضمِّ الجيم أي: الخوف، وَالجُرْأَةِ كالجرعة وهي: الشجاعة.ويجوز (الجَرَاءة) كالكراهة. وَالتَّكَبُّرِ، وَالتَّوَاضُعِ، وَالعِفَّةِ أي: التحرُّز عن الحرام، وَالإِسْرَافِ وَالتَّقْتِيْرِ وهو: التضييق في النفقة، وَغَيْرِهَا، فَإِنَّ الكِبَرَ، وَالبُخْلَ، وَالجُبْنَ، وَالإِسْرَافَ حَرَامٌ هذا علَّة لافتراض علم هذه الأشياء.

وَلَا يُمْكِنُ التَّحَرُّزُ عَنْهَا أي: عن المذكورات إِلَّا بِعِلْمِهَا وَعِلْمِ مَا يُضَادُّهَا أي: ما يكون ضِدَّاً لها.

بأن الفقهاء غيرك يقولون كذا وكذا!! فقال: ويحك؛ وهل رأيت فقيهاً قط!! إنما الفقيه الزاهد في الدنيا المنصرف عنها. وقال الشعبي: إننا لسنا بالفقهاء، ولكنا سمعنا الحديث فروينا، ولكن الفقهاء من إذا علم عمل. وإنما وقع القيد بالتورع على سبيل الإيضاح!

(١) بل هو محمول عند أهل التحقيق على العدد حقيقة، وإن كان العدد لا مفهوم له؛ كما يقولون، إذ في بعض الآثار: «لَمْ أَرَ.... وَاحِدٌ بِأَلْفٍ، وَأَلْفٌ كَـ(تِفْ)».

فَيُفْتَرَضُ عَلَى كُلِّ إِنْسَانٍ عِلْمُهَا[1] لأَنَّه موقوف عليه التحرُّز عن الحرام الذي هو فرض، والموقوف عليه الفرض فرضٌ، فكان علمها مطلوباً، لا لأجل ذاته بل للاحتراز عنه.

وَقَدْ صَنَّفَ السَّيِّدُ الإِمَامُ الأَجَلُّ الشَّهِيْدُ نَاصِرُ الدِّيْنِ أَبُو القَاسِمِ كِتَابَاً فِي الأَخْلَاقِ[2] أي: في علم الأخلاق، وإيراد هذا الكلام تأييد لما سبق، وَنِعْمَ مَا صَنَّفَ (نِعْمَ) من أفعال المدح، و(ما) موصوفةٌ بمعنى (شيء) و(صنَّف) صفته، والمخصوص بالمدح محذوفٌ، أي: نعم الشيء الذي صنَّفه كتاب الأخلاق، فكتاب الأخلاق مخصوصٌ بالمدح؛ حُذِفَ للعلم به، أي: هو كتاب الأخلاق.

فَيَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ حِفْظُهَا أي: فإذا كان علم الأخلاق فرضاً يجب على كلِّ مسلم حفظُ الأخلاق المذكورة في كتاب أخلاق ناصر الدين.

فرض الكفاية: وَأَمَّا حِفْظُ مَا يَقَعُ فِي بَعْضِ الأَحَايِيْنِ جمع: (حين) أي: الذي سَبَقَ ذِكره إلى هنا حفظُ ما يقع في جميع الأحوال، وأمَّا حفظُ ما يقع في بعض الأزمان؛ كصلاة الجنازة وعيادة المرضى ونحوهما..

---

(١) للتحرُّز عنها لما قيل:

عرفت الشر لا للشرْ ... لكن لتوقيه
فمن لا يعرف الشرْ ... مِنَ الخير يقع فيه

(٢) لعلَّه الحسين بن محمد المعروف بـ« الراغب الأصفهاني»!!!.

فَفَرْضٌ عَلَى سَبِيْلِ الكِفَايَةِ، إِذَا قَامَ بِهِ البَعْضُ في بَلْدَةِ الباء: للتعدية، أي: إذا أقامه البعضُ في بلدة سَقَطَ عَنِ البَاقِيْنَ، وهذا معنى فرض الكفاية، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ أي: إنْ لَمْ يُوْجَدْ فِي البَلْدَةِ مَنْ يَقُومُ بِهِ اشْتَرَكُوا جَمِيْعَاً فِي المَأْثَمِ مصدر ميميٌّ بمعنى: الإثم، فَيَجِبُ عَلَى الإِمَامِ أي: الخليفة أَنْ يَأْمُرَهُمْ بِذَلِكَ[1] أي: بالقيام به، وَيُجْبِرُ أَهْلَ البَلْدَةِ عَلَى ذَلِكَ[2] القيام.

تفاضل العلوم: فَقِيْلَ أي: حكم، لأنَّ القول إذا استعمل بالياء يكون بمعنى الحكم: بِأَنَّ عِلْمَ مَا يَقَعُ عَلَى نَفْسِهِ فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ أي: علم الأشياء التي تثبت على نفس العبد المسلم في جميع الأحوال بِمَنْزِلَةِ الطَّعَامِ[3]؛ لَابُدَّ لِكُلِّ وَاحِدٍ من أفراد الإنسان مِنْ ذَلِكَ، وهذا تمثيلٌ لفرض العين الذي لا بدَّ لكلِّ فردٍ العملُ به كالطعام الذي لا بدَّ لكلِّ فردٍ أكله.

وَعِلْمُ مَا يَقَعُ فِي بَعْضِ الأَحَايِيْنِ معطوفٌ على علم ما يقع على نفسه

---

(١) ومنه حفظ القرآن الكريم صدراً، وكذاسائر المهن التي يحتاجها المسلمون في معاشهم، لكن بعد تحقق الفرض العيني قطعاً. وذلك كالطب مثلاً لكلا الجنسين من الذكور والإناث فيجب طلبه كفائياً، ولكن بعد تحقق علم الحال لكل مكلف، ولا يؤجر عليه إلا بالنية والقصد.

(٢) ويجبرهم أيضاً على ما هو من الشعائر؛ ولو لمن يكن فرضاً أو واجباً؛ كالأذان ونحوه.

(٣) وقد كان شيخنا الراحل الشيخ محمد صالح الفرفور يردِّد دائماً: الفقه قوتٌ وما وراءه من العلوم الشرعية تفكُّهٌ. ولابن الورد في «البهجة»:

وَالعُمْرُ عَنْ تَحْصِيْلِ كُلِّ عِلْمِ ... يَقْصُرُ فابْدَأ مِنْهُ بِالأَهَمِّ

وَذَاكَ عِلْمُ الفِقْهِ حَيْثُ مِنْهُ ... مَا لَا غِنَىً فِي كُلِّ حَالٍ عَنْهُ

بِمَنْزِلَةِ الدَّوَاءِ وقوله:

يُحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي بَعضِ الأَوْقَاتِ بيانٌ لكونه بمنزلة الدواء، أي: كما أنَّ الدواءَ محتاجٌ إليه في بعض الأوقات.. كذلك علم ما يقع في بعض الأحيان محتاجٌ إليه في بعض الأوقات؛ كصلاة الجنازة وعيادة المرضى وغيرهما...

وَعِلْمُ النُّجُومِ[1] بِمَنْزِلَةِ المَرَضِ فَتَعَلُّمُهُ حَرَامٌ، لِأَنَّهُ يَضِرُّ؛ وَلَا يَنْفَعُ، وَالهَرَبُ أي: والحال أنَّ الفرار مِنْ قَضَاءِ الله تَعَالَى وَقَدَرِهِ غَيْرُ مُمْكِنٍ فتعلُّمه على قصد أن ينجوَ بتعلُّمه عن قضاء الله وقدره لغوٌ محضٌ، وعبثٌ بحتٌ غايته تعطيل الأوقات وتضييع العمر، وهذا ضررٌ محضٌ.

واجب المسلم نحو البلاء: فَيَنْبَغِي لِكُلِّ مُسْلِمٍ أنْ يَشْتَغِلَ فِي جَمِيْعِ أَوْقَاتِهِ بِذِكْرِ الله تَعَالَى وَالدُّعَاءِ وَالتَّضَرُّعِ وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ وَالصَّدَقَاتِ الدَّافِعَةِ لِلْبَلَاءِ بمقتضى الحديث؛ وهو قوله ﷺ: «الصَّدَقَةُ تَرُدُّ البَلَاءَ، وَتَزِيْدُ فِي العُمُرِ».

وَيَسْأَلَ الله تَعَالَى معطوف على أن (يشتغل) العَفْوَ أي: التجاوز عن السيئات وَالعَافِيَةَ أي: الصحة عن البلايا والأسقام.. فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةَ ظرف للعفو والعافية على سبيل التنازع، لِيَصُونَهُ الله تَعَالَى علَّة لقوله: (يسأل) مِنَ البَلَاءِ وَالآفَاتِ، فَإِنَّ مَنْ رُزِقَ الدُّعَاءَ أي: بالدعاء لَمْ يُحْرَمِ الإِجَابَةَ أي: من الإجابة، فتوجَّه السؤال على هذا القول بأنَّ البلاء إذا كان

---

(١) المراد «التنجيم» وحساب الأفلاك وما يتعلق بذلك، وهو منهيٌ عنه فيما أخرجه ابن ماجه ٣٧٢٦: « مَنِ اقْتَبَسَ عِلْماً مِنَ النُّجُومِ اقْتَبَسَ شُعْبَةً مِنَ السِّحْرِ؛ زَادَ مَا زَادَ».

مقدَّراً وقوعه يصيبه لا محالة؛ فكيف تحصل الإجابة؟ فأجاب بقوله: فَإِنْ كَانَ البَلَاءُ مُقَدَّرَاً! يُصِيْبُهُ لَا مَحَالَةَ مصدر ميمي بمعنى: التحوُّل، أي: لا تحوُّل ولا انتقال. وَلَكِن يُيَسِّرُهُ الله تَعَالَى عَلَيْهِ أي: جعله يسيراً على ذلك العبد الداعي، وَيَرْزُقُهُ الصَّبْرَ بِبَرَكَةِ الدُّعَاءِ

علم الفلك: اللَّهُمَّ إِلَّا إِذَا تَعَلَّمَ هذا استثناء من قوله: (فتعلُّمه حرام) مِنَ النُّجُومِ قَدَرَ مَا يَعْرِفُ بِهِ القِبْلَةَ وَأَوْقَاتَ الصَّلَاةِ، فَيَجُوزُ ذَلِكَ[1] جواب (إذا) أي: يجوز التعلُّم من علم النجوم مقدار ما يعرف به أحوال القبلة وأوقات الصلاة المفروضة، لكونه وسيلة إلى معرفة الأحوال الدينيَّة، لا لأنَّه مقبولٌ في نفسه.

علم الطب: وَأَمَّا تَعَلُّمُ عِلْمُ الطِبِّ الذي يحصل به معرفة أحوال الأبدان من الصحَّة والسقم؛ سُمِّي به؟! لأنَّ الطبَّ في اللغة: علاج الجسم، فَيَجُوزُ[2]؛ لِأَنَّهُ سَبَبٌ مِنَ الأَسْبَابَ؛ فَيَجُوزُ تَعَلُّمُهُ كَسَائِرِ الأَسْبَابِ أي: الأدوية، فَقَدْ تَدَاوَى النَّبِيُّ ﷺ[3] علَّة لجواز التداوي المفهوم من قوله:

---

(١) بل يجب بالقدر المذكور، لأنَّما لا يتمُّ الواجب إلا به فهو واجب، فلو احتاج ذلك في نحو برية.. لم يتمكَّن من أداء عبادته بغير ذلك.

(٢) التعليل يفيد أن الجواز للتداوي، أما التعلم لحاجة المسلمين ففرض كفائي للجنسين على قدر الكفاية في كلِّ بلدة بانفرادها؛ كما ذكرنا قريباً.

(٣) ففي « الصحيحين» وغيرهما: احتجم ﷺ وهو صائم..وأعطى الحجَّام أجرته. وكان للمداواة، ومن المشهور ما فعلته ابنته الزهراء رضي الله عنها من حرق الحصير لجعله على دمه الشريف ﷺ لينقطع، وفي كتب الطب النبوي مزيد بيان.

(كسائر الأسباب).

ويؤيِّد أيضاً جواز تعلُّم علم الطبِّ بقوله:

مجلى العلم: وَقَدْ حُكِيَ عَنِ الشَّافِعِيِّ رحمة الله عليه أَنَّهُ قَالَ: العِلْمُ عِلْمَانِ.. عِلْمُ الفِقْهِ خبرٌ لمبتدإ محذوف أي: أحدهما علم الفقه الكائن لِلْأَدْيَانِ أي: لمعرفتها، وَعِلْمُ الطِبِّ أي: والآخر علم الطبِّ الكائن لِلْأَبْدَانِ أي: لمعرفة أحوال الأبدان، وَمَا وَرَاءَ ذَلِكَ المذكور بُلْغَةُ مَجْلِسٍ[1] (البُلغة) بالضمِّ: ما يتبلَّغ به من العيش، أي: ما اكتفى به. فجرِّدت هنا لمعنى الكفاية، أي: ما وراء ذينك العِلْمَيْن كفاية مجلس.. ليس له نفع سوى كونه رونق المجلس.

علم الفقه: وَأَمَّا تَفْسِيْرُ العِلْمِ هذا شروع في بيان ماهيَّة العلم، والقياس تقديمه على بيان كون طلبه فرضاً أو غيره، لأنَّه عارض من عوارضه، والمعروض مقدَّمٌ على العارض إلَّا أنَّه قُدِّم للاهتمام بشأنه، والإشعار بأنَّ البحث عنه أمرٌ مهمٌّ ليتنبَّه الطالب ويشتغل على طلبه.

فَهُوَ: صِفَةٌ يَتَجَلَّى أي: يتَّضح وينكشف الانكشاف التامَّ بِهَا أي: بتلك الصفة لِمَنْ متعلِّق بـ(تجلَّى) قَامَتْ هِيَ بِهِ الضمير راجع إلى الموصول، المَذْكُورُ

---

(١) مراده بـ (العلم) ههنا ما يثمر لطالبه بنفع، و(البلغة) ما يتبلغ به الإنسان الى حاجته. وقد أراد الإمام أن ما عدا الفقه والطب رونق في المجلس. وقد جاء عنه أيضاً:

كُلُّ العُلُومِ سِوَى القُرْآنِ مَشْغَلَةٌ ... إلَّا الحَدِيْثَ وَعِلْمَ الفِقْهِ فِي الدِّيْنِ

العِلْمُ مَا كَانَ فِيْهِ (قَالَ حَدَّثَنَا) ... وَمَا عَدَا ذَاكَ وِسْوَاسُ الشَّيَاطِيْنِ

فاعل (يتجلَّى) أي: ما يصحُّ أن يذكر ويمكن أن يعبَّر عنه، وعدل عن الشيء إلى المذكور!! ليعمَّ الموجود والمعدم، وقد يتوهَّم أنَّ المراد به المعلوم، لأنَّ في ذكرَ العلم ذكر المعلوم، وعدل عنه إلى المذكور! تفادياً عن الدَّوْر[1].

وبالجملة فقد خرج الظنُّ والجهل، إذ لا يتجلَّى فيهما، وكذا اعتقاد المقلِّد؛ لأنَّه عقدة على القلب، والتجلِّي انشراحٌ وانحلالُ العقدة.

وَالفِقْهُ خصَّه من أنواع العلم بالبيان؟! لشرفه، إذ به يحصل سعادة الدنيا والآخرة: مَعْرِفَةُ دَقَائِقِ العِلْمِ[2].

ثمرة الفقه: قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ رَحْمَةُ الله عَلَيْهِ هذا معنى آخر: الفِقْهُ: مَعْرِفَةُ النَّفْسِ مَا لَهَا أي: ما حصل لها من الخير، وَمَا عَلَيْهَا أي: ما حصل لها من الشرِّ. وهذا المعنى أعمُّ من الفقه الذي يُعرف به أحوال المكلَّفين.

وَقَالَ أبو حنيفة أيضاً: مَا العِلْمُ ما: نافية إلَّا للعَمَلُ بِهِ، وَالعَمَلُ بِهِ تَرْكُ العَاجِلِ أي: الدنيا والاشتغال بأمورها لِلْآجِلِ أي: لتحصيل الآخرة، أي: الجنَّة وما فيها من الدرجات، إذ لا يمكن تحصيلهما معاً، لأنَّهما ضدَّان[3]، والآخرة أبديَّة باقية، فيلزم ترك الفاني لأجل الباقي.

---

(١) هو: عود أمر على أمر متعلِّق عليه. وهو باطل.

(٢) من استباط وفهم. ولذا استخرج علم أصول الفقه.

(٣) فلا يجتمعان إلا بالنسبة. وقوله: (ما أجمل الدين والدنيا إذا اجتمعا) من الأماني، أو المراد التوطئة لما يليه من قولهم (وأكره الكفر والإفلاس في الرجل). وإلا ففي قولهﷺ لمن أظهر محبتهﷺ: «فَأَعِدَّ لِلْفَقْرِ تَجْفَافاً، فَإِنَّ الفَقْرَ إِلَى مَنْ يُحِبُّنِي أَقْرَبُ / أَسْرَعُ مِنَ السَّيْلِ إِلَى مُنْتَهَاهُ».

يقظة العاقل: فَيَنْبَغِي هذا كلام المصنِّف يعني: إذا تقرَّر ما قاله أبو حنيفة فينبغي لِلْإِنْسَانِ أَنْ لَا يَغْفُلَ من الباب الأول[1] عَنْ نَفْسِهِ أي: معرفة نفسه بالعجز والفقر والفناء.

وإنما فسَّرنا بهذا!! لأنَّه عجزُ العقلاء عن معرفة حقيقة النفس. وقالوا: معرفة النفس معرفة صفاته. وحقَّق هذا البحث في قوله عليه السلام: مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ. وَمَا يَنْفَعُهَا من العبادات والطاعات، وَمَا يَضُرُّهَا من الفواحش والمنكرات فِي أُوْلَاهَا أي: الدنيا، وَأُخْرَاهَا فَيَسْتَجْلِبُ معطوف على (أن لا يغفل) مَا يَنْفَعُهَا من الثواب والحسنات، وَيَجْتَنِبُ مَا يَضُرُّهَا من الآثام والسيئآت كَي لَا يَكُونَ علَّة لقوله: (فينبغي) عَقْلُهُ وَعِلْمُهُ حُجَّةً عَلَيْهِ أي: شاهداً ودليلاً يشهد على ما يضرُّه، فَيَزْدَادَ عُقُوبَةً منصوبٌ على أنَّه جواب للنفي، و(عقوبة) تمييز.

نَعُوذُ بِالله مِنْ سَخَطِهِ وَعِقَابِهِ.

اعتذار: وَقَدْ وَرَدَ فِي مَنَاقِبِ العِلْمِ أي: بيان مفاخره وَفَضَائِلِهِ هذا شروعٌ في بيان فضل العلم آيَاتٌ فاعل (ورد)، وَأَخْبَارٌ صَحِيْحَةٌ مَشْهُورَةٌ لَمْ نَشْتَغِلْ بِذِكْرِهَا كَي لَا يَطُولَ الكِتَابُ.

من فضل العلم: ويكفي في فضيلته ما رُوي عن أبي الدرداء رضي الله

---

(١) من أبواب الصرف الستة (فتح ضمٍّ) فتح الثاني في الماضي وضمُّه في المضارع.

عنه أَنَّه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ سَلَكَ طَرِيْقَاً يَلْتَمِسُ فِيْهِ عِلْمَاً.. سَلَكَ اللهُ بِهِ طَرِيْقَاً مِنْ طُرُقِ الجَنَّةِ، وَإِنَّ المَلَائِكَةَ لَتَضَعُ أَجْنِحَتَهَا لِطَالِبِ العِلْمِ رِضَاً بِمَا يَصْنَعُ، وَإِنَّ العَالِمَ لَيَسْتَغْفِرُ لَهُ مَنْ فِي السَمَاوَاتِ وَ الأَرْضِ وَالحِيْتَانُ فِي جَوْفِ المَاءِ، وَإِنَّ فَضْلَ العَالِمِ عَلَى الجَاهِلِ كَفَضْلِ القَمَرِ لَيْلَةَ البَدْرِ عَلَى سَائِرِ الكَوَاكِبِ، وَإِنَّ العُلَمَاءَ وَرَثَةُ الأَنْبِيَاءِ؛ فَإِنَّ الأَنْبِيَاءَ لَمْ يُوَرِّثُوا دِيْنَارَاً وَلَا دِرْهَمَاً، وَإِنَّمَا وَرَّثُوا العِلْمَ فَمَنْ أَخَذَهُ.. فقط أَخَذَ بِحَظٍّ وَافِرٍ». كذا ذكر في (كتاب « المصابيح»)[1]. والله تعالى أعلم بالصواب.

---

(١) وعزاه إلى أحمد: ٥/ ١٩٦ والترمذي: ٢٦٨٢، وأبي داود: ٣٦٤١، وابن ماجه: ٢٢٣.

الفصل الثاني

فصل معنى الفصل في اللغة ظاهر.

وفي الاصطلاح: طائفة من المسائل تغيَّرت أحكامها بالنسبة إلى ما قبلها.. غير مترجم بالباب والكتاب، فإن فُصِل عمَّا بعده نُوِّنَ، وإلَّا! فلا. كذا في «الأكملية».

فارتفاعه على أنه خبر مبتدإ محذوف، أو مبتدأ على تقدير الوصف، أي: فصل من الفصول.

في النيَّةِ أي: التي حصلت في حَالَ التَّعَلُّمِ

أصالة النية: ثُمَّ لَابُدَّ لَهُ مِنَ النيَّةِ فِي زَمَانِ تَعَلُّمِ العِلْمِ، إذْ النيَّةُ هِيَ الأَصْلُ خاصَّة فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ مقصودة بالذات؛ أو غير مقصودة إلَّا أنَّها جعلت فرضاً في العبادات المقصودة، وسنَّة في غيرها.

لِقَوْلِهِ ﷺ: «الأَعْمَالُ بِالنيَّاتِ» أي: **صحَّة** الأعمال بالنيَّات على مذهب الشافعي، **وحكم** الأعمال من الثواب والجزاء بالنيَّات على مذهب أبي حنيفة. حَدِيْثٌ أي: هذا حديث صَحِيْحٌ[1].

---

(١) أخرجه البخاري، ومسلم، وأبو داود، والترمذي، والنسائي، وابن ماجه، ومالك برواية محمد وغيرهم كلهم عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو أحد أربعة أحاديث عليها مدار الإسلام. انظر «منتهى الآمال» للسيوطي بتحقيقنا.

وَعَنْ رَسُولِ الله ﷺ: « كَمْ مِنْ عَمَلٍ، (كم) ههنا: خبرية، أي: الكثير من الأعمال. يَتَصَوَّرُ على بنائه للفاعل، أي: يصير ذا صورة. بِصُوْرَةِ أَعْمَالِ الدُّنْيَا التي لا ثواب لها، وَيَصِيْرُ بِحُسْنِ النيَّةِ مِنْ أَعْمَالِ الآخِرَةِ كالأكل والشرب والنوم، فإنَّ صورتها صورة أعمال الدنيا، ويصير كلٌّ منها بمقارنة حسن النيَّة من أعمال الآخرة مثلاً إذا قصد بالأكل التقوِّي على العبادة يصير من أعمال الآخرة، وكذا الشرب والنوم وغيرهما. وَكَمْ مِنْ عَمَلٍ أي: كثير من الأعمال يَتَصَوَّرُأي: يصير ذا صورة بِصُورَةِ أَعْمَالِ الآخِرَةِ، ثُمَّ يَصِيْرُ مِنْ أَعْمَالِ الدُّنْيَا بِسُوءِ النيَّةِ[1] » كالأعمال التي فعلت على وجه الرياء.

النية للعلم: وَيَنْبَغِي أنْ يَنْوِي المُتَعَلِّمُ هذا شروعٌ لبيان كيفيَّة النيَّة بِطَلَبِ العِلْمِ متعلِّق بـ(ينوي) ١ـ رِضَا الله تَعَالَى مفعول (ينوي) أي: يقصد بتعلُّم العلم تحصيل رضا الله تعالى ، وَ٢ـ الدَّارَ الآخِرَةَ أي: دخول الجنَّة، وَ٣ـ إِزَالَةَ الجَهْلِ عَنْ نَفْسِهِ بالتعلُّم، وَعَنْ سَائِرِ الجُهَّالِ بتعليمهم العلم، وَ٤ـ إِحْيَاءَ الدِّيْنِ معطوف على إزالة الجهل، وَإِبْقَاءَ الإِسْلَامِ، فَإِنَّ إِبْقَاءَ الإِسْلَامِ بِالعِلْمِ، وَلَا يَصِحُّ الزُّهْدُ وَالتَّقْوَى مَعَ الجَهْلِ.

فتنة عظيمة: وَأَنْشَدَ الإنشاد: قراءة الشعر، الشَّيْخُ الإمَامُ الأَجَلُّ بُرْهَانُ الدِّيْنِ صَاحِبُ «الهِدَايَةِ»[2].

---

(١) لم أقف عليه. ومعناه صحيح لدخوله تحت الأصل المتقدم عليه. ومعلومٌ قيمة المعمول رياءً!!.

(٢) معنى أنشدني: أسمعني شعراً، وقد يكون من نظمه وقد يكون حفظه من شعر غيره، =

لِبَعْضِهِمْ[1] أي: لبعض العلماء:

فَسَادٌ كَبِيْرٌ: عَالِمٌ مُتَهَتِّكٌ (المتهتِّك): الذي لا يبالي أن ينهتك، ويمزِّق سرَّه، والعالم المتهتِّك هو الذي يفعل خلاف الشرع من الأفعال الرديئة، ولا يبالي أن يفتضح، وفساد مثل ذلك العالم كبيرٌ لأنَّه يراه الجهَّال، فيغترُّون به فيضلُّ ويضلُّهم.

وَأَكْبَرُ مِنْهُ جَاهِلٌ مُتَنَسِّكٌ أي: متعبِّد، والجاهل المتنسِّك هو المقلِّد في معتقده، والجاهل في أفعاله وأقواله لا يعرف صحَّتها وفسادها؛ كالصوفية في زماننا، وإنما كان أكبر من العالم المتهتِّك في الفساد، لأنَّ فساده قد يكون في الاعتقاد والعمل جميعاً؛ فكان أكبر فساداً من العالم، لأنَّ اعتقاده صحيح.

هُمَا فِتْنَةٌ فِي العَالَمِيْنَ عَظِيْمَةٌ صفة (فتنة) لِمَنْ صفة أخرى لها، أي:

والظاهر أنه ههنا من نظمه، ولله در ناظمه!! وقد تعزى للشافعي! وهي في ديوانه.

وأما الهداية فهو كتاب « هداية المهتدي» شرح « بداية المبتدي» من أمّات كتب المتأخرين في فقه الحنفية، وهو عمدة في بابه عند أهل العلم. وله شروح عديدة، وفيه أسرار؛ منها أن مؤلفها بقي في تصنيفها أربع عشرة سنة وهو صائم لا يدري به أحد.

ثم هو برهان الدين أبو الحسن علي بن أبي بكر المرغيناني الرشداني، من نسل الصديق، كان مجمعاً للعلوم والفضائل، فقيهاً محدثاً، مفسراً أصولياً، أديباً زاهداً؛ من أصحاب الترجيح في المذهب، وله أيضاً « التجنيس والمزيد» توفي سنة: ٥٩٣هـ.

انظر للتوسع في ترجمته مقدمة كتابه « مختارات النوازل» بتحقيقنا.

(١) من البحر الطويل.

للرجل الذي بِهِمَا فِي دِيْنِهِ يَتَمَسَّكُ أي: يتمسَّك بالعالم و الجاهل المذكورين في دينه، ويتَّبعهما في أقواله وأفعاله، فالظرفان متعلِّقان بـ(يتمسَّك) قدِّما لضرورة الشعر.

وَ٥ـ يَنْوِي منصوب عطفاً على أن (ينوي) (بِهِ) أي: بطلب العلم الشُّكْرَ وهو مقابلة النعمة بالثناء وآداب الجوارح، وعقد القلب على وصف المنعم بنعمة الكمال. قال من قال:

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنِّي ثَلَاثَةً يَدِيْ وَلِسَانِيْ وَالضَمِيْرَ الْمُحَجَّبَا

عَلَى نِعْمَةِ العَقْلِ إضافة بيانية، أي: نعمة هي العقل، وَصِحَّةِ البَدَنِ معطوف على المضاف إليه.

محترز النية: وَلَا يَنْوِي بِهِ معطوف على (ينوي) أي: ينبغي أن لا ينوي به؛ أي: بطلب العلم ١- إِقْبَالَ النَّاسِ أي: توجُّههم إِلَيْهِ، وَلَا ٢- اسْتِجْلَابَ حُطَامِ الدُّنْيَا أي: أخذه متاع الدنيا من أيدي الناس، وَ٣- الكَرَامَةَ منصوب معطوف على الإقبال، أي: التكرُّم والقرب عِنْدَ السُّلْطَانِ وَغَيْرِهِ بالجرِّ معطوف على (السلطان)، ويجوز أن يكون بالنصب أي: لا ينوي غير هذا المذكور من الأمور التي لا يكون فيها رضا الله ورسوله.

قَالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ[1]: هذا تأييد لما سبق من أنَّه لا ينبغي للطالب أن

---

(١) الشيباني صاحب أبي حنيفة رضي الله عنهما. (تقدمت بعض ملامح من ترجمته ص٢٩)

يطلب إقبال الناس: لَوْ كَانَ النَّاسُ[1] كُلُّهُمْ تأكيد معنوي عَبِيْدِي جمع عبد لَأَعْتَقْتُهُمْ جواب لو؛ وَتَبَرَّأْتُ عَنْ وَلَائِهِمْ[2] على صيغة المتكلِّم معطوف على الجواب، أي: لجعلت نفسي بريئة عن وَلائهم بفتح الواو أي: عن أن أكون عَصَبَتَهم ووارثهم، وحاصله متاركتهم بالكلية وعدم النظر إلى ما في أيديهم؛ وَمَنْ وَجَدَ لَذَّةَ العِلْمِ وَالعَمَلَ بِهِ.. قَلَّمَا يَرْغَبُ فِيمَا عِنْدَ النَّاسِ.أي: تصير رغبته فيما عند الناس قليلة.

ويمكن أن يراد بالقلَّة العدم أي: لا يرغب فيما عند الناس، لأنه لو وجد لذَّة العلم.. لكان العلم أعزُّ الأشياء وألذَّها عنده؛ فلا يطلب شيئاً آخر غيره.

أَنْشَدَنَا الشَّيْخُ الإِمَامُ الأَجَلُّ الأُسْتَاذُ قَوَامُ الدِّيْنِ أي: ما يقوم به الدين حَمَّادُ عطف بيان ابْنُ إِبْرَاهِيْمَ بنِ إِسْمَاعِيْلَ الصَّفَّارُ الأَنْصَارِيُّ[3] رحمة الله

---

(١) المعروف « العوام» بدل « الناس» كما في نسخة.

(٢) الولاء: صلة معنوية تجمع بين الولي والمولى تخوِّله ولاية الإرث والتبعية.

وهو نوعان:

١ـ ولاء موالاة؛ وهو بالعقد. يقول فيه العبد المجهول النسب لآخر (أنت مولاي ترثني إذا مت، وتعقل عني إذا جنيت). وهو اختياريٌّ.

٢ ـ ولاء عتق؛ وإليه الإشارة بقوله ﷺ: « الولاء لمن أعتق» وهو إلزاميٌّ.

ومراده بالتبرِّي من الولاء قطع جميع صلاته بالعوام؛ حتى ما لا بد منه.

(٣) أبو المحامد إمام أهل عصره وشيخ الإسلام، أخذ عن أبيه وتفرَّد بالعلوم الدينية؛ فقها وأصولا حتى صار مجتهد زمانه. توفي بسمرقند سنة: ٥٧٦هـ.

تعالى عليهم ، إِمْلَاءً لِأَبِي حَنِيْفَةَ الإملاء: الكتاب، وهو ههنا بمعنى المكتوب، نصب على أنَّه مفعول (أنشدنا) أي: قرأ علينا الشعر المكتوب لأبي حنيفة رحمه الله تعالى:

مَنْ طَلَبَ العِلْمَ لِلْمَعَادِ أي: للآخرة، يعني من طلب العلم لتحصيل ثواب الآخرة فَازَ بِفَضْلٍ مِنَ الرَّشَادِ الفوز: الظفر، و(من الرشاد) في موضع الجرِّ على أنه صفة (فضلٌ)، وهو السداد على الدين القويم؛ يعني: ظفر بالرشاد الذي هو الفضل والشرف، وكيف لايكون فضلاً؟ وهو الموصل إلى المراتب العالية في الجنات العالية.

فَيَالخُسْرَانَ طَالِبِيْهِ جواب شرط محذوف، و(يا) حرف نداء، والمنادى محذوف، و(لخسران) متعلِّق بفعل محذوف، يعني: إذا كان طالب العلم للمعاد سبباً لتحصيل الفوز بالرشاد.. فيا قوم انظروا لخسران طلبة العلم .

لِنَيْلِ فَضْلٍ مِنَ العِبَادِ الجار والمجرور أعني قوله: (لنيل) متعلِّق بـ(طالبيه)، أي: لأن ينال بفضل وشرف من جهة العباد من إقبالهم وإعطائهم شيئاً من حطام الدنيا فأنَّى يعادل هذا بذلك!!.

طلب الجاه: اللَّهُمَّ إلَّا إذَا طَلَبَ هذا استثناء من قوله: (والكرامة عند السلطان وغيره).

الجَاهَ أي: المنصب لِلْأَمْرِ بِالمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ الذي لا يمكن إلَّا بأن يكون الآمر والناهي ذا عزٍّ وجاه. وَتَنْفِيْذَ الحَقِّ أي: جعل الحقِّ

نافذاً، وَإِعْزَازَ الدِّيْنِ أي: جعل الدين عزيزاً غالباً؛ لَا لِنَفْسِهِ وَهَوَاهُ، أي: لا لأجل تحصيل مراد النفس، فَيَجُوزُ ذَلِكَ أي: طلب الجاه بالعلم بِقَدْرِ مَا يُقِيْمُ بِهِ الأَمْرَ بِالمَعْرُوفِ أي: يجوز طلب المقدار الذي يقدر أن يقيم به الأمر بالمعروف، فإنَّ هذا الطلب؛ وإن كان في الظاهر لأجل الجاه.. لكنه في الحقيقة لأجل تحصيل المعاد بسبب إقامة الأمر بالمعروف، وَالنَّهْيَ عَنِ المُنْكَرِ[1] اللذين هما من أشرف العبادات.

التفكر بالدنيا: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَتَفَكَّرَ فِي ذَلِكَ أي: في طلب العلم بأنه بأيِّ مشقَّة اكتسبه وبأيِّ جهد حصَّله، وأشار إلى هذا بقوله: فَإِنَّه يَتَعَلَّمُ العِلْمَ بِجَهْدٍ كَثِيْرٍ الجَهد بالفتح: المشقَّة، والجُهد بالضمِّ والفتح أيضاً: الطاقة، والمراد هنا الأول، فَلَا يَصْرِفُهُ أي: العلم إِلَى الدُّنْيَا تأنيث (أدنى)؛ وهو من الدنوِّ، أو من الدناءة الحَقِيْرَةِ القَلِيْلَةِ الفَانِيَةِ.

هِيَ الدُّنْيَا الضمير ضمير القصَّة، ويحسن تأنيث هذا الضمير إذا كان في العمدة في الجملة المفسَّرة مؤنثاً وههنا كذلك، وهو مبتدأ، والدنيا مبتدأ ثان أَقَلُّ مِنَ القَلِيْلِ خبر مبتدإ ثان، والجملة خبر للمبتدإ الأول، وهذا كناية عن غاية القلَّة.

وَعَاشِقُهَا أَذَلُّ مِنَ الذَّلِيْلِ[2] أي: من جنس الذليل وهذا أيضاً كناية عن تمام الذلَّة.

---

(١) والأمور بمقاصدها. ولكن مزلق تصحيح النية دقيق خطر.

(٢) البيتان من الوافر.

تُصِمُّ أي: تجعله ذا صمم بِسِحْرِهَا أي: زخارفها وشهواتها التي تشبه بالسحر في استجلاب القلوب قَومَاً يتبعونها ويميلون إلى زخارفها ولذائذها؛ أي: تجعلهم معرضين عن سماع الحقِّ وقبوله، وَتُعْمِي أي: تجعلهم عمياناً غير مبصرين الحقَّ.

فَهُمْ أي: إذا كانوا صمَّاً وعمياً مُتَحَيِّرُونَ بِلَا دَلِيْلِ يهديهم أي: لا يهتدون إلى طريق الحقِّ والسداد، بل يتيهون في تيهِ الحيرة والعناد؛ كالرجل الذي له عمىً حقيقيٌّ وصمم حقيقيٌّ كيف يتحرَّى في ذهابه ومجيئه!! فلا يدري أين يذهب وأين يجيء!! فيتحيَّر.

رفعة العالم: وَيَنْبَغِي لِأَهْلِ العِلْمِ أنْ لا يَذِلَّ من الإذلال نَفْسَهُ مفعول يذلَّ أي: لا يجعل نفسه ذليلة بِالطَّمَعِ فِي غَيْرِ مَطْمَعٍ أي: غير محلِّ الطمع، وهذا احترازٌ عن الطمع في محلِّ الطمع؛ كالطمع إلى العلم وتحصيله، فإنَّ إذلال النفس بهذا الطمع جائزٌ لا ضرر فيه، بل هو عين العزَّة في الحقيقة.

وَيَتَحَرَّزَ منصوب معطوف على أن لا يذلَّ عَمَّا فِيْهِ مَذَلَّةُ العِلْمِ وَأَهْلِهِ مجرور على أنه معطوف على العلم، بأن يضع نفسه في مواضع الابتذال والرذالة، فإنَّ التحرُّز عن مثل هذا الصنع لازم لئلا يلزم تحقيرَ العلم وأهلِه، وَيَكُونَ منصوب معطوف على ما قبله، والضمير المستكِنُّ فيه اسم راجع إلى أهل العلم مُتَوَاضِعَاً خبره، وفسَّر التواضع بقوله: وَالتَّوَاضُعُ بَيْنَ التَّكَبُّرِ وَالمَذَلَّةِ أي: التواضع: حالة متوسِّطة بين التكبُّر الذي هو من

الصفات المحرَّمة، لأنها صفة مختصَّة بذات الله تعالى؛ قال في الحديث القدسيِّ: « العَظَمَةُ إزَارِي، وَالكِبْرِيَاءُ رِدَائي». أي: صفتان مختصَّتان بذاتي لا يليقان بغيري، وبين المذلَّة التي هي أيضاً من الصفات المحرَّمة، لأنَّ ذلَّ النفس حرامٌ، والصفة المقبولة التي كانت بينهما هو التواضعُ، لأنَّ (خير الأمور أوسطها). وَالعِفَّةِ أي: التحرُّز عن الحرام، كَذَلِكَ أي: مثل التواضع في أنَّها بين التكبُّر والمذلَّة، لأنَّ الرجل الضعيف لا يتكبَّر عن طلب الحلال، ولا يذلُّ نفسه بطلب الحرام، ويجوز أن يكون معنى قوله: (كذلك) أي: مثل هذا التواضع في أنها من الصفات اللازمة لطلب العلم، وَيُعْرَفُ ذَلِكَ أي: كونها كذلك فِي « كِتَابِ الأَخْلَاقِ»

أَنْشَدَ الشَّيْخُ الإمَامُ الأَجَلُّ الأُسْتَاذُ رُكْنُ الإسْلَامِ المَعْرُوفُ بـ «الأَدِيْبِ المُخْتَارِ»[1]، رحمه الله شِعْرَاً مفعول (أنشد) لِنَفْسِهِ أي: شعراً كائناً لنفسه، وهو هذا:

إنَّ التَّوَاضُعَ مِنْ خِصَالِ المُتَّقِي أي: التواضع من صفات المتَّقي لله تعالى، وَبِهِ أي: بالتواضع متعلِّق بـ (يرتقي)، قُدِّم عليه؟! اهتماماً ومحافظة للوزن، التَّقِيُّ فعيل بمعنى الفاعل مرفوعٌ على أنَّه مبتدأ و(يرتقي) خبره إلَى

---

(١) وهو ركن الدين أبو عبد الله محمد بن أبي بكر الفرغاني، له تصانيف منها: «البيان في غريب القرآن»، وله «مفاتيح الأخبار»، «هدية الأصدقاء». توفي: ٥٩٤هـ. والأبيات من الكامل. التوى: الهلاك.

المَعَالِي -أي: المقامات العالية- يَرْتَقِي أي: يصعد ويصل إليها، والجارُّ والمجرور متعلِّق به، قدِّم عليه أيضاً لما مرَّ.

ومحصَّل المعنى: أنَّ التواضع من خصال المتَّقين، وبسببه يصلون إلى الدرجات الرفيعة العالية، لقوله ﷺ: «مَنْ تَوَاضَعَ رَفَعَهُ الله، وَمَنْ تَكَبَّرَ وَضَعَهُ الله».

وَمِنَ العَجَائِبِ خبر مقدَّم، (عُجْبُ) مبتدأ مؤخَّر ومصدر مضاف إلى فاعله وهو مَنْ هُوَ جَاهِلٌ، (من) موصول والجملة التي بعده صلته، فِي حَالِهِ متعلِّق بقوله: (جاهل).

أَهُوَ الهمزة للاستفهام و(هو) مبتدأ السَّعِيْدُ خبره، أَمِ الشَّقِيْ عطف على (السعيد) يعني من العجائب حال الشخص الذي كان جاهلاً بحاله فلا يدري أهو سعيدٌ من السعداء؟ أم هو شقيٌّ من الأشقياء، ومع هذا كان مغروراً ومعجباً بحاله! فمَن كان هذا حاله.. فاللائق به أن يكون متفكِّراً في حاله، ويخاف من سوء الخاتمة، ويكون بين الخوف و الرجاء.

أَمْ كَيْفَ يَخْتِمُ عُمْرَهُ أي: لا يدري كيف يختم عمره؟ أيختم على الإيمان أم يختم على الكفر؟ نعوذ بالله أَوْ رُوحَهُ يَوْمَ التَوَى أي: يوم الهلاك وهو يوم الوفاة، وهو منصوب على أنه مفعول فيه لـ(يختم).

مُتَسَفِّلٌ؛ أَوْ مُرْتَقِي خبر مبتدإٍ محذوف، والجملة بيان لما قبلها، والتقدير: هو أي: الروح متسفِّل أي: نازلٌ في أسفل سافلين، أو مرتقي أي: صاعدٌ إلى أعلى عليين، يعني: لا يدري كيف يختم روحه؟ أيختم على الإيمان فيرتقي إلى أعلى عليين

وهو مقام المؤمنين؛ أم على خلافه -نعوذ بالله تعالى- فينزل إلى أسفل سافلين.

وَالكِبْرِيَاءُ الكائن لِرَبِّنَا صِفَةٌ خبر مبتدإٍ بِهِ متعلِّق بقوله: مَخْصُوصَةٌ أي: صفةٌ مخصوصةٌ بذات الباري عزَّ شأنه، فإذا كان كذلك فَتَجَنَّبْهَا أمر حاضر فتبعَّد، وانقطع عن تلك الصفة؛

وَاتَّقِي أمر حاضر أيضاً، أعيدت ياؤه المحذوفة لضرورة القافية، أي: اتق الله عن الاتصاف بتلك الصفة، لأنها صفة مخصوصة بذات الله تعالى لايشاركه فيها غيره؛ لما سبق (ص٥٧) من الحديث.

هيئة العالم: قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ رحمه الله لِأَصْحَابِهِ أي: خاطبهم، يدلُّ عليه استعماله باللام: عَظِّمُوا عَمَائِمَكُمْ جمع: عمامة، وَوَسِّعُوا أَكْمَامَكُمْ جمع: كُمٍّ، بضمِّ الكاف وتشديد الميم وهو بالفارسية (آستين). وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ أي: هذا الكلام لِئَلَّا يُسْتَخَفَّ بِالعِلْمِ وَأَهْلِهِ[1] الجار والمجرور قائم مقام الفاعل لقوله: (يستخفُّ) أي: لئلا يجعل العلم وأهله مهاناً مستحقراً، لأنَّ نظر الناس إلى اللباس[2]!!.

---

(١) وفيه شفقة على العامة لئلا يقعوا في أعراض أهل العلم أو لحومهم المسمومة. والقصد الآخر أن يقصدوا بالاستفتاء لينشروا العلم فينالوا ثوابه، وكان مظهر الإمام مميزاً في ملبسه! فسئل عن ذلك؟ فشرح مقصده بأن المراد أن يقصده السُّؤَّال والمحتاجون للصدقة دون إخوانه لئلا يحرجهم!! فلله دره من إمام.

(٢) وكذلك كان شيخنا المربِّي الراحل الشيخ محمد صالح فرفور يوصي إخوانه وأصحابه إذا وردوا بلدة كذا!!

وصية أبي حنيفة: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يُحَصِّلَ من التحصيل «كِتَابَ الوَصِيَّةِ»[1] الَّتِي كَتَبَهَا أَبُو حَنِيْفَةَ لِيُوسُفَ بنِ خَالِدٍ السَّمْتِيِّ أي: المنسوب إلى السمت؛ وهو من علماء الحديث عِنْدَ الرُّجُوعِ من صحبة أبي حنيفة إِلَى أَهْلِهِ وعياله[2]. يَجِدُهُ مَنْ يَطْلُبُهُ استئناف كأنه قيل: أين يوجد؟ فقال: يجده من يطلبه. للخبر المشهور: (من طلب شيئاً وجدَّ وجد).

وصية المرغيناني: وَكَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الأَئِمَّةِ عَلِيُّ بنُ أبي بَكْرٍ عطف بيان قَدَّسَ الله رُوحَهُ العَزِيْزَ أَمَرَنِي بِكِتَابَتِهِ عِنْدَ الرُّجُوعِ إِلَى بَلَدِي وَكَتَبْتُهُ امتثالاً لأمره.

وَلَا بُدَّ لِلْمُدَرِّسِ وَالْمُفْتِي فِي مُعَامَلَاتِ النَّاسِ قوله: (في معاملات) متعلِّق بالمفتي مِنْهُ متعلِّق بقوله: (لا بدَّ) أي: من كتاب «الوصيَّة» التي كتبها أبو حنيفة ليوسف بن خالد، وكان في نفسه كتاباً لطيفاً جامعاً لفوائد جمَّة.

---

(١) وقد جعلتها في آخر هذا الكتاب استكمالاً لخطة المؤلف : وله رضي الله عنه وصايا كثيرة لأصحابه وإخوانه غير هذه، كما له أيضاً «الوصية في العقائد».

(٢) في البصرة. وانظرها في ملحق الكتاب مع شيء من ترجمته رحمه الله تعالى.

الفصل الثالث

فِي اخْتِيَارِ العِلْمِ، وَالأُسْتَاذِ، وَالشَّرِيْكِ، وَالثَّبَاتِ عَلَيْهِ أي: على العلم.

اختيار العلم: يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ يَخْتَارَ مِنْ كُلِّ عِلْمٍ أَحْسَنَهُ منصوب على أنه مفعول (يختار)؛ وإلى تفسير الأحسن أشار بقوله: مِمَّا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي أَمْرِ دِيْنِهِ فِي الحَالِ أي: بالعلم المفروض التي تفرض عليه في الحال، بل في جميع الأحوال مثل الصلاة، ثُمَّ مَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ فِي المَآلِ أي: في الزمان الآتي من العلم بالفروض التي ما فرضت عليه في الحال لفقدان شروطها؛ مثل الحجِّ والزكاة لمن لم يقدر عليهما حالاً، وَيُقَدِّمَ عِلْمَ التَّوْحِيْدِ معطوف على (يختار) أي: وينبغي لطالب العلم أن يقدِّم علم التوحيد الذي هو أساس سائر العلوم عليها، وَيَعْرِفَ الله تَعَالَى بِالدَّلِيْلِ أي: وينبغي أيضاً أن يعرف الله تعالى جلَّ وعلا بالدليل؛ أي: بالاستدلال من الأثر إلى المؤثِّر ولا يقلِّد، فَإِنَّ إِيْمَانَ الْمُقَلِّدِ أي: الرجل الذي لا يكون مستدلاً بل يكون مقلِّداً بآبائه في الإيمان ؛ وَإِنْ كَانَ صَحِيْحَاً عِنْدَنَا خلافاً للمعتزلة.. فإنَّ عندَهم لا يصحُّ إيمان المقلِّد ودلائل الفريقين مذكورة في مواضعها.. لَكِن يَكُونُ آثِمَاً بِتَرْكِ الاسْتِدْلَالِ، لأنَّ الله تعالى أعطى نعمة العقل للإنسان ليستدلَّ به على وجوده ووحدته وأمَّهات أوصافه، فلما لم يستدلَّ به ما كان

مؤدياً شكر نعمة العقل فبسبب كفران النعمة يكون آثماً.

وَيَخْتَارَ منصوب معطوف على ما قبله أي: ينبغي لطالب العلم أن يختار الْعَتِيْقَ أي: القديم؛ وهو علم النَّبيِّ ﷺ وأصحابه والتابعين وتابع التابعين دُوْنَ الْمُحْدَثَاتِ أي: العلوم التي لم توجد في زمانهم بل أحدثت بعدهم من العصور؛ كعلم المنطق والحكمة وعلم الخلاف. قَالُوا أي: العلماء عَلَيْكُمْ أي: الزموا بِالعَتِيْقِ أي: بالعلم القديم، وَإِيَّاكُمْ وَالْمُحْدَثَاتِ[1] هذا من باب التحذير ؛ أي: بعِّدوا أنفسكم من المحدثات، والمحدثاتِ من أنفسكم.

آفة الجدل: وَإِيَّاكَ أي: اتق، هذا كلام المصنف لا مقول قالوا: أَنْ تَشْتَغِلَ بِهَذَا الجَدَلِ[2] أي: بعلم الجدل والخلاف الَّذِي ظَهَرَ بَعْدَ انْقِرَاضِ الأَكَابِرِ أي: بعد انقطاعهم مِنَ العُلَمَاءِ أي: الكائنين من العلماء؛ فَإِنَّهُ تعليل للتحذير يُبْعِدُ الطَّالِبَ عَنِ الفِقْهِ الذي هو أشرف العلوم، وَيُضِيْعُ العُمُرَ

---

(١) إن كان المراد الابتداع! فكلُّ محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة. وإن كان المراد التجديد والسعي الى المفيد مع المحافظة على الأسس الثابتة! فهو أمر جليل وسعي أصيل.

(٢) كعلم الكلام الممتزج بالفلسفة اليونانية والجدل العقيم، وإلا فعلم العقائد والتوحيد فرض عين وكفاية.

أما المخاصمة والجدل بغير ضوابط صحيحة! فمذموم بالكتاب والسنة والإجماع، قال تعالى ﴿ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ [النحل:١٢٥]. وقال ﷺ: « مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدَىً كَانُوا عَلَيْهِ.. إلَّا أُوتُوا الجَدَلَ». أخرجه أحمد: ٥/ ٢٥٢، والترمذي: ٣٢٥٠؛ وقال: حسن صحيح.

لصرفه إلى ما لا يهمُّه، وَيُوْرِثُ أي: يعطي الوَحْشَةَ وَالعَدَاوَةَ بسبب الجدل بالمباحثين، وكلُّ ذلك أمر غير مقبول فمورثه أيضاً غير مقبول، وَهُوَ أي: والحال أنَّ الاشتغال بالجدل مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ الأشراط: جمع (شَرَطَ) بالتحريك؛ وهو العلامة، والساعة: القيامة؛ وإطلاقها عليها إما لوقوعها بغتة أو لسرعة حسابها، أو لأنها على طولها عند الله تعالى كساعة، فهي من الأسماء الغالبة. وَارْتِفَاعِ العِلْمِ مجرور معطوف على الساعة أي: وهي من أشراط الساعة أو من أشراط ارتفاع العلم وَالفِقْهِ، كَذَا وَرَدَ فِي الحَدِيْثِ[1]!!

اختيار الأستاذ: وَأَمَّا اخْتِيَارُ الأُسْتَاذِ! فَيَنْبَغِي أي: فمقولٌ في حقِّه أَنْ يَخْتَارَ أي: طالب العلم الأَعْلَمَ أي: الأستاذ الذي له زيادة علم، وَالأَوْرَعَ أي: الذي له زيادة ورعٍ؛ أي: تحرُّز عن الحرام، وَالأَسَنَّ أي: الذي له زيادة سنٍّ وكبرٍ، كَمَا اخْتَارَ أَبُو حَنِيْفَةَ أي: اختر مثل اختيار أبي حنيفة حِيْنَئِذٍ حَمَّادَ ابنَ أَبِي سُلَيْمَانَ رَحِمَهُ الله[2] بَعْدَ التَّأَمُّلِ وَالتَّفَكُّرِ فِي اختياره أستاذاً هو أعلم علماء زمانه

---

(١) هو ما روي عن أنس رضي الله عنه وغيره مرفوعاً: «مِنْ أَشْرَاطِ السَّاعَةِ أَنْ يُرْفَعَ العِلْمُ وَيُثْبَتَ الجَهْلُ، وَيُشْرَبَ الخَمْرُ، وَيَظْهَرَ الزِّنَا» أخرجه ابن عبد البر (١/ ١٨٣).

(٢) هو الإمام التابعي الجليل أبو إسماعيل حماد بن [مسلم] أبي سليمان الأشعري (مولى أبي موسى) الكوفي، من أئمة الفقهاء والمحدثين، روى عن أنس بن مالك، والنَّخَعي، والحسن البصري، وعكرمة، وروى عنه ابنه، وأبو حنيفة، وجرير بن عبد الله، وحماد بن سلمة، والثوري وغيرهم. وكان سخياً كريماً، ولي القضاء، أخرج حديثه الستة، وتوفي سنة عشرين ـ أو سبع عشرة ـ ومئة.

وأورعهم وأسنُّهم ؛ وَقَالَ أبو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ الله: وَجَدْتُه أي: حمَّاد بن أبي سليمان شَيْخَاً وَقُوْرَاً أي: رزيناً حَلِيْمَاً صَبُورَاً، وَقَالَ: ثَبَتُّ على صيغة المتكلم عِنْدَ حَمَّادِ ابنِ أَبِي سُلَيْمَانَ فَنَبَتُّ[1]. على صيغة المتكلم أيضاً أي: كنت ثابتاً عند أستاذي حمَّاد ابن أبي سليمان، وما تركت صحبته أبداً فصرت ثابتاً ونامياً كما ينمو النبات حيناً فحيناً حتى بلغت إلى هذه المرتبة وهي مرتبة الاجتهاد.

وَقَالَ: أي: أبو حنيفة سَمِعْتُ حَكِيْمَاً أي: سمعت قول عاقل، لأنَّ السمع لا يتعلَّق بالذات بل يتعلَّق بالمسموع مِنْ حُكَمَاءِ سَمَرْقَنْدَ يَقُولُ: إنَّ وَاحِدَاً مِنْ طَلَبَةِ العِلْمِ شَاوَرَنِي فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَكَانَ أي: وقد كان عَزَمَ أي: قصد عَلَى الذَّهَابِ إلَى بُخَارَا لِطَلَبِ العِلْمِ[2].

أهمية المشاورة: وَهَكَذَا يَنْبَغِي أَنْ يُشَاوِرَ فِي كُلِّ أَمْرٍ، وهذا الكلام إلى قوله: (قال الحكيم) كلام المصنِّف لا مقول (قال)، أتى به في أثناء الحكاية لبيان وجوب المشاورة في جميع الأمور، فَإِنَّ الله تَعَالَى أَمَرَ رَسُولَهُ ﷺ بِالْمُشَاوَرَةِ فِي الأُمُورِ حيث قال الله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. استظهاراً برأيهم وتطييباً لنفوسهم، وتمهيداً بسنيَّة المشاورة للأمَّة، هذا على تقدير أن يفسَّر الأمر بما يصحُّ أن يشاور فيه على الإطلاق، أمَّا على تقدير أن يفسَّر بالحرب فلا يصحُّ به الاستدلال في سنَّة المشاورة في جميع الأمور، وَلَمْ يَكُنْ أَحَدٌ

---

(١) ومن هنا قيل: (من ثبت نبت) كما سيذكره ص٦٨.

(٢) تأتي تتمة الخبر بعد قليل (وصية حكيم) ص٦٦!!

أَفْطَنَ مِنْهُ[1] أي: والحال أنَّه لم يكن أحدٌ من العقلاء أذكى وأعقل منه، وَمَعَ ذَلِكَ أَمَرَ بِالْمُشَاوَرَةِ[2]! وَكَانَ يُشَاوِرُ أَصْحَابَهُ فِي جَمِيْعِ الأُمُورِ أي: عادته هكذا.. حَتَّى حَوَائِجِ البَيْتِ (حتى) حرف عطف و(الحوائج) مجرور على أنه معطوف على (جميع الأمور).

قَالَ عَلِيٌّ كرَّم الله وجهه: مَا هَلَكَ امْرُؤٌ (ما) نافية و (امرؤ) فاعل (هلك).. عَنْ مَشُورَةٍ أي: بعد مشورة.

مراتب الناس: قِيْلَ: النَّاسُ: ١ ـ رَجُلٌ خبرلمبتدأ محذوف، أي: أفراد الإنسان رجلٌ تامٌّ، وَ ٢ ـ نِصْفُ رَجُلٍ، وَ ٣ ـ لَا شَيْءَ.

فَالرَّجُلُ: مَنْ لَهُ رَأْيٌ صَائِبٌ أي: فكرٌ ذو صواب مطابقٍ للحال، وَيُشَاوِرُ مع العقلاء اقتداءً بسنَّة الرسول ﷺ واهتماماً بأمره.

وَنِصْفُ الرَّجُلِ: مَنْ لَهُ رَأْيٌ صَائِبٌ؛ وَلَكِنْ لَا يُشَاوِرُ، أَوْ يُشَاوَرُ؛ وَلَكِنْ لَا رَأْيَ لَهُ أي: لا رأي صائب له بقرينة السياق، فتامِّية الرجل بالاعتبار اجتماع الأمرين: ١- الرأي الصائب، و٢- المشورة، وبتنصيف الأمرين يتنصَّف الرجل. وَلَا شَيْءَ: مَنْ لَا رَأْيَ لَهُ؛ وَلَا يُشَاوِرُ، لانتفاء الأمرين معاً اللذين هما مدار رجولية الإنسان، فبانتفاء السبب انتفى المسبب.

---

(١) وهذا مما لا خلاف فيه، ولذا قيل:

شَاوِرْ سِوَاكَ إِذَا نَابَتْكَ نَائِبَةٌ ... يَوْمَاً وَإِنْ كُنْتَ مِنْ أَهْلِ المَشُورَاتِ

(٢) بقوله تبارك وتعالى ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

قَالَ: جَعْفَرُ الصَّادِقُ رَضِيَ الله عَنْهُ[1] لِسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ رَحِمَهُ الله[2]: شَاوِرْ أمر من المشورة فِي أَمْرِكَ مَعَ الَّذِيْنَ يَخْشَوْنَ الله تَعَالَى[3] أي: العلماء، لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُاْ﴾ [فاطر: ٢٨]. فإنهم إذا استشيروا يلقِّنون بالخير ويرشدون إلى السداد والصلاح بموجَب علمهم.

وَطَلَبُ العِلْمِ هذا من كلام المصنِّف مربوط بقوله: (وهكذا ينبغي في كلِّ أمر) أي: والحال أنَّ طلب العلم مِنْ أَعْلَى الأُمُورِ، وَأَصْعَبِهَا، فَكَانَتِ الْمُشَاوَرَةُ فِيْهِ أَهَمَّ وَأَوْجَبَ من سائر الأمور.

وصية حكيم: قَالَ الحَكِيْمُ[4] هذا رجوعٌ إلى الحكاية التي حكاها أبو حنيفة عن الحكيم السمرقندي: إِذَا ذَهَبْتَ على صيغة المخاطب إِلَى بُخَارَى

---

(١) الإمام التابعي الجليل أبو عبد الله جعفر بن محمد (الباقر) الهاشمي المطلبي، من أعيان الدهر وفقهاء التابعين وأوعية العلم من آل البيت الأطهار، أخذ عن والده الباقر، وأخذ عنه أبو حنيفة ومالك وغيرهما. لقب بـ«الصادق»! لأنه لم يكذب قط، توفي بالمدينة سنة: ١٤٨هـ.

(٢) سفيان بن سعيد الثوري الكوفي من مشاهير الأعيان، وأحد المجتهدين، وهو أمير المؤمنين في الحديث، خرج من الكوفة فاراً من المنصور لئلا يتولى القضاء؛ وتوفي مستخفياً بالبصرة سنة: ١٦١ هـ.

(٣) لأن الاستشارة ائتمان و«الْمُسْتَشَارُ مُؤْتَمَنٌ» كما قاله ﷺ. وغير أهل الخشية لا أمان لهم. ويتصل بمعناه ما أخرجه أبو داود والنسائي: « إِنْ كُنْتَ لَا بُدَّ سَائِلاً فَاسْأَلِ الصَّالِحِيْنَ».

(٤) هو الحكيم السمرقندي المشار إليه قبل قليل، وهذه تتمة ما أشار به هناك (اختيار الأستاذ) ص٦٤، ولكن المؤلف جزَّأها لموضع الاستشهاد في كلٍّ منهما.

لَا تَعْجَلْ نهي حاضر فِي الاخْتِلَافِ أي: في التردُّد إلَى الأَئِمَّةِ أي: إلى العلماء الذين كانوا مقتدى الناس وأفضلهم، وَامْكُثْ شَهْرَيْنِ أي: واصبر شهرين، وليس المراد ذكر الشهرين تعيينهما، بل المراد أنه لا بدَّ من المكث حَتَّى تَتَأَمَّلَ وَتَخْتَارَ أُسْتَاذاً سواءٌ كان حصول ذلك التأمُّل والاختيار في الشهرين، أو في الأقلِّ، أو في الأكثر؛ فَإِنَّكَ تعليل لوجوب المكث إِذَا ذَهَبْتَ إلَى عَالِمٍ لتتعلَّم منه وَبَدَأْتَ بِالسَّبْقِ[1] عِنْدَهُ رُبَّمَا لَا يُعْجِبُكَ من الإعجاب دَرِسيَّتَهُ بفتح الدال وكسر الراء وبكسرهما أي: علمه وفضله، وفي بعض النسخ (درسه) فَتَتْرُكُهُ وَتَذْهَبُ إلَى آخَرَ؛ فَلَا يُبَارَكُ لَكَ فِي التَّعَلُّمِ، لأَنَّك بتركك إيَّاه قد آذيته؛ فبتأذِّيه لا يبارك لك في التعلُّم، فَتَأَمَّلْ شَهْرَيْنِ فِي اخْتِيَارِ الأُسْتَاذِ، وَشَاوِرْ حَتَّى لَا تَحْتَاجَ إلَى تَرْكِهِ أي: الأستاذ وَالإِعْرَاضِ عَنْهُ؛ فَتَثْبُتَ منصوب بإضمار «أن» على أنه جواب للنفي عِنْدَهُ بكمال الثبات حَتَّى يَكُونَ منصوب بـ (أن) المقدَّرة تَعَلُّمُكَ مُبَارَكاً وَتَنْتَفِعَ معطوف على (يكون) بِعِلْمِكَ كَثِيْرَاً أي: انتفاعاً كثيراً.

أصل أصيل: وَاعْلَمْ بِأَنَّ الصَّبْرَ وَالثَّبَاتَ أَصْلٌ كَبِيْرٌ يبنى عليه فِي جَمِيْعِ الأُمُوْرِ أي: جميع الأمور تبنى وترتَّب عليه، وَلَكِنَّهُ عَزِيْزٌ أي: قليل؛ كَمَا قِيْلَ:

لِكُلِّ إلَى شَأْوِ العُلَا حَرَكَاتٌ (الشأو) السبق؛ أي: لكلِّ واحدٍ حركاتٌ قلبيَّةٌ إلى سبق العلم، يعني: يميل قلب كلِّ أحدٍ أن يسبق إلى المراتب العالية،

---

(١) تحضير الدرس ومدارسته قبل الحضور بين يدي المدرس. أو المراد التلقي مطلقاً.

فالجار والمجرور متعلِّق بـ (حركات) ولكنَّه قدِّم عليها لما مرَّ.

وَلَكِنْ عَزِيْزٌ فِي الرِّجَالِ ثَبَاتُ[1] كلمة(لكن) مخففة وملغاة عن العمل، ما بعدها مبتدأ وخبر، أي: القليل في طائفة الرجال الثبات من مبادئ الوصول إلى العلا ووسائله، فلذلك لايصل أكثرهم إلى العلا الذي يبنى على الصبر والثبات، ولهذا المعنى قيل: (من ثبت نبت).

مجالي الصبر: قِيْلَ في فضيلة الصبر: الشَّجَاعَةُ صَبْرُ سَاعَةٍ[2]. أي: الشجاعة ليست بقوَّة البدن، ولكنَّها صبر ساعة على المشاقِّ والآلام، فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَثْبُتَ وَيَصْبِرَ:

١ـ عَلَى أُسْتَاذٍ بالثبات عنده وعدم الإعراض عنه، و٢ـ عَلَى كِتَابٍ إلى أن يتمَّه حَتَّى لَا يَتْرُكَهُ أَبْتَرَ[3] حال من الضمير المفعول أي: ناقصاً، وَ٣ـ عَلَى فَنٍّ من الفنون العلم حَتَّى لَا يَشْتَغِلَ بِفَنٍّ آخَرَ قَبْلَ أَنْ يُتْقِنَ الأَوَّلَ أي: قبل أن يحكم الفنَّ الأوَّل، وَ٤ـ عَلَى بَلَدٍ شرع في تحصيل العلم فيه حَتَّى لَا يَنْتَقِلَ إلى بَلَدٍ آخَرَ مِنْ غَيْرِ ضَرُورَةٍ توجب الانتقال؛ فإن كانت! فلا بأس

---

(١) البيت من البحر الطويل. والشأو: القصد.

(٢) ويدل على هذا المعنى أن أحد الشجعان أراد أن يمتحن شجاعة عنترة؛ فقال: هات أصبعك لأعضها وخذ أصبعي فنرى أيُّنا أشجع!! ولم يلبث أن نزع يده هذا الرجل، فقال له عنترة: لو لم تنزع لنزعت أنا من توي (فوراً). فكانت هذه اللحظة بينهما هي مجلى الشجاعة. والمراد بالساعة عندهم مطلق الوقت؛ ولو لحظة.

(٣) المقطوع البركة. والمراد عدم إتمامه؛ مقطوع العقب.

بالانتقال، فَإنَّ ذَلِكَ كُلَّهُ بالنصب تأكيد (ذلك) يعني: ١- عدم إتمام الكتاب و٢- عدم إتمام الفن والاشتغال بفن آخر، و٣- الانتقال من بلد إلى بلد آخر من غير ضرورة يُفَرِّقُ الأمُورَ، وَيَشْغَلُ القَلْبَ، وَيُضِيْعُ الأوْقَاتَ، وَيُؤْذِي المُعَلِّمَ.

وَيَنْبَغِي أنْ يَصْبِرَ ٥ـ عَمَّا تُرِيْدُهُ نَفْسُهُ وَهَوَاهُ من اللذائذ النفسانيَّة والشهوانيَّة . قال الشاعر[1]:

إنَّ الهَوَى لَهُوَ الهَوَانُ بِعَيْنِهِ يعني: أنَّ الهوى والعشق لهو الحقارة والمذلَّة بعينها بمعنى: أنَّ هوى النفس يوقع صاحبه في المذلَّة بارتكاب مرادات النفس التي تقتضي المذلَّة والحقارة، ولكن حمل عليه الهوان وقيل: إنَّ الهوى لهو الهوان إدعاء ومبالغة.

وَصَرِيْعُ كُلِّ هَوَىً صَرِيْعُ هَوَانِ مصروع كلِّ هوىً ومغلوبه مصروع لكلِّ الهوان والحقارة، يعني: أنَّ مَن غلب عليه الهوى وصرعه يغلب عليه الهوان والمذلَّة فيصير مستقبحاً ومستنكراً، أو ههنا تقديم المبتدإ على الخبر واجب لكونهما متساويين.

وَيَصْبِرَ بالنصب معطوف على (يصبر) ٦- عَلَى المِحَنِ التي ظهرت عليه في طريق العلم وَالبَلِّيَّاتِ بكسر الميم وفتح الحاء جمع: محنة، فَقَدْ قِيْلَ:

---

(١) البيت من البحر الكامل.

خَزَائِنُ الْمُنَى جمع: منية وهي: المقصود عَلَى قَنَاطِيرِ[1] المِحَنِ والقناطير: جمع (قِنطار) بكسر القاف: وهو المال الكثير إذا أطلق، وإذا أضيف إلى شيءٍ فالكثير منه يعني أنَّ خزائن المقاصد مشتملة على المحن الكثيرة، فمن أراد أن يحصل المقاصد لابدَّ له أن يصبر على المحن الكثيرة.

وَأُنْشِدَتْ أي: قرئت عليَّ هذه الأبيات التي تأتي فيما بعده -وَقِيْلَ: إنَّهُ لَعَلِيِّ ابنِ أَبي طَالِبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ- هذه جملة معترضة أتت لبيان صاحب الشعر[2]:

أَلَا لَا تَنَالُ العِلْمَ إلَّا بِسِتَّةٍ (ألا) حرف تنبيه أي: تنبَّه؛ واعلم أنَّك لا تنال العلم ولا تصل إليه إلا بستَّة أشياء سَأُنْبِيْكَ أي: سأخبرك عَنْ مَجْمُوعِهَا بِبَيَانِ[3]

ذَكَاءٍ مجرور على أنَّه بدل من (ستة)، ويجوز الرفع [ذكاءٌ] والنصب [ذكاءاً] أيضاً؛ وهو سرعة الفطنة وَحِرْصٍ على تحصيله وَاصْطِبَارٍ على محنه

---

(١) هكذا النسخة التي شرح عليها رحمه الله!! لكن الأحسن النسخ التي حذفت منها الياء (قناطِر) وهي جمع قنطرة. وهذا واضح إذ من اجتاز قناطر المحن نال المنى بغير شك.

(٢) البيتان من الطويل. قال الفيروزآبادي في « القاموس» من مادة (ودق) نقلاً عن المازني: لم يثبت لعليٍّ س إلا بيتان من الشعر هما:

تِلْكُمُ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِي لِتَقْتُلَنِي ... فَلَا وَرَبِّكَ لَا بَرُّوا وَلَا ظَفِرُوا

إِنْ يَقْتُلُونِي فَكَمْ مِنْ ذِمَّةٍ لَهُمُ ... بِذَاتِ وِدْقَيْنِ لَا يَعْفُو لَهَا أَثَرُ

(٣) وتروى ببعض تغير كـ (ألا لا): (أخي لا)، (عن مجموعها): (عن تفصيلها). والاصطبار: تكلُّف الصبر ومجالدة التحمُّل، والبُلْغة: الكفاية.

وبليَّاته، وَبُلْغَةٍ بضم الباء وسكون اللام، أي: كفاية من العيش بحيث لا يحتاج في أمر الرزق إلى الغير، فإن الاحتياج يشوِّش القلب؛ فلا يمكن تحصيل العلم، وَإِرْشَادِ أُسْتَاذٍ أي: دلالة أستاذ على وجه الصواب، وَطُولِ زَمَانٍ أي: لابدَّ من طول زمان حتى يحصل العلم، لأنَّ مقدِّماته ومباديه كثيرة لا تحصل في أدنى الزمان.

اختيار الشريك: وَأَمَّا اخْتِيَارُ الشَّرِيْكِ! فَيَنْبَغِي أَنْ يَخْتَارَ الْمُجِدَّ اسم فاعل من أجدَّ يجدُّ أي: المقدم الساعي وَالوَرِعَ بفتح الواو وكسر الراء: صفة مشبَّهة أي: المتعفِّف عن الحرام وَصَاحِبَ الطَّبْعِ الْمُسْتَقِيْمِ وَالْمُتَفَهِّمِ، وَيَفِرَّ منصوب على أنه معطوف على (يختار) من الفرار مِنَ الكَسْلَانِ صفة مشبَّهة من التكاسل، وَالْمُعَطَّلِ اسم مفعول بالفارسية بي كار، وَالمِكْثَارِ صفة مبالغة الفاعل من الكثرة أي: كثير الكلام، وَالْمُفْسِدِ أي: أهل الفساد، وَالفَتَّانِ[1] أي: أهل الفتنة.

قَالَ الشَّاعِرُ[2]:

أثر الصحبة: عَنِ الْمَرْءِ لَا تَسَلْ وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِهِ أي: لا تسأل عن حال المرء بأنه صالح أو طالح، وانظر قرينه ومصاحبه حتَّى تعلم أنَّ حاله ماذا؟ فَكُلُّ قَرِيْنٍ بِالْمُقَارَنِ يَقْتَدِي أي: يتبع بالمقارن في أحواله وأفعاله قوله:

---

(١) المعطل: المضيع لما يملك من وقت وصحة وأسباب التحصيل. المكثار: لما ليس للعلم فيه مصلحة من محاورة وانشغال. الفتان: النمام.

(٢) هو عدي بن زيد العبادي. وتروى (وَسَلْ عَنْ قَرِيْنِهِ). والقرين: الصاحب أكثر وقته.

(بالمقارن) متعلِّق بقوله: (يقتدي) قدِّم عليه لرعاية القافية.

فَإِنْ كَانَ ذَا شَرٍّ فَجَانِبْهُ سُرْعَةً استئناف سيق لبيان جواب السؤال، كأنَّه قيل: فماذا يفعل إذا اقترن بالقرين؟ فأجيب بأنه إذا كان ذا شرٍّ وفساد فبعِّدْه عن نفسك بسرعة قبل أن يؤثِّر شرُّه في ذاتك فتعمل بعمله، فقوله: (سرعة) منصوب بنزع الخافض وفي بعض النسخ (فجانب) أي: باعد بسرعة.

وَإِنْ كَانَ ذَا خَيْرٍ فَقَارِنْهُ تَهْتَدِي[1] قوله: (فقارنه) أمر حاضر و(تهتدي) جوابه وإنما أتى بالياء والقياس أن يسقط ياؤه علامة للجزم رعاية للقافية، يعني: إذا كان القرين ذا خير فصاحبه لكي تهتدي، لأنَّ الصحبة مؤثِّرة فتؤثِّر فيك آثارها ومنافعها. وفي بعض النسخ (فقاربه) والمعنى ظاهر.

وَأُنْشِدْتُ على صيغة المتكلِّم من الأفعال، أي قرئ هذا الشعر عندي:

لَا تَصْحَبِ الكَسْلَانَ فِي حَالَاتِهِ أي: لا تقارن الكاسل في حالاته وأوقاته كَمْ صَالِحٌ (كم) خبرية أي: صالح كثير بِفَسَادِ آخَرَ أي: بفساد شخص آخر، والباء في بـ (فساد) آخر متعلِّق بقوله: يَفْسُدُ لأنَّ الفساد يؤثِّر في وجوده بسبب الصحبة فيفسده.

عَدْوَى البَلِيْدِ إِلَى الجَلِيْدِ سَرِيْعَةٌ العَدْوى: بفتح العين وسكون الدال: السراية، والبليد: الأحمق، والجليد: قويُّ الفهم؛ يعني: سراية بلادة البليد

---

(١) الأبيات من الطويل. ويزاد بيت آخر:

إِذَا كُنْتَ فِي قَوْمٍ فَصَاحِبْ خِيَارَهُمْ وَلَا تَصْحَبِ الأَرْدَى فَتَرْدَى مَعَ الرَّدِي

إلى العالم العاقل سريعةٌ.

كَالجَمْرِ يُوضَعُ فِي الرَّمَادِ فَتَخْمَدُ[1] أي: كسرعة الجمر الذي يوضع في الرماد فيطفأ في عقبه، فكما أنَّ الجمر إذا وضع في الرماد صار فحماً، كذلك الجليد إذا اقترن بالبليد يصير بليداً بسرعةٍ بسبب الصحبة المؤثِّرة، فالمضاف محذوف في (كالجمر) وجملة (يوضع في الرماد) صفة الجمر على طريقة مَثَل قوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥].

وَقَالَ ﷺ: «كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الفِطْرَةِ والفطرة: الخلقة فَأَبَوَاهُ مبتدأ مرفوع بالألف لأنه مثنى، وخبره يُهَوِّدَانِهِ أي: يجعلانه يهودياً، أَوْ يُنَصِّرَانِهِ أي: يجعلانه نصرانياً، أَوْ يُمَجِّسَانِهِ أي: يجعلانه مجوسياً...» الحَدِيْثُ[2] مرفوع على أنه فاعل فعل محذوف، أي تمَّ أو مضى الحديث، ويجوز أن يكون منصوباً على أنَّه مفعول فعل محذوف أي: اقرأ الحديث، إلَّا أنَّا ما أطَّلعنا على بقية الحديث، فثبت بهذا الحديث أنَّ الصحبة مؤثِّرة، وإلَّا! فالخلقة التي خلق الله الناس عليها سالمة عن الفساد والشقاوة. وَيُقَالُ فِي الحِكْمَةِ بِالفَارِسِيَّةِ[3]:

---

(١) العدوى: انتقال الداء الى صحيح. البليد؛ من البلادة: الكسول. والجليد؛ من الجلادة: صاحب الهمة والمتحمل للمشاق. والبيتان من الكامل.

(٢) أخرجه بزيادة: «حَتَّى يُعْرِبَ عَنْهُ لِسَانَهُ». عبد الله بن أحمد في زوائد «مسند أبيه»، والطبراني في «الكبير»: ٢٨، والبيهقي: ٦/ ٢٠٣. عن الأسود بن سريع رضي الله عنه.

(٣) ترجمة معانيها: إنَّ الصاحب السيِّء أشدُّ ضرراً من الحيَّة الرقطاء، لأنه يمنح صاحبه السيِّء الأمان بينما يحترز من الحية.

يَا رَبَدَ بَدْتِرَ بُودَازِ مَا رَبَدْ يعني: أنَّ صاحب السوء أسوأ من الحيَّة السوء وأكثر منها ضرراً، حَقُّ ذَاتَ بَاكَ الله الصَمَدُ الباء للقسم أي: بحقِّ ذاته تعالى وتقدَّس.

يَا رَبَدِ آرَدِ تَرَاسَوِي جَحِيْمِ أي: صاحب السوء يأتي بك إلى جانب الجحيم يَا رَتِيْكُو كُوكُيَرتَا يَا بِي نَعِيْمِ أي: اتخذ الصاحب الصالح تجد بسببه جنات النعيم.

وَقِيْلَ في هذا المعنى:

إِنْ كُنْتَ تَبْغِي أي: تطلب العِلْمَ مِنْ أَهْلِهِ

أَوْ شَاهِدَاً يُخْبِرُ عَنْ غَائِبِ أي: عما غاب عن علمك.

فَاعْتَبِرِ الأَرْضَ بِأَسْمَائِهَا أي: الأرض إذا كانت ذات زرع فاسمها (الضيعة)، وإن كانت ذات أشجار فاسمها (الجنينة)، وإن كانت ذات بقول وبطيخ فاسمها (البستان)، وإن كانت خالية بل ذات شوك فهي الأرض (السبخة)، فإذا قال الرجل: إنَّ لي ضيعة. يعرف أنَّ له أرضاً ذات زرع وإن قال: لي جنينة. يعرف أن له أرضاً ذات أشجار وأثمار، فاعتبار الأرضين التي كانت غائبة عن العيون ومعرفتها بأسمائها التي كانت بمنزلة الأرض الحاضرة وهي شاهدة عليها، أو فاعتبر الأرض مع أسمائها أي مع علائمها المسموعة كيف تخبر علائمها المسموعة التي بمنزلة الحاضر عن البلاد المسموعة التي هي غائبة عن الأبصار، مثلاً: لطفُ هوائها ووفور مائها ورخاء كلئها وكثرة

فواكهها علاماتٌ دالة على أن تلك الأرض أرض لطيفة حسنة.

وَاعْتَبِرِ الصَّاحِبَ بِالصَّاحِبِ[1] يعني: كما أنَّ اعتبار الأرض ومعرفتها بأسمائها كذلك يعتبر المصاحب ويعرف حاله بمعرفة حال مصاخبه؛ إن عالماً فعالم، وإن جاهلاً فجاهل.

* * * *

* * *

* *

*

(١) البيتان من البحر الكامل. والاعتبار: قياس المشابهة والتقدير. وتبغي: تطلب.

الفصل الرابع

فِي

تَعْظِيْمِ العِلْمِ وَأَهْلِهِ

سر الانتفاع: اعْلَمْ أَنَّ طَالِبَ العِلْمِ لَا يَنَالُ العِلْمَ؛ وَلَا يَنْتَفِعُ بِهِ.. إِلَّا بِتَعْظِيْمِ العِلْمِ وَأَهْلِهِ، وَتَعْظِيْمِ الأُسْتَاذِ وَتَوْقِيْرِهِ عطف تفسير للتعظيم.

تعظيم الحرم: فَقَدْ قِيْلَ: مَا وَصَلَ مَنْ وَصَلَ (ما) نافية و(من) فاعل (وصل)، وحذف المفعول للتعميم، والمعنى: ما وصل الواصل مطلوباً أيَّ مطلوب كان إِلَّا بِالحُرْمَةِ أي: باحترام الأستاذ والعلم وغيرهما مما له مدخل في تحصيل المطلوب. وَمَا سَقَطَ (ما) نافية أيضاً مَنْ سَقَطَ أي: ما سقط الساقط عن المراتب العالية إِلَّا بِتَرْكِ الحُرْمَةِ[1].

وَقِيْلَ: الحُرْمَةُ خَيْرٌ مِنَ الطَّاعَةِ. أَلَا تَرَى أَنَّ الإِنْسَانَ لَا يُكَفَّرُ بِالمَعْصِيَةِ، وَإِنَّمَا يُكَفَّرُ بِاسْتِخْفَافِهَا؛ وَبِتَرْكِ الحُرْمَةِ!! بأن ترك حرمة أمر الله ونهيه؛ بأن استخفه واستهان به، والاستخفاف والاستهانة كفرٌ محضٌ.

تعظيم المعلم: وَمِنْ تَعْظِيْمِ العِلْمِ تَعْظِيْمُ المُعَلِّمِ. وأيَّد هذا المعنى بقوله: قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ: أَنَا عَبْدُ مَنْ عَلَّمَنِي حَرْفَاً وَاحِدَاً؛ إِنْ شَاءَ بَاعَ،

---

(١) حرمة الخلق والأدب بتحري حرمة من يتعلم منهم.

وَإِنْ شَاءَ أَعْتَقَ، وَإِنْ شَاءَ اسْتَرَقَّ[1] أي: جعلني رقيقاً وأسيراً لأخدمه في بابه، وهذا كمال التعظيم.

وقد قال ﷺ: «مَنْ عَلَّمَ عَبْدَاً آيَةً مِنْ كِتَابِ الله فَهُوَ مَوْلَاهُ»[2].

وَقَدْ أُنْشِدْتُ على صيغة المجهول المنشد أمير المؤمنين عليٌّ كرَّم الله وجهه فِي ذَلِكَ أي: في تعظيم المعلم:

رَأَيْتُ أَحَقَّ الحَقِّ حَقُّ المُعَلِّمِ الظاهر أنَّ (أحق) مفعول ثان لـ (رأيت) لأنه صفة لكن قدَّم على المفعول الأول، أي: علمت أنَّ حقَّ المعلَّم أشدُّ حقيَّة من سائر الحقوق.

وَأَوْجَبَهُ بالنصب معطوف على (أحق الحقِّ) حِفْظَاً عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ أي: وعلمت أنَّ حقَّ العلم أشدُّ وجوباً حفظه على كلِّ مسلم.

لَقَدْ حَقَّ اللام موطئة للقسم أي: ثبت ووجب أَنْ يُهْدَى إِلَيْهِ على صيغة المجهول من الإهداء كَرَامَةً تمييز، أي: من جهة الكرامة والتعظيم لِتَعْلِيْم حَرْفٍ وَاحِدٍ أَلْفُ دِرْهَمٍ قوله: (ألف درهم) مرفوع على أنَّه قائم مقام الفاعل لـ (يهدي).

---

(١) المشهور على الألسنة: من علمني حرفاً كنت له عبداً، وهو عن سفيان الثوري. وقد روى الطبراني في «الكبير»: ٧٥٢٨؛ عن أبي أمامة رضي الله عنه: « مَنْ عَلَّمَ عَبْدَاً آيَةً مِنْ كِتَابِ الله تَعَالَى فَهُوَ لَهُ مَوْلَىً». وانظر « كشف الخفا»: ٢٥٤٣.

(٢) من البحر الطويل.

فَإِنَّ مَنْ عَلَّمَكَ هذا تعطيل لمضمون البيت حَرْفَاً مِمَّا تَحْتَاجُ أنت إِلَيْهِ فِي الدِّيْنِ أي: في أمر الدين. فَهُوَ أَبُوكَ فِي الدِّيْنِ[1].

فإنَّه روي عنه ﷺ أنَّه قال:« خَيْرُ الآبَاءِ مَنْ عَلَّمَكَ».

روي أنَّه قيل للإسكندر ذي القرنين: لم تعظِّم أستاذك أكثر من أبيك؟ فقال- ونعم ما قال-: لأنَّ أبي أنزلني من السماء إلى الأرض، وأستاذي يرفعني من الأرض إلى السماء. انتهى.

ووجه ما قال تعلُّق الروح بالبدن في أرحام الأمهات هو نزوله من عالم الملكوت إلى عالم الكون والفساد، والسبب في حدوث البدن هو الوالدان، وأما الأستاذ فسببٌ لعروج الروح الإنساني من عالم الفناء إلى عالم البقاء بسبب التكميل بالمعارف الربَّانية.

استخلاف العلماء: وَكَانَ أُسْتَاذُنَا الشَّيْخُ الإمَامُ سَدِيْدُ الدِّيْنِ الشِّيْرَازِيُّ رحمه الله يَقُولُ: خبر (كان) أي: يقول دائماً قَالَ مَشَايِخُنَا مقول (يقول) رَحِمَهُمُ الله:

مَنْ أَرَادَ أَنْ يَكُونَ ابْنَهُ عَالِمَاً، فَيَنْبَغِي أَنْ يُرَاعِيَ على صيغة المعلوم الغُرَبَاءَ جمع: غريب مِنَ الفُقَهَاءِ صفة الغرباء أي: الكائنين من الفقهاء وَيُكْرِمَهُمْ بالنصب معطوف على (أن يراعي)، وَيُعَظِّمَهُمْ من التعظيم وَيُعْطِيْهِمْ شَيْئَاً

---

(١) بل هو أولى بالبر من والد البدن. وقد قال الإمام النووي في « تهذيب الأسماء واللغات» ما مفاده: أن عقوق الوالدين تكفِّرُه التوبة والاستغفار، وعقوق الشيوخ لا يكفِّره إلا النار.

أي: يتصدَّق عليهم بشيءٍ من ماله ولو كان قليلاً، كما يفيده التنوين في شيءٍ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ ابْنُهُ عَالِمًا.. يَكُونُ حَافِدُهُ أي: ولد ولده عَالِمًا[1].

فظهر من هذا أنَّ التعظيم والإكرام للعلماء أمر مقبول ومفيد لمثل هذه الفائدة.

توقير المعلم: وَمِنْ تَوْقِيرِ الْمُعَلِّمِ ١ ـ أَلَّا يَمْشِي أَمَامَهُ أي: قدَّامه، وَ ٢ ـ لَا يَجْلِسَ مَكَانَهُ، وَ ٣ ـ لَا يَبْتَدِئَ بِالكَلَامِ عِنْدَهُ أي: عند المعلِّم إِلَّا بِإِذْنِهِ أي: لا يبتدئ بالكلام عنده ملتبِّساً بشيءٍ من الأشياء إِلَّا ملتبِّساً بإذنه، وَ ٤ ـ لَا يُكْثِرَ الكَلَامَ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ، وَ ٥ ـ لَا يَسْأَلْ شَيْئًا عِنْدَ مَلَالَتِهِ، وَ ٦ ـ يُرَاعِيَ أي: يحفظ الوَقْتَ الذي عيَّنه للدرس، وَ ٧ ـ لَا يَدُقَّ البَابَ، بَلْ يَصْبِرُ حَتَّى يَخْرُجَ الأستاذ فإنَّ هذه الأشياء تخلُّ بالتعظيم.

جملة أدبه: وَفِي الجُمْلَةِ يَطْلُبُ رِضَاهُ أي: رضا الأستاذ، وَيَجْتَنِبُ سَخَطَهُ أي: من سخطه، وَيَمْتَثِلَ أَمْرَهُ فِي غَيْرِ مَعْصِيَةِ الله تَعَالَى، فَإِنَّهُ «لَا طَاعَةَ لِلْمَخْلُوقِ -أي: ولا طاعة جائزة للمخلوق- فِي مَعْصِيَةِ الخَالِقِ»[2] أي: في مادة يلزم إن أطاع المخلوق أن يعصي الخالق، وهذه الجملة بمنزلة

---

(١) إذ صحَّ «كَمَا تُدِيْنُ تُدَانُ». وقد صحَّ «مَا أَكْرَمَ شَابٌّ شَيْخَاً...» قالوا فيه بشارة بطول العمر، وحسن الخدمة وقتها.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٦٦، والحاكم: ٣/ ٤٤٣؛ عن عمران والحكم الغفاري. بلفظ «لَا طَاعَةَ فِي مَعْصِيَةِ الله». ولفظ مسلم: «أَطِعْهُ فِي طَاعَةِ الله، وَاعْصِهِ فِي مَعْصِيَةِ الله».

التعليل لما سبق، كَمَا قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « إِنَّ شَرَّ النَّاسِ مَنْ يُذْهِبُ دِيْنَهُ لِدُنْيَا غَيْرِهِ»[1].

توقير أولاده: وَمِنْ تَوْقِيْرِهِ تَوْقِيْرُ أَوْلَادِهِ؛ وَمَنْ يَتَعَلَّقْ بِهِ كائناً مَن كان؛ سواء كان تعلُّقه بالنسب أو بالسبب، وَكَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ (صَاحِبُ « الهِدَايَةِ») رحمه الله يَحْكِي خبر «كان» أَنَّ وَاحِداً مِنْ كِبَارِ أَئِمَّةِ بُخَارَا كَانَ يَجْلِسُ مَجْلِسَ الدَّرْسِ: أنَّ عادته هكذا، وَكَانَ يَقُومُ فِي خِلَالِ الدَّرْسِ أي: في أواسطه أَحْيَانَاً أي: أوقاتاً!! فَسَأَلُوهُ عَنْ ذَلِكَ؛ فَقَالَ: إِنَّ ابْنَ أُسْتَاذِي يَلْعَبُ مَعَ الصِّبْيَانِ فِي السِكَّةِ[2] أي: في الطريق يجيء أحياناً إلى باب المسجد، وَيَجِيْءُ أَحْيَانَاً إِلَى بَابِ المَسْجِدِ، فَإِذَا رَأَيْتُهُ أي: ابن أستاذي أَقُومُ لَهُ؛ تَعْظِيْماً لِأُسْتَاذِي.

خادم أستاذه: وَكَانَ القَاضِي الإِمَامُ فَخْرُ الدِّيْنِ الأَرْسَابَنْدِي[3] رَئِيْسُ

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير»، والبخاري في « التاريخ»؛ عن أبي أمامة رضي الله عنه، والبيهقي، والخرائطي في «مساوي الأخلاق»؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه بألفاظ مقاربة.

(٢) الطريق.

(٣) فخر الدين أبو بكر محمد بن الحسين الأرسابندي ـ نسبة إلى « أرسبند»؛ من قرى «مرو»، كان فقيهاً متمكناً وأصولياً بارعاً، وكان مقدَّماً على أقرانه، ولي القضاء، وله من التصانيف: شرح « الجامع الكبير»، « الأصول». وهو اختصار وشرح «تقويم أصول الفقه» للدبوسي طبع بتحقيقنا مع «التقويم» توفي سنة: ٥١٢ هـ لكن في القصَّة نظر، لعدم إمكان التصوُّر التاريخي!! فالظاهر أنه لأحد تلامذة الدبوسي أو لابدَّمن واسطة غيرِهِ فلعلها: كان والد القاضي... إلخ. والله أعلم.

الأئِمَّةِ فِي « مَرُو»، وَكَانَ السُّلْطَانْ أي: سلطان زمانه يَحْتَرِمُهُ غَايَةَ الاحْتِرَامِ، وَكَانَ أي: القاضي وَيَقُولُ: إنَّمَا وَجَدْتُ فِي هَذَا المَنْصِبِ بِخِدْمَةِ الأُسْتَاذِ، فَإِنِّي كُنْتُ أَخْدُمُ الأُسْتَاذَ القَاضِي الإمَامَ منصوب على أنَّه صفة (أستاذي) أَبَا زَيْدٍ كنيته الدَّبُوسِيَّ[1] بفتح الدال وضم الباء الموحدة منصوب على أنه صفة نسبية لـ (أستاذي) يعني: بخدمتي هذه وجدت هذا المنصب، وَكُنْتُ أَخْدُمُهُ، وَأَطْبُخُ طَعَامَهُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً، وَلَا آكُلُ مِنْهُ يعني: أنَّ خدمتي وطبخي طعامه ليس لأجل الأكل والانتفاع، بل لمجرَّد التعظيم والتوقير شَيْئَاً.

خادم والدته: وَكَانَ الشَّيْخُ الإمَامُ الأَجَلُّ شَمْسُ الأئِمَّةِ الحَلْوَانِي بضمِّ الحاء المهملة وسكون اللام آخره نون بعد ألف: اسم لبلدة ونسبة شمس الأئمة إليها، ويقال: بهمزة بدل نون رحمه الله[2] قَدْ كَانَ خَرَجَ مِنْ بُخَارَا، وَسَكَنَ فِي بَعْضِ القُرَى أَيَّامَاً لِحَادِثَةٍ أي: بسبب حادثة وَقَعَتْ لَهُ، وأوجبت خروجه من البلدة إلى القرى، وَقَدْ زَارَهُ تَلَامِيْذُهُ جمع: تلميذ فاعل (زارت)، غَيْرَ الشَّيْخِ الإمَامِ لفظ غير منصوب على الاستثناء القَاضِي شَمْسِ الأئِمَّةِ

---

(١) الإمام أبو زيد عبيد الله بن عمر الدبوسي، أحد أعلام الفقهاء والأصوليين، أول من وضع علم الخلاف، وكان ممن يضرب به المثل في النظر واستخراج الحجج، ولي القضاء، وله تصانيف فائقة؛ منها «الأسرار» من أجلِّ. وله «الأمد الأقصى» و«تأسيس النظر» مطبوعان، توفي سنة: ٤٣٠ هـ. وقيل: بعدها.

(٢) نسبته إلى « الحلواء»؛ بفتح الحاء، وبفتح اللام؛ أو سكونها. شمس الأئمة عبد العزيز بن أحمد، أحد أعلام الحنفية المعتبرين، أخذ عنه أجلةٌ، منهم السرخسي، له تصانيف جليلة منها « المبسوط». توفي ببخارا سنة: ٤٥٦ هـ.

أبي بَكْرٍ الزَّرَنْجَرِي بفتح الزاي المعجمة وفتح الراء المهملة ونون ساكنة بعدها: اسم موضع ينسب إليه أبو بكر رحمه الله[1]، فَقَالَ أي: شمس الأئمة لَهُ أي: القاضي حِيْنَ لَقِيْهِ: لِمَ لَمْ تَزُرْنِي؟ أي: لأيِّ شيءٍ لم تزرني؟ فَقَالَ: أي: القاضي لَهُ: كُنْتُ مَشْغُولاً بِخِدْمَةِ الوَالِدَةِ فشغلي بخدمة الوالدة منعني عن زيارتك. فَقَالَ أي: شمس الأئمة: تُرْزَقُ العُمْرَ على صيغة المبني للمفعول، و(العمر) منصوب بنزع الخافض أي: تجعل مرزوقاً بالعمر؛ وَلَا تُرْزَقُ رَوْنَقَ الدَّرْسِ أي: ولا تجعل مرزوقاً برونق الدرس وزينته. وَكَانَ كَذَلِكَ، فَإِنَّهُ كَانَ يَسْكُنُ فِي أَكْثَرِ أَوْقَاتِهِ القُرَى، وَلَمْ يَنْتَظِمْ لَهُ الدَّرْسُ، لأنَّ الطالبين كثيراً ما يوجدون في البلدان دون القرى، فَمَنْ تَأَذَّى مِنْهُ أُسْتَاذُهُ يُحْرَمُ بَرَكَةَ العِلْمِ أي: من بركته، وَلَا يَنْتَفِعَ بِهِ إِلَّا قَلِيْلَاً[2] أي: انتفاعاً قليلاً فانتصابه

---

(١) أبو بكر محمد بن علي الزرنجري ـ نسبة الى « زرنجر»؛ قرية من قرى بخارا ـ. أخذ الفقه وأصوله عن الحلواني وأخذ عنه ابنه بكر. ولي القضاء.

(٢) ومما يفترى في مثل هذا ما يروى أن زفر بن الهذيل رحمه الله لم يكن له ذكر في المذهب، لأنه لم يكن باراً بشيخه كما أبو يوسف ومحمد؟! وهذه تهمة ينزه عن أقل منها أمثال هذا الإمام!! وبخاصة بعد أن شهد به الإمام الأعظم (هذا زفر بن الهذيل إمام من أئمة المسلمين، وعلم من أعلام الدين)! ولكن السبب في قلَّة ذكره في المذهب أنه تحول الى البصرة في حياة شيخه وبتوجيه منه فَقَلَّ النقل عنه! على أن له في المذهب عشرين مسألة يترك فيها قولهم جميعاً ويفتى بقوله!! فهل كان مثله أيضاً ابن المبارك، وداود الطائي وغيرهم من أعلام الإسلام؛ فلم ينتفع بهم إلا قليلاً!! أم أنها شهوة التجنِّي والوقوع في أعراض أهل العلم!!.

على المصدرية وقد قيل في ذلك:

إنَّ المُعَلِّـــمَ وَالطَّبِيْـــبَ كِلَاهُمَـــا لَا يَنْـــصَحَانِ إذَا هُمَـــا لَمْ يُكْرَمَـــا

أي: أنَّ المعلم والطبيب لا يريدان الخير للمتعلم والمريض إذا لم يكونا مكرمَيْن، لأنهما إذا لم يكرما لم يستعطفا على المريض والمتعلم فلا يكونان ناصحين لهما.

فَاصْبِر لِدَائِكَ إنْ جَفَوْتَ على صيغة الخطاب طَبِيْبَهَا الضمير راجع إلى (الداء) المذكور حكماً باعتبار المصيبة العارضة، يعني: إن جفوت طبيب مرضك فاصبر عليه ولا تضطرب منه.

وَاقْنَعْ بِجَهْلِكَ إنْ جَفَوْتَ مُعَلِّمَاً[1] لأنك إن جفوت معلِّمك لا يهتمُّ في التعليم؛ فلا ينفعك تعليمه فتبقى جاهلاً.

ولد الخليفة: وَحُكِيَ أنَّ الخَلِيْفَةَ أي: خليفة بغداد هَارُونَ الرَّشِيْدَ بَعَثَ ابْنَهُ إلَى الأصْمَعِيِّ[2] وهو شيخ من مشايخ العربية لِيُعَلِّمَهُ العِلْمَ وَالأَدَبَ،

---

(١) البيتان من البحر الكامل.

(٢) مؤدِّبُ الأمين والمأمون (ولدي الرشيد) وهو: أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيب الأصمعي الباهلي، أحد أئمة المعلم؛ لغة وشعراً وغريباً، كان كثير التطواف في البوادي يتلقى أخبار العرب فيبلغها الخلفاء ويكافأ عليها، له تصانيف كثيرة، ولد بالبصرة وبها توفي سنة: ٢١٦ هـ.

ثم هكذا الرواية!! والمشهور: الكسائي وهو الإمام القارئ أحد السبعة.

ويروى أيضاً أن الرشيد اطلع يوماً فرأى الأمين والمامون يبتدران نعل الكسائي =

فَرَآهُ أي: الخليفةُ الأصمعيَّ يَوْمَاً يَتَوَضَّأُ وَيَغْسِلُ رِجْلَهُ. وَابْنُ الخَلِيْفَةِ الواو للحال يَصُبُّ المَاءَ عَلَى رِجْلِهِ، فَعَاتَبَ الأَصْمَعِيَّ فِي ذَلِكَ أي: في عمل ابنه هكذا بِقَوْلِهِ تفصيل للعتاب: إنَّمَا بَعَثْتُهُ إِلَيْكَ لِتُعَلِّمَهُ وَتُؤَدِّبَهُ، فَلِمَاذَا أي: لأيِّ شيءٍ لَمْ تَأْمُرْهُ بِأَنْ يَصُبَّ المَاءَ بِإِحْدَى يَدَيْهِ، وَيَغْسِلَ بِالأُخْرَى أي: باليد الأخرى رِجْلَكَ؟ فثبت أنَّ تعظيم الأستاذ لازم!؟.

تعظيم الكتاب: وَمِنْ تَعْظِيْمِ العِلْمِ تَعْظِيْمُ الكِتَابِ الذي يطالعه ويقرأ منه.

فَيَنْبَغِي هذا شروع لبيان كيفية تعظيم الكتاب لِطَالِبِ العِلْمِ أَلَّا يَأْخُذَ الكِتَابَ إِلَّا بِطَهَارَةٍ أي: بوضوء.

وَحُكِيَ هذا تأييد لهذا المعنى عَنِ الشَّيْخِ شَمْسِ الأَئِمَّةِ الحَلَوَانِيِّ رحمه الله أَنَّهُ قَالَ: إِنَّمَا نِلْتُ هَذَا بِالتَّعْظِيْمِ، فَإِنِّي مَا أَخَذْتُ الكَاغِدَ[1] إِلَّا بِالطَّهَارَةِ!

نور على نور: وَأَنَّ الشَّيْخَ الإِمَامَ شَمْسَ الأَئِمَّةِ السَّرَخْسِيِّ رَحِمَهُ الله[2] كَانَ

ليقدماه له! فسأله مرة في مجلسه (من أعزُّ الناس؟) فقال: ومن يكون غير أمير المؤمنين! فقال الرشيد: من يتبادر أولاد الخليفة لحمل نعليه. فيا لعزَّة أهل العلم.

(١) الورق، وهو بالذال المعجمة والعامة تصحِّفُه الى المهملة. ويجوز فيه فتح الغين وكسرها، والأصحُّ الفتح، والأشهر الكسر.

(٢) هو شمس الأئمة محمد بن أحمد السرخسي، من مشاهير الحنفية فقهاً وأصولاً، وكان حجة متكلماً نظاراً، وعد من مجتهدي المسائل، تفقه على الحلواني، وله تصانيف من أشهرها « المبسوط» في ثلاثين جزءاً أملاه إملاءً، وكذلك شرح «السير الكبير»، وله «أصول الفقه» وكلها مطبوعة.

مَبْطُونَاً[1] أي: مبتلى بمرض البطن؛ وَكَانَ يُكَرِّرُ[2] أي: درسه الـذي يطالعـه حذف للعلم به بقرينة المقام فِي لَيْلَةٍ، فَتَوَضَّأَ فِي تِلْكَ اللَّيْلَةِ سَبْعَ عَشْرَةَ مَرَّةً!! لِأَنَّهُ كَانَ لَا يُكَرِّرُ إِلَّا بِالطَّهَارَةِ، وَهَذَا أي: بيان هذا ثابـت لِأَنَّ العِلْـمَ نُـورٌ، وَالوُضُوْءُ نُوْرٌ، فَيَزْدَادُ نُورُ العِلْمِ بِهِ أي: بالوضوء، لأنَّ النـور إذا انـضمَّ إلى النور يضاعف النور.

تعظيم آخر: وَمِنَ التَّعْظِيْمِ الوَاجِبِ أَنْ لَا يَمُدَّ رِجْلَـهُ إِلَى الكِتَـابِ، لأنَّ فيه نوعَ استحقار.

ترتيب العلوم: وَيَضَعُ كُتُبَ التَّفْسِيْرِ منصوب بالعطف على (أن لا يمدَّ) فَوْقَ سَائِرِ الكُتُبِ تَعْظِيْمَاً[3] لكتب التفـسير، وَلَا يَـضَعَ عَـلَى الكِتَـابِ شَـيْئَاً آخَرَ[4] من محبرة وغيرها لأنَّ فيه استحقاراً لهما.

---

(١) هو انطلاق البطن، أو ما نسميه «الإسهال».

(٢) ورده من القرآن الكريم؛ مع أنه لا تجب للمحدث للتلاوة؛ دون مس.

(٣) وهي على النحو التالي: اللغة والنحو نوع واحد فيوضع ابتداءً، ثم فوقـه تعبـير الرؤيـا، ثـم فوقه علم الكلام والمناظرة، ثم فوقه الفقه وعلومـه، ثـم فوقـه المـواعظ والـدعوات، ثـم الأحاديث الشريفة، ثم علوم التفسير. ومما يـروى أن تمرلنـك طلـب الى ابـن الجـزري أن يرتِّب له الكتب، فرتَّبها هكذا ثم وضع المصحف أعلاها، فقال له تمرلنك: وأنت حامـل القرآن فيكون لك التقديمُ على سائر أهل العلم.

(٤) أياً كان!! سواء كان مكرماً كالخبز ونحوه أو لا؛ كبقية الحوائج، وكذلك القلـم ونظـارة المدرس!! فليتنبه لذلك.

وَكَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ رَحِمَهُ الله يَحْكِي عَنْ شَيْخٍ مِنَ المَشَايِخِ أَنَّ فَقِيْهَاً كَانَ وَضَعَ المِحْبَرَةَ أي: وعاء المداد عَلَى الكِتَابِ؛ فَقَالَ: أي: الشيخ لَهُ أي: للفقيه بِالفَارِسِيَّةِ: « بِرْنَيَابِي» لفظ (بر) ههنا بمعنى الفاكهة والمراد: النفع أي: لا تجد النفع من علمك.

وَكَانَ أُسْتَاذُنَا القَاضِي الإِمَامُ الأَجَلُّ فَخْرُ الإِسْلَامِ المَعْرُوفِ بِقَاضِي خَان رَحِمَهُ الله[1] يَقُولُ: إِنْ لَمْ يُرِدْ بِذَلِكَ أي: بوضع المحبرة على الكتاب الاسْتِخْفَافَ! أي: عدَّه خفيفاً حقيراً.. فَلَا بَأْسَ بِذَلِكَ أي: بوضعها، وَالأَوْلَى أَنْ يَتَحَرَّزَ عَنْهُ، لأنَّ فيه إيهام الاستخفاف؛ فالأولى الاحتراز عن مثله.

جودة الكتابة: وَمِنَ التَّعْظِيْمِ أي: من التعظيم الواجب أَنْ يُجَوِّدَ كِتَابَةَ الكِتَابِ أي: يجعله جيداً غير رديء، وَلَا يُقَرْمِطَ[2] القرمطة: رقَّة الكتابة؛ أي: لا يجعل الكتابة رقيقة غير جليَّة وَيَتْرُكَ الحَاشِيَةَ الَّتِي يُقَرْمِطُ فِيْهَا غالباً إِلَّا عِنْدَ الضَّرُوْرَةِ التي اقتضت أن يكتب أطراف الكتاب فحينئذ يكتبها، وَرَأَى أَبُو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ الله كَاتِبَاً يُقَرْمِطُ فِي الكِتَابَةِ، فَقَالَ أي: أبو حنيفة رحمه الله: لِمَ تُقَرْمِطُ خَطَّكَ!؟ إِنْ عِشْتَ بصيغة الخطاب تَنْدَمُ مجزوم أو مرفوع

---

(١) الإمام الجليل أبو المحاسن فخر الدين حسن بن منصور الأوز جندي الفرغاني؛ من مشاهير فقهاء الحنفية، وأجل من يعتمد على تصحيحه، بل يقدَّم على تصحيح غيره؛ لأنه فقيه النفس، له تصانيف منها: شرح «الجامع الصغير» وشرح « أدب القضاء» للخصاف، و« الفتاوى الخانية» (ط)، توفي سنة: ٥٩٢ هـ.

(٢) هي التضييق، والمراد تضييق الفراغ بين السطور ومقاربة الكلمات؛ لتقليل استهلاك الورق.

لكون شرطه ما ضياً، وَإِنْ مُتَّ بضمِّ الميم تُشْتَمْ على صيغة المبني للمفعول يعني يشتمك من يقرأ منه!! يَعْنِي هذا التفسير من المصنف: إذَا شِخْتَ بكسر الشين وسكون الخاء على صيغة الخطاب أي: صرت شيخاً وَضَعُفَ بَصَرُكَ نَدِمْتَ عَلى ذَلِكَ الفِعْلِ، لأنك تتأمَّل من قراءته وقتئذ[1].

أدب النسخ: وَحُكِيَ عَنِ الشَّيْخِ الإمَامِ مَجْدِ الدِّيْنِ الصَرحَكِي رَحِمَهُ الله[2] أَنَّهُ قَالَ: مَا قَرْمَطْنَا إلَّا نَدِمْنَا (ما) موصولة في المواضع الثلاثة والعائد محذوف؛ أي: الذي قرمطناه ورقَّقنا كتابته ندمناه. أو مصدرية أي: مدَّة دوام قرمطتنا في الكتابة ندمنا بأن نقول: لماذا فعلنا هكذا؟.

وَمَا انْتَخَبْنَا إلَّا نَدِمْنَا أي: الذي انتخبناه ندمناه، أو مدة دوام انتخابنا واختصارنا ندمنا؛ لأنَّا كثيراً ما نحتاج إلى التفصيل، وَمَا لَمْ نُقَابِلْ أي: الكتاب الذي لم نقابله مع كتاب آخر صحيح نَدِمْنَا[3] لأنَّ هذه الأشياء

---

(١) والأشدُّ من ذلك الآن أنَّ بيننا وبين الخط الكتابي (أفلام وتصوير) تتعذر القراءة وربما تعسَّرت لصغر الخط ومقاربة السطور، وبخاصة الهوامش والتعليقات فامتنعت منها الفائدة لتعذر القراءة بالرغم من وسائل التكبير!! وربما يكون الأمر أهونَ لو وصلت أيدينا الى الورقي أو المخطوط مباشرة.

(٢) مجد الأئمة أبو بكر محمد بن عبد الله الصرحكي ـ نسبة الى « صرحك»؛ من قرى سمرقند ـ كان إماماً جليلاً، ومرجعاً دقيقاً، ذا باع طويل ونظر ثاقب، تفقه بسمرقند ثم سكن بخارا. ثم عاد فتوفي بسمرقند غرة ذي الحجة سنة: ثمان عشرة وخمس مئة.

(٣) لا ينبغي لطالب العلم أن يتخير وينتخب، بل يجمع ما يجد حتى يتم له التمكن وتقوى ملكته على الانتخاب، وأيضاً لئلا يألف الاختصار حتى تقصر همته عن الأشمل. وعلى =

مضرَّة لمطالعتنا ومخلَّة بتفهُّم مقصودنا.

هيئة الكتاب: وَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ تَقْطِيْعُ الكِتَابِ أي: قطعه مُرَبَّعَاً[1] لا مدوَّراً، فَإِنَّهُ تَقْطِيْعُ أَبِي حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ الله أي: التقطيع الذي اختاره أبو حنيفة رحمه الله، وَهُوَ أَيْسَرُ -أي: والحال أنَّه أيسر- إِلَى الرَّفْعِ من محلِّه وَالوَضْعِ في محلِّه وَالمُطَالَعَةِ.

الحبر الأحطر: وَيَنْبَغِي أَنْ لَا يَكُونَ فِي الكِتَابِ شَيْءٌ مِنَ الحُمْرَةِ، فَإِنَّهَا صَنِيْعُ الفَلَاسِفَةِ أي: مصنوعهم ومخترعهم لَا صَنِيْعُ السَّلَفِ[2].

وَمِنْ مَشَايِخِنَا مَنْ كَرِهَ اسْتِعْمَالَ المُرَكَّبِ الأَحْمَرِ! ولعلَّه إنَّما كرهه للعلَّة السابقة، أو لكراهة لونه.

تعظيم الشركاء: وَمِنْ تَعْظِيْمِ العِلْمِ تَعْظِيْمُ الشُّرَكَاءِ الذين شاركهم في طلب العلم والدرس؛ وَمَنْ يَتَعَلَّمْ مِنْهُ يعني: الأستاذ، وَالتَّمَلُّقُ يعني:

الأخص ما يسمعه من أفواه الشيوخ لأنهم يقولون أحسن... كما سيأتي ص١٦٩ أما المقابلة! فشأن خطير يجب المحافظة عليه لتمكن الفساد فيما لم يقابل، لأن الناسخ ربما سهت عينه فسقط منه سطر أو أكثر لتشابه كلمتين، وهذا معروف لمن مارسه. وقديماً قيل: (انسخ وقابل، وإلا ألقِ في المزابل).

(١) لكن الأمر اليوم ملزم بشكل معين وإن كان عدة قياسات، لأن الورق موحد القياس فيتقيد به لئلا يتلف الزائد.

(٢) هذا مما يختلف فيه باختلاف العادة والزمان، وقد وجدت في كثير من كتب التراث بل أكثرها الحمرة للجداول والأبواب والمتون ضمن الشروح؛ وما أشبه ذلك، ونحن اليوم أحوج أن نساعد الطالب في توضيح النصوص التي يتعاطاها.

التودُّد والتلطُّف مَذْمُومٌ في جميع الأحوال إلَّا فِي طَلَبِ العِلْمِ، فَإِنَّهُ أي: فإنَّ طالب العلم يَنْبَغِي أنْ يَتَمَلَّقَ لِأُسْتَاذِهِ وَشُرَكَائِهِ لِيَسْتَفِيْدَ مِنْهُمْ.

أدب التلقي: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَسْتَمِعَ العِلْمَ وَالحِكْمَةَ بِالتَّعْظِيْمِ وَالحُرْمَةِ، قال مجاهد: الحكمة هي القرآن والعلم والفقه. وعن مقاتل: أنَّها تفسَّر في القرآن بأربعة أوجه، فتارة بمواعظ القرآن بما فيه من عجائب الأسرار، ومرَّة بالعلم والفهم، وأخرى بالنبوَّة. وَإِنْ سَمِعَ (إن) للوصل متسلَّخة عن معنى الشرط المَسْأَلَةَ الوَاحِدَةَ؛ أَوِ الكَلِمَةَ الوَاحِدَةَ أَلْفَ مَرَّةٍ.

دوام التعظيم: قِيْلَ: مَنْ لَمْ يَكُنْ تَعْظِيْمُهُ بَعْدَ أَلْفِ مَرَّةٍ كَتَعْظِيْمِهُ فِي أَوَّلِ مَرَّةٍ؛ فَلَيْسَ بِأَهْلٍ لِلْعِلْمِ، لأنَّ العلم معظَّم ومشرَّف في جميع الأحوال والأوقات.. لا تفاوت بين وقت ووقت، فمن قَصَّر في تعظيمه في بعض الأحيان؛ ولم يعظِّمه غاية التعظيم.. فهو ليس بأهل العلم، لأنَّ من وجد لذَّة العلم وعلم قدره ورتبته لا يستطيع أن لَّا يعظِّمَه.

التفويض للأستاذ: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ لَا يَخْتَارَ نَوْعَ عِلْمٍ بِنَفْسِهِ أي: بذاته من غير أن يشاور أستاذه، بَلْ يُفَوِّضُ أَمْرَهُ إِلَى الأُسْتَاذِ، فَإِنَّ الأُسْتَاذَ أعاد ذكره تلذُّذاً وتبرُّكاً قَدْ حَصَلَ لَهُ التَّجَارُبُ جمع: تجربة فِي ذَلِكَ أي: في اختيار نوع العلم؛ فَكَانَ أَعْرَفَ بِمَا يَنْبَغِي من أنواع العلم لِكُلِّ أَحَدٍ من أفراد الطالبين، وَمَا يَلِيْقُ بِطَبِيْعَتِهِ؛ لأنَّ الطبائع مختلفة فمن الطبائع ما يليق به الفقه، ومن الطبائع ما يليق به العلوم العربية.. إلى غير ذلك.

فلابدَّ من أستاذ يعلم طبيعة المتعلِّم ويعلَمُ من أنواع العلوم ما يليق بطبيعته.

ثمرة التفويض: وَكَانَ الشَّيْخُ الإِمَامُ الأَجَلُّ الأُسْتَاذُ بُرْهَانُ الدِّيْنِ رَحِمَهُ الله يَقُولُ خبر (كان):

كَانَ طَلَبَةُ العِلْمِ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ يُفَوِّضُونَ؛ وهو جعل الأمر في عُهْدة الغير: من فوَّض إليه تفويضاً أي: ردَّه إليه وجعله في عهدته أُمُورَهُمْ فِي التَّعَلُّمِ إِلَى أُسْتَاذِهِمْ متعلِّق بـ (يفوِّضون)؛ فَكَانُوا يَصِلُونَ إِلَى مَقَاصِدِهِمْ وَمُرَادِهِمْ.

وَالآنَ يَخْتَارُونَ لفظة (الآن) ظرفٌ منصوب على أنَّه مفعول فيه لـ(يختارون)، وقدِّم عليه اهتماماً بِأَنْفُسِهِمْ أي: من غير انضمام رأي الأستاذ، فَلَا يَحْصُلُ مَقْصُودُهُمْ كائناً مِنَ العِلْمِ وَالفِقْهِ، لأنَّهم لا يدرون: أيُّ العلم أنفعُ بهم؛ وأيُّ علم يليق بطبيعتهم! فلا يهتدون إلى المطلوب.

ناصح البخاري: وَكَانَ يُحْكَى أنَّ مُحَمَّدَ بنَ إِسْمَاعِيْلَ البُخَارِيَّ رَحِمَهُ الله[1] كَانَ بَدَأَ بِـ(كِتَابِ الصَّلَاةِ)[2] عَلَى مُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ الجارُّ والمجرور أعني (على

---

(١) أمير المؤمنين أبو عبد الله صاحب «الجامع الصحيح...» الذي أطبقت شهرته الآفاق، رحل في طلب الحديث والعلم؛ فسمع من نحو ألفي شيخ.. حوالي ست مئة ألف حديث، وتوفي سنة ٢٥٦ هـ.

(٢) للإمام محمَّد رحمه الله، وله «الحيض» و«المناسك» وغيرهما، ولكن أكثرها بل جميعها فقد، ولم يبق إلا كتب ظاهر الرواية. ولكن في عزو هذه النصيحة الى الإمام محمَّد رحمه الله =

محمد) متعلِّق بـ (بدأ) على تضمين معنى القراءة، أي: بـدأ بكتـاب الـصلاة على محمَّد بن الحسن المشتهر بـ(الإمام الربَّاني) من الأئمة الحنفيَّة، فَقَالَ أي: محمَّد بن الحسن لَهُ أي: محمَّدِ بن إسماعيل مُحَمَّدٌ رَحِمَهُ الله: اذْهَبْ وَتَعَلَّمْ عِلْمَ الحَدِيْثِ؛ لَمَّا رَأَى أنَّ ذَلِكَ العِلْمَ أي: علم الحديث أَلْيَقُ بِطَبْعِـهِ[1] أي: بطبـع محمَّد البخاري! وَطَلَبَ عِلْمَ الحَدِيْثِ عطف على مقدَّرٍ أي: فذهب وطلـب فَصَارَ فِيْهَ أي: في علم الحديث مُقَدَّمَاً عَلَى جَمِيْعِ أَئِمَّةِ الحَـدِيْثِ يعنـي: صـار مقتداهم ومقلَّدَهم، فجمع كتاباً معتـبراً بـين النـاس بعـد كتـاب الله تعـالى مسمَّى بـ (صحيح البخاري).

مجلس الطالب: وَيَنْبَغِي لِطَالِـبِ العِلْـمِ أنْ لَا يَجْلِـسَ قَرِيْبَـاً مِـنَ الأُسْـتَاذِ -أي: إليه، لأنَّ (من) إذا استعمل بالقرب يكون بمعنى (إلى)- عِنْـدَ الـسَّبْقِ بحذف المضاف أي: عند تعلُّم الـسبق بِغَـيْرِ ضَرُورَةٍ تقتـضيه، بَـلْ يَنْبَغِـي أنْ يَكُونَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الأُسْتَاذِ قَدْرُ القَوْسِ أي: مقدار طول القوس، فَإِنَّه أي: كـون ما بين المعلِّم والمتعلِّم مقدار القوس أَقْرَبُ إلَى التَّعْظِيْمِ مما دون القوس.

كلاب معنوية: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ يَحْتَرِزَ عَنِ الأَخْلَاقِ الذَّمِيْمَةِ أي: عن الأخلاق التي تعتبر في الشرع مذمومة، فَإِنَّهَا أي: تلك الأخلاق كِلَابٌ مَعْنَوِيَّةٌ أي: مشبَّهة بحسب المعنـى بـالكلاب الـصورية، فكـما أنَّ الكـلاب

نظر ظاهر! لأنَّ البخاري ولد ١٩٤هـ بينما توفي محمَّد سنة ١٨٩هـ!! أي قبـل ولادتـه بخمس سنوات.

(١) وهذا مما يدلُّ على فطنته وخارق فراسته لو صحَّ!.

تؤذِي مَن يقاربها.. كذلك هذه الأخلاق تؤذي صاحبها ومن يقارَن به، وَقَدْ قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَا تَدْخُلُ المَلَائِكَةُ بَيْتاً فِيهِ كَلْبٌ -فمن اتَّصف بتلك الأخلاق الذميمة التي هي كلابٌ معنويَّة تتأذَّى وتنفر منه الملائكة ولا يدخلون في بيته- أَوْ صُورَةٌ»[1].

وَإِنَّمَا يَتَعَلَّمُ الإنْسَانُ بِوَاسِطَةِ المَلَكِ[2] أي: والحال أنَّ ما يتعلَّم الإنسان بواسطة إلقاء الملائكة فظهر أنَّ مَن كان صاحب الأخلاق الرديئة لا يملك نفائس العلوم.

وَالأَخْلَاقُ الذَّمِيْمَةُ تُعْرَفُ فِي « كِتَابِ الأَخْلَاقِ»، وَكِتَابُنَا هَذَا لَا يَحْتَمِلُ بَيَانَهَا، لأنَّ المقصود من تدوين هذا الكتاب بيانُ طرق التعليم والتعلُّم وبحث الأخلاق خارج عن هذا المقصود.

أسوأ الأخلاق: وَلْيَحْتَرِزْ خُصُوصَاً - نصب على المصدرية أي: أخص خصوصاً- عَنِ التَّكَبُّرِ متعلِّق بقوله: أن يحترز عن الأخلاق الذميمة خصوصاً عن التكبُّر، ومع التكبُّر لا يحصل العلم، لأنَّ العلم يستدعي التواضع لمن تعلِّمه والتكبُّر ينافيه؛ فَمَعَ التَّكَبُّرِ لَا يَحْصُلُ العِلْمُ. قِيْلَ[3]:

العِلْمُ حَرْبٌ لِلْفَتَى المُتَعَالِي كَالسَّيْلِ حَرْبٌ لِلْمَكَانِ العَالِي

---

(١) أخرجه مسلم: ٨٣-٢١٠٦ وغيره، عن أبي طلحة رضي الله عنه.

(٢) يعني: قرين الخير.

(٣) من الكامل. يعني: المتكبر لا يصله العلم كما لا يصل ماء السيل الى القمة المرتفعة.

الحرب بمعنى العدوِّ، وقال صاحب « القاموس»: رجل حرب عدوٌّ ومحارب؛ وإن لم يكن محارباً! انتهى. والمعنى: أنَّ العلم عدوٌّ للمتكبِّر المختال لا يجتمع معه، بل إذا صادفه يزيله ويقلعه.

وَقِيْلَ:

بِجَدٍّ لَا بِجِدٍّ كُلُّ مُجْدٍ فَهَلْ جَدٌّ بِلَا جِدٍّ بِمُجْدِ[1]

(الجدُّ) الأوَّل في المصراع الأوَّل بفتح الجيم بمعنى: البخت والدولة، والثاني بكسر الجيم بمعنى: الجهد والسعي، وفي المصراع الثاني على هذا الترتيب أيضاً. يعني: كلُّ المجد والعظمة بفضل الله وتقديره؛ لا بالجدِّ والسعي، ولكن لا بدَّ من اقتران الطلب والسعي حَتَّىٰ يظهر فضل الله تعالى على جري عادة الله تعالى؛ كما ينبئ عنه قوله: فهل جَدٌّ بلا جِدٍّ بمجد؟! استفهام إنكاريٌّ يعني: لا يكون الجدُّ بلا اقتران الجهد والسعي مجدياً.

فَكَمْ عَبْدٍ يَقُومُ مَقَامَ حُرٍّ يعني: كثير من العبيد يقومون مقام حرٍّ في الرتبة والشرف بفضل الله تعالى المقارن بالجهد والسعي.

وَكَمْ حُرٍّ يَقُومُ مَقَامَ عَبْدِ[2] في الدناءة والرذالة؛ لعدم جدِّه وسعيه المستتبع لفضل الله تعالى.

---

(١) من الوافر. وجدي الأولى بالكسر: الاجتهاد. والثانية بالفتح: أبو الأب، والمراد مطلق النسب ومُجْد بالضم: مثمر؛ أو مفيد.

(٢) المعنى: نزل منزلته؛ لأنه يفعل مثل أفعاله. والمرء حيث يضع نفسه.

الفصل الخامس

فِي الجِدِّ وَالمُوَاظَبَةِ أي المداومة وَالهِمَّةِ

الحاجة إليه: ثُمَّ لَا بُدَّ مِنَ الجِدِّ وَالمُوَاظَبَةِ وَالمُلَازَمَةِ لِطَالِبِ العِلْمِ، وَإِلَيْهِ الإِشَارَةُ فِي القُرْآنِ قوله: (الإشارة) مبتدأ، أي: المشير أو ذو إشارة في القرآن بِقَوْلِهِ تَعَالَى خبر مبتدإ ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُواْ فِينَا لَنَهۡدِيَنَّهُمۡ سُبُلَنَا﴾[العنكبوت: ٦٩].

ومعناه على قول الفضيل: والذين جاهدوا في طلب العلم لنهديهم سبل العلم به. وَقَوْلِهِ تَعَالَى ﴿يَٰيَحۡيَىٰ خُذِ ٱلۡكِتَٰبَ بِقُوَّةٖۖ وَءَاتَيۡنَٰهُ ٱلۡحُكۡمَ صَبِيّٗا﴾ [مريم: ١٢].

ثمرته: وَقَدْ قِيْلَ وقيل في هذا المعنى: مَنْ طَلَبَ شَيْئَاً وَجَدَّ أي: اجتهد وسعى سعياً جميلاً وَجَدَ[1] أي: وجده وصادفه، وَمَنْ قَرَعَ البَابَ أي: باب المقصود وَلَجَّ[2] أي: أقدم فيه.. وَلَجَ أي: دخل فيه ووصل مقصوده.

---

(١) وفي هذا المعنى قيل:

قَدِّرْ لِرِجْلِكَ قَبْلَ الخَطْوِ مَوْضِعَهَا ... فَمَنْ عَلَا زَلَقَاً عَنْ غِرَّةٍ زَلَجَا

أَخْلِقْ بِذِي الجِدِّ أَنْ يَحْظَى بِحَاجَتِهِ ... وَمُدْمِنِ القَرْعِ لِلْأَبْوَابِ أَنْ يَلِجَا

(٢) « لجَّ»: ألحَّ بالطلب، « وَلَجَ»: دخل. يعني: من داوم الإلحاح نال حاجته.

وَقِيْلَ: بِقَدْرِ مَا تَتَعَنَّى[1] من العناء، و(ما) مصدرية، أي: بقدر إصابتك العناء تَنَالُ مَا تَتَمَنَّى أي: تصل ما تتمناه وتبتغيه.

محتاجو الجد: قِيْلَ: يَحْتَاجُ فِي التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ إِلَى الجِدِّ ثَلَاثَةٌ: ١- الْمُتَعَلِّمُ بالجر على أَنَّه بدل من (الثلاثة)، ويجوز الرفع والنصب أيضاً، وَ٢- الأُسْتَاذُ، وَ٣- الأَبُ؛ إِنْ كَانَ أي: الأب فِي الأَحْيَاءِ جمع: حيٍّ يعني: إذا كان حيَّاً لابدَّ من جِدِّه وسعيه في تحصيل ابنه العلم.

أَنْشَدَنِي أي: قرأ عليَّ شعراً الشَّيْخُ الإِمَامُ الأُسْتَاذُ سَدِيْدُ الدِّيْنِ الشِّيْرَازِيُّ رَحِمَهُ الله لِلْشَافِعِيِّ[2] يعني شعراً قاله الشافعيُّ رحمه الله:

الجِدُّ يُدْنِي أي: يقرِّب كُلَّ أَمْرٍ نصب على أنه مفعول (يدني) شَاسِعِ أي: بعيد.

وَالجِدُّ يَفْتَحُ كُلَّ بَابٍ مُغْلَقِ أي: الاجتهاد يفتح أبواب المرادات التي أُغلقت وصعب فتحها.

وَأَحَقُّ خَلْقِ الله أي: أليق مخلوق لله تعالى بِالهَمِّ أي: بأن يهمَّ ويحزن له على

---

(١) تتعب.

(٢) هي من البحر الكامل. ولها قصَّة ذكرها التاج السبكي وابن حجر بسندهما: أنَّ عباس الأزرق دخل على الإمام الشافعي؛ فقال: يا أبا عبد الله... قلتُ أبياتاً إن أجزتَ مثلها لأتوبنَّ من قول الشعر!! فقال الإمام: إيه...: فقال:

مَا هِمَّتِي إِلَّا مُقَارَعَةَ العِدَا ... خَلَقَ الزَّمَانُ وَهِمَّتِي لَمْ تُخْلَقِ

وثمت أبيات أخرى وبعضها مخالف ترتيبه لما هنا.

أنَّ (الهمَّ) مصدر مجهول قوله: وأحق مبتدأٌ؛ خبره قوله: امْرُؤٌ أي: رجل.

ذُو هِمَّةٍ أي: قصدٍ وسعي في المعارف والعلوم يُبْلَى أي: يجعل مبتلىً بِعَيْشٍ ضَيِّقٍ يعني: مَن صار مبتلىً بمضايقة العيش والألم والجاهلون في سعة ونعم.. فهو جدير بأنْ يغتمَّ ويحزن له.

وَمِنَ الدَّلِيْلِ خبر مقدَّم عَلَى القَضَاءِ أي: قضاء الله تعالى وَحُكْمِهِ

بُؤْسُ اللَّبِيْبِ البؤس.. بضم الباء وسكون الهمزة: الشدَّة، وهو مرفوع على أنَّه مبتدأ مؤخَّر وَطِيْبُ عَيْشِ الأَحْمَقِ، لأنَّه لو لم يكن بقضاء الله وحكمه بل بالنظر إلى العلم والجهل.. لكان الأمر بالعكس وليس كذلك! فظهر أنَّه من قضاء الله والمبني على الحكمة اللائقة الفائقة.

لَكِنَّ مَنْ رُزِقَ الحَجَى أي: العقل حُرِمَ الغِنَى أي: لكن من رزق العقل حرم من الغنى وهذا حكم أكثري لا كلِّي لوجود الأغنياء في الصحابة والتابعين وغيرهم من العلماء

ضِدَّانِ يَفْتَرِقَانِ أيَّ تَفَرُّقِ أي: هما ضِدَّان يفترقان تفرُّقاً أيَّ تفرُّق. قيل: تفرُّقاً كاملاً فلفظ (أيَّ تفرُّق) منصوب على المصدرية باعتبار دلالته على معنى الكمال؛ مثل: مررت برجلٍ أيَّ رجل! أي: كامل في الرجولية.

وَأُنْشِدْتُ على صيغة المبنيِّ للمفعول للمتكلِّم وحده أي: قرئ عليَّ الشعر لِغَيْرِهِ[1] أي: لغير الشافعي:

---

(١) لغير الشافعي، وهما من البحر الطويل.

تَمَنَّيْتَ على صيغة الخطاب أَنْ تُمْسِي فَقِيْهَاً مُنَاظِرَاً أي: مباحثاً و(تمسي) ههنا بمعنى تصير؛ لا بمعنى اقتران مضمون الجملة بالمساء، لأنَّه ليس بمراد، بل المراد صيرورتُه فقهياً في أيِّ وقت كان بِغَيْرِ عَنَاءٍ متعلِّق بـ(تمسي)، والعَناء بفتح العين المهملة: المشقَّة والتعب، أي: تمنَّيت أن تصيرَ فقهياً مباحثاً بغير مشقَّة وتعب، فهذا نوع من الجنون وَالجُنُونُ فُنُونٌ[1] أي: أنواع.

وإنَّما كان هذا جنوناً! لأنَّ علم الفقه من المطالب العالية، والمطلوبُ إذا اشتدَّ علوُّه اشتدَّ عناؤه، فمن أراد تحصيلَّه بغير عناء.. فهو مجنون ومغبون.

وَلَيْسَ اكْتِسَابُ المَالِ دُوْنَ مَشَقَّةٍ أي: متجاوز عن مشقَّة تُحَمَّلُهَا فعل مضارع من باب التفعل حذف إحدى التاءين، أي: تتحملها والجملة صفة لـ (مشقَّة). وفي بعض النسخ تَحمَّلُها على صيغة المخاطب، فَالْعِلْمُ كَيْفَ يَكُونُ يعني: اكتساب المال مع كونه رذيلاً خسيساً لا يمكن بدون المشقَّة فكيف يحصل العلم بلا مشقَّة مع كونه أعلى الأمور وأشرفها!؟.

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ[2]:

---

(١) العناء: المشقة والتعب، والمراد أنَّ هذا من فنون الجنون وأصنافه.

(٢) أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي، شاعر حكيم من مفاخر الأدب العربي، تنبأ في بادية الشام، ثم أسر وسجن فتاب، مدح سيف الدولة وكافوراً، ثم ابن العميد وابن بويه. ثم عرض له فقتل غربي بغداد سنة ٣٥٤هـ. شرح ديوانه الكثيرون، وكتب عنه الأكثر، والبيت من الوافر.

وَلَمْ أَرَ فِي عُيُوبِ النَّاسِ عَيْبَاً أي: ما عرفت في عيوب الناس عيباً، فـ(عيب) مفعول (لم أر)، ولا تقتضي المفعول الثاني! لأنَّ الرؤية ههنا بمعنى المعرفة، فحينئذ لا يقتضي المفعول الثاني لما عرف في موضعه.

كَنَقْصِ القَادِرِيْنَ عَلَى التَّمَامِ الكاف ههنا في محلِّ النصب على أنَّها صفة. عيباً أي: مماثلاً لنقص الرجال الذين قدروا على إتمام شيء فلا يتمُّونه؛ بل يبقونه ناقصاً، مثلاً يقدرون على إتمام علم من العلوم، ولو أرادوا إتمامه.. لكن لا يريدونه فهذا عيب من العيوب ما رأيت مثله!!.

سهر الليالي: وَلَا بُدَّ لِلْطَالِبِ مِنْ سَهَرِ اللَّيَالِي، كَمَا قَالَ الشَّاعِرُ:

بِقَدْرِ الكَدِّ أي: بقدر كدِّك ومشقَّتك، فاللام عوضٌ عن المضاف إليه، أو تغني عن الإضافة على المذهبَيْن، والجارُّ والمجرور متعلِّق بقوله: تُكْتَسَبُ المَعَالِي أي: المقامات العالية.

وَمَنْ طَلَبَ العُلَا سَهِرَ اللَّيَالِي[1] يعني: لما كان اكتساب المعالي بقَدْر كدِّك.. لزم لمن طلب العلا سَهَرُ الليالي؛ أي: التيقُّظ والانتباه في الليالي، لأنَّ السهر من المشاقِّ التي تُتَحمَّل في طلب العلم.

تَرُومُ العِزَّ ثُمَّ تَنَامُ لَيْلَاً أي: تطلب أنت العزَّ؛ أي: القوَّة والغلبة في العلوم وغيرها؛ ثمَّ تنام الليل كُلَّاً أو بعضاً؛ فهما متنافيان! لأنَّ العزَّ في

---

(١) الأبيات من الوافر. وتنسب للإمام الشافعي، وبعضها في ديوانه. القدر: المقدار. ومن العيوب ويسمى «إيطاء»: تكرُّر القافية قبل مضي سبعة أبيات!!

العلوم وغيرها يحصل بالمجاهدات في أثناء الليالي، وفي الأوقات الخالية عن الأغيار خصوصاً في وقت الأسحار (ثم) ههنا للتراخي الرُّتْبي، لأنَّ بين طلب العزَّ والنومِ في الليل بعداً رتبياً!

يَغُوصُ البَحْرَ أي: يخوض في البحر مَنْ طَلَبَ اللَّآلِي جمع: لؤلؤ. يعني: من أراد تحصيل العزَّة في العلوم يغوص بحر الشدائد يستخرج للآلى المعارف؛ كما أنَّ من طلب اللآلي يغوص في البحر ويستخرج اللآلي، وفي لفظ (الغوص) و(البحر) و(اللآلي) من الاستعارات اللفظية ما لا يخفى.

عُلُوُّ الكَعْبِ كناية عن ارتفاع المحلِّ، وعلوُّ القدر والكعب الشرف والمجد؛ كذا في « القاموس»! فعلى هذا علوُّ الشرف والمجد كمالُه بِالهِمَمِ العَوَالِي. الهمم جمع: همَّة، والعوالي جمع: عالية، يعني أنَّ ارتفاع المنزلة والمقام وعلوَّ القدر والشأن بالهمم العالية؛ أي: بالقصد الكامل والسعي الجميل.

وَعِزُّ المَرْءِ أي: قوَّته وغلبته فِي سَهَرِ اللَّيَالِي[1]، إذ بالسهر لا يعطل الأوقات التي تعطل بالنوم، وتصرَف إلى تحصيل المعارف واكتساب الطاعات؛ فيحصل عزَّة الدارين والسعادة السرمدية.

تَرَكْتُ النَّوْمَ رَبِّي أي: ياربِّ فِي اللَّيَالِي.

لِأَجْلِ رِضَاكَ يَا مَوْلَى المَوَالِي أي: لأجل تحصيل رضاك يا مولى الموالي المجازيَّة بالطاعات والعبادات في طول الليالي.

---

(١) تروم: تقصد، علو الكعب: كناية عن الشرف والمجد والقدر.

وَمَنْ رَامَ أي: طلب العُلَا علوَّ القدر مِنْ غَيْرِ كَدٍّ أي: من غير تعب أَضَاعَ العُمْرَ فِي طَلَبِ المُحَالِ وهو تحصيل العلوِّ من غير كدٍّ، فَوَفِّقْنِي إِلَى تَحْصِيْلِ عِلْمٍ أي: اجعلني يا ربِّ موفَّقاً إلى تحصيله وَبَلِّغْنِي إِلَى أَقْصَى المَعَالِي أي: اجعلني بالغا واصلاً إلى نهاية المطالب وغاية المآرب.

وَقِيْلَ: اتَّخِذِ اللَّيْلَ جَمَلاً تُدْرِكْ بِهِ أَمَلاً قوله: (اتخذ) أمر، و(تدرك) مجزوم على أنَّه جوابه، يعني: اتخذ الليل إبلاً ومركباً كي تدرك به أملك ومقصودَك، فكما أنَّ الإبل إذا ركبته يوصلك إلى مقصودك.. كذلك الليل إذا سافرت فيه وتوجَّهت إلى تحصيل المقامات المعنوية يوصلُك إليها.

قَالَ المُصَنِّفُ وهو قائل هذا القول إلَّا أنَّه نزَّل نفسه منزلة الغائب رحمه الله[1]:

وَقَدْ اتَّفَقَ لِي نَظْمٌ فِي هَذَا المَعْنَى هذا القول مقول لـ(قال) أي: في إثبات أنَّ الليل سبب الوصول إلى المطالب...

مَنْ شَاءَ أَنْ يَحْتَوِي أي: يجمع آمَالَهُ أي: مقاصده منصوب على أنَّه مفعول (يحتوي) جُمَلاً أي: جميعاً فَلْيَتَّخِذْ لَيْلَهُ إضافة الليل إلى الضمير الراجع إلى الموصول لأدنى ملابسة باعتبار كونِه زمانه فِي دَرْكِهَا أي: في نيل الآمال جَمَلاً[2] أي: إبلاً كما سبق.

---

(١) مراده نفسه، وتحدث عنها بصيغة الغيبة تواضعاً؛ إن كان الكتاب من تصنيفه كما أشرنا في المقدمة!!

(٢) جملا: اجمالاً، جملا الواحد من الإبل.

أَقْلِلْ طَعَامَكَ أمر من الأفعال[1] أي: اجعل طعامك قليلاً كَيْ تَحْظَى على بناء الفاعل من (حظي كرضي) أي: تصير ذا حظٍّ ونصيب بِهِ، أي: بإقلال الطعام سَهَرَاً تمييز بمعنى الفاعل أي: تجعل السهر حظَّك إِنْ شِئْتَ يَا صَاحِبِي أَنْ تَبْلُغَ الكَمَلَا[2] بفتح الكاف والميم بمعنى: الكامل، يقال: أعطاه المال كَمَلاً محرَّكة أي: كاملاً؛ كذا في « القاموس». وجواب الشرط محذوفٌ بقرينة ما قبله تقديره: إن شئت يا صاحبي وقريني أن تبلغ الكامل من العلوم.. فأقلل طعامك.

وَقِيْلَ: مَنْ أَسْهَرَ نَفْسَهُ أي: جعله يقظان بِاللَّيْلِ؛ فَقَدْ فَرِحَ قَلْبُهُ أي: صار قلبه ذا فرح بِالنَّهَارِ، لأنَّه حصل في الليل ما لابدَّ من تحصيله في النهار، فإذا جاء النهار.. فرح بما حصل في الليل كأنَّه وجده مجاناً.

وقت المواظبة: وَلَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنَ المُوَاظَبَةِ عَلَى الدَّرْسِ، وَالتَّكْرَارِ بالجرِّ معطوف على المواظبة فِي أَوَّلِ اللَّيْلِ وَآخِرِهِ[3]، فَإِنَّ مَا بَيْنَ العِشَاءَيْنِ[4]

---

(١) هكذا في الأصل!! ولعل صوابه: الإقلال!!.

(٢) المعروف أن من أكل كثيراً شرب كثيراً، ومن شرب كثيراً نام كثيراً، ومن نام كثيراً فاته خير كثير. وانظر ص١٢٠ في الفصل الخامس في الجد والمواظبة؛ عن سبعين نبياً. والكمل: الكامل.

(٣) وخير من هذا لما يراد حفظه مذاكرته قبل النوم ثم مذاكرته بعد اليقظة، وإن كان قرآنا! فينبغي الإكثار من تلاوته في الصلاة ليتمكن.

(٤) العشاءآن: المغرب والعشاء تغليباً؛ كما في العصرين، والعمرين، والقمرين وغير ذلك. والسحر: آخر الليل قبيل الفجر.

أي: المغرب والعشاء على سبيل التغليب كالعمرين والقمرين. وَوَقْتِ السَّحَرِ أي: قبيل الصبح الصادق وَقْتٌ مُبَارَكٌ خبر (إن) ، فلابدَّ لطالب العلم أن لا يضيِّعَه ويصرفه بالاشتغال في العلوم.

قِيْلَ فِي المَعْنَى:

يَا طَالِبَ العِلْمِ بَاشِرِ الوَرَعَا قوله (باشر) أمر حاضر، أي: الزم الورعا يعني: العفَّة والتحرُّز عن الحرام، والألف في (الورعا) ألف إشباع متولِّد من الفتحة، وكذا فيما بعده وَجَنِّبِ أي: بعِّد النَّوْمَ وَاتْرُكِ الشِّبَعَا بكسر الشين المعجمة وفتح الباء: ضدُّ الجوع، فإنَّ النوم والشبع مانعان للتحصيل. أو دَاوِمْ أنت عَلَى الدَّرْسِ لَا تُفَارِقَهُ نهى عن المفارقة تأكيد للمداومة، فَالْعِلْمُ الفاء للتعليل أي: لأنَّ العلم بِالْدَرْسِ متعلِّق بقوله: قَامَ أي: حصل وَارْتَفَعَا أي: زاد، فإنَّ ارتفاع العلم زيادة؛ وهي لا تحصل إلَّا بالمداومة على الدرس.

يَا طَالِبَ العِلْمِ اِلْزَمْ الوَرَعَا وَاهْجُرِ النَّوْمَ وَاتْرُكِ الشِّبَعَا

يا طالب العلم فأجتهد بالليل والنهار؛ فإنَّ تحصيل العلم بالجدِّ والتكرار، فإنَّ لكلِّ شيءٍ آفة؛ وآفة العلم ترك الجدِّ والتكرار وَيَغْتَنِمُ أَيَّامَ الحَدَاثَةِ بفتح الحاء: مصدر حدث؛ يقال: (حدث حدوثاً وحداثة)، وأيَّام الحداثة من عشرين إلى أربعين.

فَيَغْتَنِمَ أَيَّامَ الحَدَاثَةِ وَعُنْفُوَانَ الشَّبَابِ[1] أي: أوَّله، لأنَّ الحواسَّ والقوى المدركة تامَّة قويَّة في زمان الشباب، فإذا فات الشباب وأدرك أيام المشيب.. ضعفت القوى والحواسُّ، فلا يقدر على تحصيل العلوم والمعارف، فإذن لابدَّ من اغتنام أيَّام الحداثة والشباب كَمَا قِيْلَ:

بِقَدْرِ الكَدِّ أي: المشقَّة تُعْطَى أنت على صيغة المبنيِّ للمفعول مَا تَرُومُ مفعول ثان لـ (تعطى)؛ أي: ما تطلبه، فَمَنْ رَامَ أي: طلب المُنَى جمع: منية؛ وهي المقصود لَيْلاً يَقُومُ أي: يقوم ليلاً ويشتغل بمبادئ مطلوبه، قدَّم ليلاً على عامله!! لرعاية القافية.

وَأَيَّامَ الحَدَاثَةِ منصوب على أنَّه مفعول فيه لقوله فَاغْتَنِمْهَا أي: خذها غنيمة ولا تضيِّعْها، ألَا حرف تنبيه على تحقق ما بعدها، فإن الهمزة الإنكارية الداخلة على النفي تفيد تحقُّق الإثبات قطعاً؛ كما في قوله تعالى ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِكَافٍ عَبْدَهُۥ﴾ [الزمر: ٣٦]. ولذلك لا يكادُ يقع ما بعدها من الجملة لا مصدرة بما يتلى به القسم، لـ أَنَّ الحَدَاثَةَ لَا تَدُومُ فلابدَّ من حفظها واغتنامها قبل فوات الفرصة، لأنَّ الفرصة تمرُّ مرَّ السحاب.

رفق الطلب: وَلَا يُجْهِدُ نَفْسَهُ أي: لا يجعلها ذات جهد ومشقة جُهْدَاً مفعول مطلق، وَلَا يُضْعِفُ من الإضعاف النَّفْسَ حَتَّى يَنْقَطِعَ عَنِ العَمِلِ؛

---

(١) لكمال أهليته للحفظ وفراغ الذهن عن تكاليف الحياة ومؤن العيش؛ فضلاً عن أن الحفظ كالنقش في الحجر. العنفوان: بهجة الشيء وأوله.

فإنَّه ليس بتحصيل بل بتعطيل، بَلْ يَسْتَعْمِلُ الرِّفْقَ فِي ذَلِكَ أي: في طلب العلم وَالرِّفْقُ أي: والحال في الرفق أَصْلٌ عَظِيْمٌ يبني عليه فِي جَمِيْعِ الأَشْيَاءِ. وأيَّد هذا المدعي بقول الرسول ﷺ فقال:

وصية نبوية: قَالَ ﷺ: « أَلَا إِنَّ هَذَا الدِّيْنَ أي: دين الإسلام مَتِيْنٌ أي: محكمٌ فَأَوْغِلُوا صيغة أمر من (أوغل) في العلم إذا ذهب فِيْهِ وبالغ، أي: اذهبوا فيه وبالغوا بِرِفْقٍ، وَلَا تُبَغِّضْ عَلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ الله تَعَالَى بإتعاب النفس، فَإِنَّ الْمُنْبَتَّ بضمِّ الميم وتشديد التاء اسمُ فاعل من باب الانفعال من البتِّ، يقال: اِنبتَّ الرجل: إذا انقطع ماء ظهره، والمعنى: أنَّ الرجل الذي انقطع قوَّة ظهره ومركبه بإتعابه وإيلامه لَا أَرْضَاً قَطَع (لا) نافية و(أرضاً) مفعول (قطع)؛ قدِّم عليه أي: لا قطع أرضاً بالسير وما وصل إلى مطلوبه، وَلَا ظَهْرَاً أَبْقَى»[1]. الظهر: مركب ركبته في السير إلى الله، وإذا أتبعته بكثرة الرياضات والعبادات وأعييته ينقطع عن السير؛ بل يهلك لعدم تحمُّله، فلا بدَّ من الرفق والتدريج كيلا يضعف مركبك فتصلَ إلى مقصودك.

---

(١) أخرجه بشطره الأول أحمد؛ عن أنس رضي الله عنه وصحَّحه السيوطي: ٢٥٠٨، إلا قوله: «وَلَا تُبَغِّضْ عَلَى نَفْسِكَ عِبَادَةَ الله تَعَالَى»، والبزار؛ عن جابر رضي الله عنه بسند ضعيف كما قال السيوطي: ٢٥٠٩ أيضاً. والمتين: الشديد المتمكن. والمنبتُّ: المنقطع عن رفقته في السفر. لم يبقَ له ظهر (دابَّة) يحمله، ولا قَطَع مسافة السفر؛ فيصل إلى بلده.

وَقَالَ ﷺ: « نَفْسُكَ مَطِيَّتُكَ أي: مركبك فَارْفِقْ بِهَا»[1]. هذا غنيٌ عن الشرح.

علو الهمة: وَلَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنَ الهِمَّةِ العَالِيَةِ أي: القصد العالي فِي العِلْمِ، فَإِنَّ المَرْءَ يَطِيْرُ بِهِمَّتِهِ أي: يرتقي في العلم بهمَّته وسعيه الجميل كَالطَّيْرِ يَطِيْرُ بِجَنَاحَيْهِ.

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ[2]:

عَلَى قَدْرِ أَهْلِ العَزْمِ ومرتبته في العزم تَأْتِي العَزَائِمُ أي: المقاصد؛ فمَن كان عزمه في المرتبة العالية.. كانت مقاصده أتمَّ وأكمل.

وَتَأْتِي عَلَى قَدْرِ الكِرَامِ المَكَارِمُ جمع: مكرمة؛ وهي بمعنى الكرم مرفوعة على أنَّها فاعل (تأتي)، أي: على مرتبة الكريم في الكرم تصدر المكارم منه، فمَن كان كَرَمُه في النهاية العالية.. كان صدور المكارم منه في الغاية القاصية.

وَتَعْظُمُ أي: تصير عظيمة فِي عَيْنِ الصَّغِيْرِ أي: دنيء الهمَّة صِغَارُهَا أي: صغار المكارم هذا البيت بيانٌ لما قبله. وَتَصْغُرُ فِي عَيْنِ العَظِيْمِ أي: عليِّ الهمَّة العَظَائِمُ أي: الأشياء العظيمة التي تصدر عن صاحب الهمَّة العالية من

---

(١) المطيَّة: ما يركبه المرء ويمتطي ظهرَه للترحُّل.

(٢) المتنبي تقدَّمت ترجمته ص٩٧، من الطويل. العزائم: المقاصد التي يعزم الإنسان على نيلها، والعظائم: الأمور العظيمة، معناه إذا كان الإنسان ذا همَّة أعظم مما يطلبُ يجد مطالبَه صغيرة.

مكارم الأخلاق وتصغر وتحقر في عينه، لأنَّ همَّته عاليةٌ فبالنظر إلى همَّته العالية تصغر الأشياء العظيمة.

رأس التحصيل: وَالرَّأْسُ أي: والحال أنَّ الرأسَ فِي تَحْصِيْلِ الأَشْيَاءِ أي: رأس آلات التحصيل: الجِدُّ وَالهِمَّةُ العَالِيَةُ، فَمَنْ كَانَتْ هِمَّتُهُ حِفْظَ جَمِيْعِ كُتُبِ مُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ الله وهو الإمام الربَّانيُّ من الأئمَّة الحنفية كان مشهوراً بكثرة الكتب، وَاقْتَرَنَ بِذَلِكَ إشارة إلى الهمَّة وتذكيره باعتبار معناه؛ وهو القصد الكامل الجِدُّ وَالمُوَاظَبَةُ، فَالظَّاهِرُ أَنَّهُ يَحْفَظُ أَكْثَرَهَا؛ أَوْ نِصْفَهَا الضمير راجع إلى الكتب، فَأَمَّا إذَا كَانَتْ لَهُ هِمَّةٌ عَالِيَةٌ؛ وَلَمْ يَكُنْ لَهْ جِدٌّ أي: اجتهاد، أَوْ كَانَ لَهُ جِدٌّ؛ وَلَمْ يَكُنْ لَهْ هِمَّةٌ عَالِيَةٌ!! فَلَا يَحْصُلُ لَهُ عِلْمٌ إلَّا القَلِيْلَ[1] أي: لفقدان أحد شرطي التحصيل.

الهمة للدنيا: وَذَكَرَ الشَّيْخُ الأَجَلُّ الإمَامُ الأسْتَاذُ رَضِيُّ الدِّيْنِ النَّيْسَابُورِيُّ رَحِمَهُ الله[2] فِي كِتَابِ «مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ»: أَنَّ ذَا القَرْنَيْنِ يعني: إسكندر الرومي؛ مَلِك فارس والروم وصل إلى المشرق والمغرب، ولذا

---

(١) الأصل: أن العلم لا يعطيك بعضَه حتى تعطيه كلَّك. كما عرف ذلك عن القاضي أبي يوسف رضي الله عنه.

(٢) رضي الدين أبو الحسن المؤيَّد بن محمد الطوسي النيسابوري، يعرف بـ «منشيء النظر»، كان محدِّثاً فاضلاً وفقيهاً متمكِّناً، تمكَّن في علم الخلاف فاخترع له طريقة عرفت وأخذت عنه. له تصانيف منها «الطريقة الرضوية» ـ أو الرضيَّة ـ. في ثلاث مجلدات. و«الأخلاق»، توفي سنة: ٦١٧هـ؛ عن ٩٢ سنة.

سمِّي (ذا القرنين)، أو لأنَّه طاف قرني الدنيا شرقها وغربها، وقيل: انقرض في أيامه قرنان من الناس، وقيل: كان له قرنان أي: ضفيرتان، وقيل: كان لتاجه قرنان، ويحتمل أن يكون لُقِّب بذلك لشجاعته، كما يقال الكبش للشجاع كأنَّه ينطح أقرانه.

واختلف في نبوَّته[1] مع الاتفاق على إيمانه وصلاحه...

لَمَّا أَرَادَ أَنْ يُسَافِرَ لِيَسْتَوْلِيَ أي: ليصير غالباً والياً عَلَى المَشْرِقِ وَالمَغْرِبِ شَاوَرَ الحُكَمَاءَ جواب (لما) فِي ذَلِكَ، وَقَالَ أي: ذو القرنين: كَيْفَ أُسَافِرُ لِهَذَا القَدْرِ مِنَ المُلْكِ؟! استفهام استنكاري يعني: لا أسافر لهذا الملك الحقير؛ وهو ملك الدنيا! فَإِنَّ الدُّنْيَا قَلِيْلَةٌ وَمُلْكَ الدُّنْيَا منصوب معطوف على ما قبله أَمْرٌ حَقِيْرٌ، فَلَيْسَ هَذَا أي: الاستيلاء على المشرق والمغرب مِنْ عُلُوِّ الهِمَّةِ!! فَقَالَ الحُكَمَاءُ: سَافِرْ أنت لِيَحْصُلَ لَكَ مُلْكُ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ بالجهاد لإعلاء كلمة الله تعالى، فَقَالَ أي: ذو القرنين: هَذَا أي: السفر لهذا الغرض حَسَنٌ. فبِهمَّته العالية حصل له ملك الدنيا شرقاً وغرباً، فعلم من هذا أنَّه لابدَّ في تحصيل الأشياء من الجهد والهمَّة العالية.

وَقَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « إِنَّ الله تَعَالَى يُحِبُّ مَعَالِيَ الأُمُورِ أي: يحبُّ معالي الأمور الدينيَّة بمعنى أنَّه يرضىٰ عن صاحبها وعلوِّها بسبب اتصافها

---

(١) والصحيح عدمها.

سمِّي « ذا القرنين»!!(أي: قرني مطلع الشمس ومغربها).

بالثبات والدوام والإخلاص، وَيَكْرَهُ سَفْسَافَهَا»[1] أي: لا يرضى عن فاعله، والسَّفْساف الرديءُ من كلِّ شيءٍ؛ والأمر الحقير. كذا في « القاموس».

وَقِيْلَ:

فَلَا تَعْجَلْ بِأَمْرِكَ أي: ولا تعجل في أمرك الذي تطلب حصوله وَاسْتَدِمْهُ أمر من استدامة إذا تأتي فيه، أو تطلب دوامه. كذا في «القاموس».

فَمَا صَلَّىٰ عَصَاكَ كَمُسْتَدِيْمِ[2] (صَلَّىٰ) على صيغة المبنيِّ للفاعل من باب التفعيل، يقال: صَلَّيْت العصا بالنار: إذا ليَّنْتَها وقوَّمَتها بالنار كذا في «الصحاح». و(عصاك) مفعوله و(ما) نافية، والكاف بمعنى المثل في محلِّ الرفع على أنَّه فاعل (صلى) مضاف إلى (مستديم)، والمعنى: فما سدَّد، وما استحكم عصاك على إرادة المسبَّب مثل شخص طالب دوام تلك العصا، بل هو سدَّدها فقط، لأنَّ السديد لا يريده إلَّا طالب الدوام لينتفع به فاستدم في أمرك، واطلب دوامه كي يسدِّدأمرك ويستحكم.

وإنما قلنا (على إرادة المسبب)؟! بناء على أنَّه (صَلَّىٰ) مجاز مرسل ذكر السبب وهو تقويم العصا بالنار.. وأريد المسبَّب؛ وهو التسديد والاستحكام.

ثمرة المواظبة: قِيْلَ: قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ أي: خطاباً لِأَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُمَا الله

---

(١) أخرجه الطبراني في « الكبير» بزيادة: « وَأَشْرَافِهَا...»؛ عن الحسن بن علي رضي الله عنهما، ورمز السيوطي في «الجامع»: ١٨٨٩ لحسنه... والسفساف: الرديء الحقير.

(٢) من الوافر، والمراد من تصلية العصا تطريتها بالنار حتى تلين فتقوّم.

تَعَالَى: كُنْتَ بصيغة الخطاب بَلِيْدَاً أي: أحمق فَأَخْرَجَتْكَ الْمُوَاظَبَةُ فِي الدَّرْسِ عن البلادة، وَإِيَّاكَ وَالكَسَلَ. هذه الجملة معطوفة على جملة إنشائية مقدَّرة تقديره: فواظِبْ عليه واتَّق من الكسل؛ فَإِنَّهُ شُؤْمٌ أي: غير يمن، وَآفَةٌ عَظِيْمَةٌ ينبعث عنها أنواع الضرر.

عاقبة الكسل: قَالَ الشَّيْخُ الإِمَامُ أَبُو نَصْرٍ الصَّفَّارُ الأَنْصَارِيُّ رَحِمَهُ الله[1]:

يَا نَفْسُ يَا نَفْسُ التكرير للتوكيد، وهو مبنيٌّ على الكسر بناء على أَنَّه منادى مضافٌ إلى ياء المتكلِّم حذف ياؤه اكتفاءً بالكسر لَا تَرْخِي من الإرخاء؛ وهو: جعل الشيء رخواً. والمراد النهي عن الكسل في الأعمال الصالحة وعلامة الجزم سقوطُ الحركة على لغة مَن يجعل المعتلَّ كالصحيح في سقوط الحركة عَنِ العَمَلِ أي: عن الأعمال الدينية فِي البِرِّ وَالعَدْلِ وَالإِحْسَانِ، أي: حال كونك في البرِّ والعدل والإحسان متَّصفة بها فِي مَهْلٍ[2] بفتح الميم وسكون الهاء ويحرّك الرفق والسكينة وههنا بالحركة للوزن وهو في

---

(١) أبو نصر أحمد بن إسحاق الصفار الفقيه؛ من أعلام العربية، عني بالحديث ورواه، من كتبه « المدخل إلى سيبويه»، وهو من بخارا قدم بغداد ثم سكن مكة، ثم تحول الى الطائف؛ وبها توفي بعد سنة: ٤٠٥ هـ.

(٢) من البسيط، و«نفس» مبنيٌّ على الكسر، منادى مضاف إلى ياء التكلم حذفت اكتفاءً بالكسر المبني، وهذا من قصيدة له مطلعها:

العَيْنُ مِنْ زَهَرِ الخَضْرَاءِ فِي شُغُلٍ وَالقَلْبُ مِنْ هَيْبَةِ الرَّحْمَانِ فِي شُغُلِ

محلِّ النصب على أنَّه حال مترادفة من فاعل (لا ترخي) أي: حال كونك في سكينة ورفق، لأنَّ الرفق أصل عظيم في جميع الأشياء كما سبق.

فَكُلُّ ذِي عَمَلٍ فِي الخَيْرِ مُغْتَبِطٌ قوله: (في الخير) متعلِّق بقوله (مغتبط)، قدِّم عليه! الوزن، وهو بفتح الباء أي اسم المفعول من الغبطة وهي: أن يتمنَّىٰ مثل حال المغبوط.. من غير إرادة زوالها عنه. والحسد هو: أن يتمنَّىٰ مثل حال المحسود مع إرادة زوالها عنه؛ وهذا حرام، بخلاف الغبطة، والمعنى: كلُّ ذي عمل مغتبَطٌ متمنًّى حالُه في عمل الخير، يعني يتمنَّى كلُّ شخص أن يكون حاله مثل حاله؛ وينال مثل ما يناله من الأجر والثواب.

وَفِي بَلَاءٍ وَشُؤْمٍ خبر مقدَّم كُلُّ ذِي كَسَلٍ عن العمل، لأنَّه بكسله يترك الأعمال النافعة في العاجل والآجل؛ فيستحقُّ البلاء والشآمة[1] في الدنيا والآخرة.

قَالَ أي: المصنف[2]: وَقَدِ اتَّفَقَ لِي فِي هَذَا المَعْنَى أي: صدر على اتفاقات إثبات هذا المعنى السابق في البيت هذا النظم:

دَعِي نَفْسِي التَّكَاسُلَ وَالتَّوانِي أي: اتركي يا نفسي التكاسل في الأعمال كلِّها

وَإِلَّا أي: وإن لم تتركي التكاسل فَاثْبُتِي فِي ذِي الهَوَانِ. وفي بعض

---

(١) من الشؤم.

(٢) تواضع فغيب نفسه؛ لئلا يقول (قلت!!).

النسخ في (ذا الهوان) على لغة من يجعل إعرابَ الأسماء الستة مقصورا على الألف في الأحوال الثلاثة؛ أي: فاثبتي في العمل ذي الهوان والحقارة، لأنه إذا تكاسل في الأعمال مطلقاً تفوتُ عنه المنافع الدينية والدنيويَّة، فتثبت في الهوان والحقارة.

فَلَمْ أَرَ لِلْكُسَالَى جمع: كسلان الحَظَّ أي: النصيب يُحْظَى. وهذه الجملة الفعلية صفة للحظ المعرَّف بلام الجنس؛ كقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًۢا﴾ [الجمعة: ٥]. والعائد محذوف، يعني: ما رأيت لجماعة الكسالى في الأمور حظّاً تصير تلك الجماعة ذات حَظٍّ به سِوَى نَدَمٍ أي: ندامة بأنَّه لأيِّ شيءٍ يتكاسل ولم يجهد، وَحِرْمَانُ الأَمَانِي[1] جمع: أمنية، وهي المقصودة والمتمنَّى، أي: لم أر للمتكاسلين في الطاعات حظاً ونصيباً سوى الندامة والمحروميَّة عن مقاصده ومراداته.

وَقِيْلَ: كَمْ مِنْ حَيَاءٍ (كم) للخبرية و(من حياء) تمييزٌ، وكذا فيما بعده، وَكَمْ عَجْزٍ وَكَمْ نَدَمٍ

جَمٍّ أي: كثير صفة لما قبله على سبيل البدل تَوَلَّدَ لِلْإِنْسَانِ أي: حصل له مِنْ كَسَلٍ[2].

إيَّاكَ أي: اتق عَنْ كَسَلٍ فِي البَحْثِ عَنْ شُبَهٍ جمع: شبهة

---

(١) من الوافر. ولعل « الأماني» مخففة من إشباع الكسر ياءً!!

(٢) من البسيط.

مَا قَدْ عَلِمْتَ، وَمَا قَدْ شَكَّ مِنْ كَسَلِ قوله: (ما قد عملت) مبتدأ، و(من كسل) خبره أي: الذي قد علمته والذي قد شككت فيه صادر من كسل لا يعتدُّ به.

وَقَدْ قِيْلَ: الكَسَلُ مِنْ قِلَّةِ التَّأَمُّلِ فِي مَنَاقِبِ العِلْمِ وَفَضَائِلِهِ.

الحض على العلم: فَيَنْبَغِي أنْ يَتْعَبَ أي: يشاقَّ ويحرِّك نَفْسَهُ عَلَى التَّحْصِيْلِ وَالجِدِّ وَالمُوَاظَبَةِ؛ بِالتَّأَمُّلِ متعلِّق بـ (يتعب) فِي فَضَائِلِ العِلْمِ، فَإِنَّ العِلْمَ تعليل لقوله (فينبغي) يَبْقَى ببقاء المعلومات بعد فناء صاحبها، وَالمَالُ يَفْنَى[1]؛ لأنَّ الدنيا وما فيها فانٍ.

كَمَا قَالَ أَمِيْرُ المُؤْمِنِيْنَ عَلِيُّ بنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ[2]:

رَضِيْنَا قِسْمَةَ الجَبَّارِ فِيْنَا ... لَنَا عِلْمٌ وَلِلْأَعْدَاءِ مَالُ يعني: قسم الله تعالى بأن أعطى لنا العلم ولأعدائنا المال.

فَإِنَّ المَالَ يَفْنَى عَنْ قَرِيْبٍ ... تعليلٌ لما قبله، ومعناه ظاهر

وَإِنَّ العِلْمَ يَبْقَى لَا يَزَالُ ... خبر بعد خبر مفيد للتأكيد لاتحاد المعنى.

العلم النافع: وَالعِلْمُ النَّافِعُ لا مطلق العلم، إذ من العلوم ما لا ينفع فلا يحصل به ما يحصل من العلم النافع يَحْصُلُ بِهِ حُسْنُ الذِّكْرِ أي: الذكر

---

(١) بل قد قيل: العلم يحرسك، والما ل تحرسه.

(٢) انظر ما قدمناه ص٧٠؛ عن النضر بن شميل المازني من «القاموس» عما نسب إلى سيدنا عليٍّ كرم الله وجهه، والبيتان من الوافر.

الحسن، فإضافته من إضافة الصفة إلى الموصوف وَيَبْقَى ذَلِكَ أي: الذكر الجميل بَعْدَ وَفَاتِهِ أي: وفاة العالم، فَإِنَّهُ أي: بقاء الذكر بعد وفاته حَيَاةٌ أَبَدِيَّةٌ. يحصل به ما يحصل بالحياة الأبديَّة من الذكر الجميل والثناء بخير.

وَأَنْشَدَنَا الشَّيْخُ الإِمَامُ الأَجَلُّ ظَهِيْرُ الدِّيْنِ مُفْتِي الأَئِمَّةِ حَسَنُ بنُ عَلِيٍّ المَعْرُوفُ بِالمَرْغِيْنَانِي رَحِمَهُ الله[1]: شِعْرَاً:

الجَاهِلُونَ فَمَوتَى أي: فهم موتى، والموتى جمع: ميت، والفاء على تقدير: إما في المبتدإ، أو على تضمن المبتدإ معنى الشرط، إذ المبتدأ اللام الاسمي الذي دخل على اسم الفاعل، فهو بمعنى (الذين) فتقديره الذين جهلوا فهم موتى قَبْلَ مَوْتِهِمْ، إذ ليس فيهم معرفة ولا كمال؛ كالجمادات فهم بمنزلة الموتى.

وَالعَالِمُونَ؛ وَإِنْ مَاتُوا؛ فَأَحْيَاءُ أي: فهم أحياء ببقاء ذكرهم الجميل في الدنيا.

موت الأحياء: وَأَنْشَدَنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ[2]:

---

(١) أبو المحاسن، ويعرف بـ«ظهير الدين الكبير»، كان فقيهاً محدِّثاً، له إملاء وتصانيف، تفقَّه على تلامذة السرخسي منهم والد الصدر الشهيد، وتفقَّه عليه صاحب « الظهيرية» و«الخلاصة» وقاضيخان وغيرهم. وهي من نظمه؛ كما في « الطبقات السنية»: ٣/ ٩٥، والبيت من البسيط، وهو يشبه ما يعزى لسيدنا عليٍّ رضي الله عنه:

النَّاسُ مَوْتَى وَأَهْلُ العِلْمِ أَحْيَاءُ.

(٢) من الطويل.

وَفِي الجَهْلِ قَبْلَ المَوْتِ مَوْتٌ لِأَهْلِهِ سَبَق معناه فيما قبله آنفاً فَأَجْسَامُهُمْ قَبْلَ القُبُورِ قُبُورُ أي: قبل دخول القبور في اشتمالها على ما هو بمنزلة الموتى.

وَإِنِ امْرَءاً لَمْ يَحْيَ بِالْعِلْمِ مَيِّتٌ قوله: (لم يحيَ بالعلم) صفة (امرءاً)، أو (ميت) خبر (إن) ومعناه ظاهر وَلَيْسَ لَهُ حِيْنَ النُّشُورِ نُشُورُ أي: ليس له حين الانتباه من الغفلة نشور، أي: حياة قيام من قبورهم الذي هو الأجسام؛ فإذا انتبهوا قاموا من قبورهم وصاروا مثل الأحياء العالمين، فالنشور الأوَّل: بمعنى الانتباه من الغفلة، والثاني: بمعنى النشور المعروف.

وَقَالَ غَيْرُهُ:

أَخُو العِلْمِ أي: مصاحِبُ العلم وملازمه حَيٌّ خَالِدٌ أي: باق بَعْدَ مَوْتِهِ وَأَوْصَالُهُ أي: المفاصل أوجمع (وُصل) بالضمِّ والكسر لكلِّ عظم لايكسر، ولا يخلط بغيره تَحْتَ التُّرَابِ رَمِيْمُ أي: بال.

وَذُو الجَهْلِ مَيْتٌ؛ وَهُوَ يَمْشِي أي: والحال أنَّه يمشي عَلَى الثَّرَى أي: على الأرض يُظَنُّ على صيغة المجهول مِنَ الأَحْيَاءِ وَهُوَ عَدِيْمُ[1] أي: معدوم،

[وَقَالَ آخَرُ:

حَيَاةُ القَلْبِ عِلْمٌ فَاغْتَنِمْهُ وَمَوْتُ القَلْبِ جَهْلٌ فَاجْتَنِبْهُ][2]

---

(١) من الطويل. والرميم: البالي، الثرى: التراب. الأوصال: الأعضاء. وهي خاصة فيما لا يكسر.

(٢) من الوافر، وهذا البيت غير موجود في نسخة الشرح!

أعلى الرتب: وَأَنْشَدَنَا [الشَّيْخُ الأُسْتَاذُ] شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ رَحِمَهُ الله[1]: أي: قرأ علينا هذا الشعر

إِذِ العِلْمِ أَعْلَى رُتْبَةً فِي المَرَاتِبِ (إذ) منصوب بفعل مقدَّر نحو: اذكر وقت كون العلم أعلى مرتبة بين المراتب

وَمِنْ دُوْنِهُ عِزُّ العُلَا فِي المَوَاكِبِ[2] جمع: موكب، وهو الجماعة ركبانا أو مشاة أي: كائن من دون عزِّ العلم عزُّ العلوِّ الحاصل في الجماعات الكثيرة، لأنَّ العزَّة الحاصلة في المجامع زائلة وعزَّة العلم باقية ببقاء العلم

فَذُو العِلْمِ يَبْقَىٰ عِزُّهُ مُتَضَاعِفَاً أي: ذو العلم يبقى عزُّه بعد موته حال كون العِزَّة متضاعفة من جهة الذكر بالجميل في الدنيا والدرجات العظمى في الآخرة.

وَذُو الجَهْلِ بَعْدَ المَوْتِ تَحْتَ التَّيَارِبِ[3] جمع: تيرب وهو بمعنى: التراب قال في «القاموس»: التُّرب والتراب والتربة والترباء والتيرب والتوارب والتريب معروف، وجمع التراب: أتربة وتربان. ولم يسمع لسائرها جمع، يعني: الجاهل بعد الموت خالصُ التيارب لا يشوبُه شيءٌ من العزِّ والعلى؛

---

(١) من الطويل.

(٢) والمعنى: عز مواكب الأمراء أحط من عز مراتب العلماء.

(٣) والتيارب: جمع تيرب: التراب ولكنه لا يعرف! وإنما المعروف من جمعها: أتربة، و: تربان، والكتائب ـ بعدها ـ: الجيوش والجنود، جمع: كتيبة.

كما في العلم. فَهَيْهَاتَ لَا يَرْجُو مَدَاهُ أي: غاية عزِّ العلم، وفاعل (لا يرجو) مَنِ ارْتَقَى أي: ارتفع وصعد

رُقِيَّ وَلِيِّ الْمُلْكِ (الرُّقِيَّ) بضم الراء وكسر القاف وتشديد الياء مصدر على وزن الدخول إذ أصله: رَقْوَىٰ بمعنى الصعود؛ مضاف إلى فاعله يعني: هيهات، لا يرجو غاية عزِّ العلم مَن وصل إلى عزَّة صاحب الملك وَالِي الكَتَائِبِ جمع: كتيبة؛ وهي العسكر، وجملة (لا يرجو) بصيغة إخبار ومعناه أنشاه.

سَأُمْلِي أي: سأكتب عَلَيْكُمْ بَعْضَ مَا فِيْهِ أي: في العلم من المناقب فَاسْمَعُوا.

فَفِيْ أي: فحاصل في (فيَّ) وهو خبر مقدَّم لغيره حَصْرٌ: ضيق وعِيٌّ عَنْ ذِكْرِ كُلِّ المَنَاقِبِ[1] لكثرتها.

هُوَ النُّورُ ابتدأ بذكر بعض المناقب الذي وعده أي: العلم هو النور يستضاء به عن ظلمة الجهل كُلُّ النُّورِ تأكيد يَهْدِي عَنِ العَمَى. وهذه الجملة خبرٌ بعد خبر، وتعدية (يهدي) بـ (عن) على تضمين معنى الانحناء، أي: يهدي حالَ كونه مُنَحِّياً عن عمى الجهل والضلال.

وَذُو الجَهْلِ مَرَّ الدَّهْرِ نصب على الظرفية أي: في مرور الدهر والزمان بَيْنَ الغَيَاهِبِ جمع: غهيب وهو الظلمة الشديدة، يعني: بين ظلمات الجهل، وليس ظلمةٌ أشدَّ منها هُوَ الذِّرْوَةُ الشَّمَّاءُ الضمير راجع على العلم، وفي

---

(١) الحصر: الانقطاع عن الكلام والضيق.

بعض النسخ: (هي) وتأنيثه؟ باعتبار الخبر، و(الذَّروة) بفتح الذال وكسرها: الأعلى من كلِّ شيءٍ، و(الشَّمَّاء) بفتح الشين المعجمة وتشديد الميم تأنيث أشمُّ؛ وهو المرتفع، والمعنى هو الجبل وإطلاق الذروة على العلم استعارةٌ، والجامع هو الحماية لمن التجأ، فكما أنَّ الذِّروة تَحْمِي مَنِ الْتَجَأَ إِلَيْهَا.. كذلك العلم يحمي ويحفظ عن كلِّ مكروه مَن التجأ إليه كما ينبئ عن هذا قوله (تحمي)؛ أي: تحفظ مَن التجأ إليها أي: الذروة العليا وَيَمْشِي آمِنَاً أي: يصير آمناً فِي النَّوَائِبِ أي: في الشدائد.

بِهِ أي: بالعلم يُنَجَّىٰ أي: يتخلَّص عن عذاب الآخرة.. وَالنَّاسُ فِي غَفَلَاتِهِمْ الواو للحال؛ أي: والحال أنَّ الناس في غفلاتهم جمع: غفلة

بِهِ يُرْتَجَىٰ أي: بالعلم يرجى الأمن من عذاب النيران.. وَالرُّوحُ بَيْنَ التَّرَائِبِ الترائب: عظام الصدر أي: والحال أنَّ الروح بين عظام الصدر في حال النزع من البدن.

بِهِ يَشْفَعُ الإِنْسَانُ مَنْ رَاحَ عَاصِيَاً أي: ذهب حال كونه عاصياً إِلَى دَرَكِ النِيْرَانِ متعلِّق بـ (راح) و(الدرك) جمع دركة؛ وهي: طبقة جهنم شَرِّ العَوَاقِبِ بالجرِّ صفة النيران، والعواقب جمع: عاقبة أي: الشفاعة ثابتة للعلماء في حقِّ العصاة بإذن الله تعالى بسبب العلم الشريف.

فَمَنْ رَامَهُ أي: فمن طلب العلم رَامَ المَآرِبَ كُلَّهَا أي: طلب المطالب كلَّها، لأنه مطلب يندرج جمع مطالب الدنيا والآخرة في ضمنه.

وَمَنْ حَازَهَ أي: أحاطه وجمعه قَدْ حَازَ كُلَّ المَطَالِبِ[1] بعضها في الدنيا؛ وبعضها في الآخرة.

هُوَ المَنْصِبُ العَالِي فَيَا صَاحِبَ الحِجَا أي: العقل

إذَا نِلْتَهُ أي: إذا أصبته هَوِّنْ بِفَوْتِ المَنَاصِبِ[2] أي: اتخذ هيِّناً فوتَ المناصب، لأنَّك إذا حصَّلت المنصب العالي.. فلا يضرُّ فوت سائر المناصب.

فَإنْ فَاتَكَ الدُّنْيَا وَطِيْبُ نَعِيْمِهَا أي: إن لم تملك الدنيا وطيبَ نعيمها.. فَغَمِّضْ أنت عَيْنَيْكَ، وتغميض العينين كناية عن عدم الالتفات؛ فَإنَّ العِلْمَ خَيْرُ المَوَاهِبِ جمع: موهبة؛ وهي العطيَّة، فإذا حصَّلتَه لا ينبغي لك أن تضطرب من فوت نعيم الدنيا، لأنَّ خير المواهب في يدك.

وَأُنْشِدْتُ لِبَعْضِهِمْ:

إذَا مَا اعْتَزَّ ذُو عِلْمٍ بِعِلْمٍ كلمة (ما) في (إذا ما) زائدة كما مرَّ غير مرَّةٍ أي: إذا صار ذو علم عزيزاً بعلم.. فَعِلْمُ الفِقْهِ أَوْلَى بِاعْتِزَازِ، لأنَّه مبيِّن الأحكام والشرائع، فشرف العلم وعزُّه بسبب شرف معلومه وعزَّتِه.

فَكَمْ طِيْبٍ يَفُوحُ؛ أي: ينتشر رائحته.. وَلَا كَمِسْكٍ! يعني: رائحة المسك أعزُّ وأطيب من سائره.

---

(١) رامه: قصده. المآرب: المطالب. حازه: ناله.

(٢) الحجا: العقل: والمعنى: إذا نلت المنصب العالي بالعلم.. فليكن هيناً عليك فوت غيره، وهو مضمون ما بعده.

وَكَمْ طَيْرٍ يَطِيْرُ؛ وَلَا كَبَازِ[1]! أي: الباز أشدُّ طيراناً من سائر الطيور.. فكذلك علم الفقه أعزُّ سائر العلوم.

وَأُنْشِدْتُ أَيْضَاً بصيغة المتكلِّم المبنيَّة للمفعول كما مرَّ مراراً أي: قرأ على هذا الشعر لِبَعْضِهِمْ:

الفِقْهُ أَنْفَسُ شَيْءٍ أي: أعزُّه أَنْتَ ذَاخِرُهُ أي: جامعه.

مَنْ يَدْرُسِ العِلْمَ أي: من يقرأ العلم لَمْ تُدْرَسْ مَفَاخِرُهُ[2] أي: لم تَعْفُ ولم تَزُلْ مادام قارئ العلم ودارسَه؛ من درس دروساً: إذا عفا وهو من الباب الأوَّل[3] لازم ومتعدٍّ.

فَاجْهَدْ لِنَفْسِكَ مَا أَصْبَحْتَ تَجْهَلُهُ أي: فاجهد وحصِّل لنفسك ما صرت تجهله فَأَوَّلُ العِلْمِ إِقْبَالٌ أي: سعادة وَآخِرُهُ أيضاً إقبال.

داعية التحصيل: وَكَفَى بِلَذَّةِ العِلْمِ (الباء) زائدة نحو ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾

---

(١) من الوافر. والبازي: ملك الطيور، وهو أنشط الصقور حركة وأشدُّها شآمة واعتزازاً، وأغلاه الأشهب. يفوح: تنشر رائحته.

ومفاد البيتين: أن نسبة الفقه إلى بقية العلوم كنسبة المسك إلى أنواع الطيب، والباز إلى سائر الطيور.

(٢) من البسيط، أنفس: أغلى وأعز. ذاخره: ما يجعله ذخيرة يتسلح به، يدرس: يتعلم. تدرس: تنمحي. وأول العلم: إقبال سعادة في الدنيا من العز والجاه، وآخره: إقبال سعادة الآخر بالرضا والسرور.

(٣) فتح ضمٍّ: فتح عينه في الماضي، وضمُّ عينه في المضارع.

أي: كفى لذة العلم وَالفِقْهِ من عطف الخاصِّ على العام تشريفاً وتعظيماً للخاصِّ، وَالفَهْمِ دَاعِياً وَبَاعِثاً لِلْعَاقِلِ عَلَى تَحْصِيْلِ العِلْمِ، وَقَدْ يَتَوَلَّدُ أي: يحصل الكَسَلُ مِنْ كَثْرَةِ البَلْغَمِ وَالرُّطُوبَاتِ الحاصلة في البدن من كثرة الرطوبات، وَطَرِيْقُ تَقْلِيْلِهِ تَقْلِيْلُ الطَّعَامِ.

عوارض النسيان: قِيْلَ: اتَّفَقَ سَبْعُونَ نَبِيّاً عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى أَنَّ أَكْثَرَ النِّسْيَانِ[1] مِنْ كَثْرَةِ البَلْغَمِ، وَكَثْرَةُ البَلْغَمِ مِنْ كَثْرَةِ شُرْبِ المَاءِ، وَكَثْرَةُ شُرْبِ المَاءِ مِنْ كَثْرَةِ الأَكْلِ.

وَالخُبْزُ اليَابِسُ يَقْطَعُ البَلْغَمَ لأَنَّه ليبوسته لا تتولَّد منه الرطوبة، بل إذا اقترن بالرطوبة يقلِّل الرطوبة، وَكَذَا أَكْلُ الزَّبِيْبِ عَلَى الرِّيْقِ[2]، أي: على الجوع يَقْطَعُ البَلْغَمَ لما فيه من الحرارة، وَلَا يُكْثِرُ مِنْهُ أي: من أكل الزبيب حَتَّى لَا يَحْتَاجَ إِلَى شُرْبِ المَاءِ فَيَزِيْدَ البَلْغَمُ -بالنصب معطوف على (يحتاج)- أي: فإن شرب الماء يزيد البلغم، لأنَّ البلغم متولِّد من الماء والأشياءِ التي فيها رطوبة.

من فوائد السواك: وَالسِّوَاكُ أي: استعماله يُقَلِّلُ البَلْغَمَ، وَيَزِيْدُ فِي الحِفْظِ

---

(١) سيعقد المؤلف رحمه الله فصلاً فيما يورث النسيان ص١٨٠.

(٢) أخرج أبو نعيم في «الطب النبوي»؛ عن عليٍّ رضي الله عنه مرفوعاً: «عَلَيكُمْ بِالزَّبِيْبِ؛ فَإِنَّه يَكْشِفُ المِرَّةَ، وَيَذْهَبُ بِالبَلْغَمِ، وَيَشُدُّ العَصَبَ، وَيُذْهِبُ الإِقْيَاءَ، وَيُحَسِّنُ الخُلُقَ، وَيُطِيْبُ النَّفْسَ، وَيَذْهَبُ بِالهَمِّ».

وَالفَصَاحَةِ في المنطق، فَإِنَّهُ سُنَّةٌ سَنِيَّةٌ، أي: رفيعة مرضية يَزِيْدُ فِي ثَوَابِ الصَّلَاةِ[1]، وَقِرَاءَةِ القُرْآنِ، لما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: «صَلَاةٌ عَلَى إِثْرِ السِّوَاكِ أَفْضَلُ مِنْ خَمْسٍ وَسَبْعِيْنَ صَلَاةً بِغَيْرِ سِوَاكٍ».

وَكَذَلِكَ القَيْءُ يُقَلِّلُ البَلْغَمَ وَالرُّطُوبَاتِ.

تقليل الأكل: وَطَرِيْقُ تَقْلِيْلِ الأَكْلِ ١ ـ التَّأَمُّلُ فِي مَنَافِعِ قِلَّةِ الأَكْلِ، وَهِيَ أي: تلك المنافع الصِّحَّةُ أي: صحَّة البدن، لما أنَّ أكثر الأمراض تحصل من كثرة الطعام، وَالعِفَّةُ أي: التورُّع عن الحرام، لقلَّة الشهوة الحاصلة من كثرة الأكل، وَالإِيْثَارُ، أي: إيثار الغير واختياره على الطعام والتصدُّق عليه، وذلك إنَّما يحصل غالباً إذا أكل الطعام قليلاً وتصدَّق بالباقي وَقِيْلَ فِيْهِ أي: في ذمِّ كثرة الأكل:

فَعَارٌ ثُمَّ عَارٌ ثُمَّ عَارٌ خبر مقدَّم لقوله:

شَقَاءُ المَرْءِ مِنْ أَجْلِ الطَّعَامِ[2] أي: كون الرجل شقيًّاً من أجل الطعام المؤدِّي إلى كثرة الشهوة المفضية إلى ارتكاب المعاصي.

---

(١) في الحديث الشريف «فَضْلُ الصَّلَاةِ بِالسِّوَاكِ عَلَىٰ الصَّلَاةِ بِغَيْرِ سِوَاكٍ سَبْعِيْنَ ضِعْفَاً». أخرجه أحمد: ٦/ ٢٧٢. وللحاكم: ١/ ١٤٦ وصحَّحه على شرط مسلم، والبيهقي: ١/ ٣٨؛ «صَلَاةٌ بِسِوَاكٍ أَفْضَلُ مِنْ سَبْعِيْنَ صَلَاةٍ بِلَا سِوَاكٍ»؛ عن عائشة وغيرها. وفضائله معروفة. انظر ما في كتاب «منتهى السول» للَّحْجي شرح «وسائل الوصول» للنبهاني، نشر بتحقيقنا بمكة المكرمة عن مؤسسة «طوق النجاة»؛ ثم «دار المنهاج» بجدة.

(٢) البيت من الوافر. وقد مر (ص١٠٧) عن ذي القرنين أن جعل ذلك أيضاً عاراً من أجل ملك الدنيا؛ فكيف بالطعام!؟

المبغضون: وَعَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « ثَلَاثَةٌ أي: ثلاثة نفر يُبْغِضُهُمُ اللهُ تَعَالَى مِنْ غَيْرِ جُرْمٍ من الإجرام، بل باتصافهم بالصفات التي يأتي ذكرها: ١-الأَكُولُ أي: الأوَّل الذي يأكل كثيراً، وَ ٢-البَخِيْلُ أي: البخيل عن الصدقات والنوافل، وَ ٣-المُتَكَبِّرُ»[1] لأنَّ التكبُّر صفة مخصوصة بذات الله تعالى، فمن أراد أن يشاركه فيها يبغضه الله تعالى.

التأمُّل بالمضارِّ: ٢ ـوَالتَّأَمُّلُ بالرفع عطف على قوله: (التأمُّلُ في منافع الأكل) أي: وطريق تقليل الأكل التأمُّلِ فِي مَضَارِّ كَثْرَةِ الأَكْلِ؛ وَهِيَ الأَمْرَاضُ، وَكَلَالَةُ الطَّبْعِ أي: ملالة الطبع وكسله عن ملاحظة المعارف.

قِيْلَ: البِطْنَةُ بكسر الباء؛ أي: امتلاء البطن بالطعام تُذْهِبُ الفِطْنَةَ أي: الذكاء وتمنعه.

حُكِيَ عَنْ جَالِيْنُوسَ[2] أَنَّهُ قَالَ: الرُّمَّانُ نَفْعٌ كُلُّهُ أي: كلُّ أجزاء الرمان نافع، وَالسَّمَكُ ضَرَرٌ كُلُّهُ. وَ مع هذا قيل: قَلِيْلُ السَّمَكِ خَيْرٌ مِنْ كَثِيْرِ الرُّمَّانِ[3].

---

(١) يصلح شاهداً له ما أخرجه الطبراني في « الأوسط»: ٤٤٤١؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: « ثَلَاثَةٌ يُبْغِضُهُمُ الله: مَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ، وَغَنِيٌّ مُسْتَكْبِرٌ».

(٢) من مشاهير الطب والحكمة اليونانيين، كان جليساً للملوك مقرباً لديهم، شرح كتب بقراط (أبي الطب القديم)، وله مصنفات كثيرة. ومات وثنياً حوالي مئتين للميلاد.

(٣) يعني أن الإكثار من كل شيء قبيح. وقد وصف الله تعالى الإكثار من المباح باللهو أياً ما كان ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ﴾، ولكن أمر بالازدياد من العلم والدعاء به لأعظم خلقه وأكرم أحبابه ﷺ ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾.

وَفِيْهِ أي: والحال أنَّ فيه إِتْلَافُ[1] المَالِ.

كثرة الطعام: وَالأَكْلُ فَوْقَ الشَّبَعِ ضَرَرٌ مَحْضٌ يفسد البدن ويمرضه، وَيَسْتَحِقُّ بِهِ أي: بالأكل فوق الشبع العِقَابَ فِي الدَّارِ الآخِرَةِ يعني: لأنَّه حرام، وَالأَكُولُ أي: المبالغ في الأكل بَغِيْضٌ أي: مبغوضٌ في القلوب[2].

طريق التقليل: وَطَرِيْقُ تَقْلِيْلِ الأَكْلِ ٣ ـ أَنْ يَأْكُلَ الأَطْعِمَةَ الدَّسِمَةَ أي: التي لها دسامة وسمن وَيُقَدِّمَ بالنصب على (أن يأكل) فِي الأَكْلِ الأَلْطَفَ الذي له زيادة لطافة، وَالأَشْهَى أي: الذي هو أشدُّ اشتهاء من سائر الأطعمة، وَلَا يَأْكُلَ بالنصب عطف على ما قبله مَعَ الجِيْعَانِ جمع: جائع؛ إِلَّا إِذَا كَانَ لَهُ غَرَضٌ صَحِيْحٌ استثناءٌ منقطع من قوله: (والأكل فوق الشبع ضررٌ محضٌ) تقديره: والأكل فوق الشبع ضررٌ لكن إذا كان له غرضٌ صحيحٌ فِي كَثْرَةِ الأَكْلِ، بِأَنْ يَتَقَوَّى بِهِ أي: بالأكل فوق الشبع، لأنَّ تفويته للعبادات كانت سبباً لارتفاع حرمته، فبهذا الغرض الصحيح حلَّ له ذلك عَلَى الصِيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالأَعْمَالِ الشَّاقَّةِ؛ فَلَهُ ذَلِكَ.

---

(١) حقُّها بعد عبارة الشرح: إتلافَ. فتنبَّه.

(٢) ما لم يكن كأبي ثور عمرو بن معدي كرب حيث قال له سيدنا عمر رضي الله عنه: ... ضرباً أبا ثور فإنك غدا بألف!! وفي المثل: أكلُ الرجال على قدر أفعالها.

الفصل السادس

فِي بِدَايَةِ السَّبْقِ أي: في بيان ابتداء السبق من الأستاذ،
وَقَدْرِهِ أي: مقدار السبق، وَتَرْتِيْبِهِ أي: ترتيب السبق.

يوم الأربعاء: كَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ رَحِمَهُ الله يُوقِفُ أي: كان عادته أن يوقف بِدَايَةَ[1] السَّبْقِ أي: في بدايته عَلَى يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ، وَكَانَ أي: الأستاذ يَرْوِي فِي ذَلِكَ أي: في ابتداء السبق يوم الأربعاء حَدِيْثَاً، وَيَسْتَدِلُّ بِهِ، وَيَقُولُ: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «مَا مِنْ شَيْءٍ بُدِئَ على صيغة المجهول فِي يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ إِلَّا وَقَدْ تَمَّ»[2] الواو في (وقد تمَّ) للحال من شيء

---

(١) البُداءة: الابتداء.

(٢) تكلَّم فيه بعض أهل الحديث! فقال السخاويُّ في «المقاصد الحسنة»: لم أقف له على أصل! ويعارضه حديث جابر مرفوعاً: «يومُ الأربعاءِ يومُ نحسٍ مستمرٌ» رواه الطبراني في «الأوسط»: ٦٤٢٢ وهو ضعيف. انتهى. وتعقَّبه الملا على القاري في «الأسرار المرفوعة»: إن معناه كان يوماً نحساً مستمراً على الكفار فمفهومه أنه سعد مستقرٌّ على الأبرار... وقد قال العسقلاني: بلغني عن بعض الصالحين ممن لقيناه أنه اشتكت الأربعاء الى الله تشاؤم الناس بها، فمنحها أنه ما ابتدئ بشيء فيها إلا تمَّ. انتهى.
قال اللكنوي في «الفوائد البهية»: قد استخرجت لذلك أصلاً آخر لطيفاً، وهو ما أخرجه البخاري في «الأدب»، وأحمد، والبزار؛ عن جابر: دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا المسجد (مسجد الفتح)... فاستجيب له... من الأربعاء. قال جابر: ولم ينزل بي أمر مهم إلَّا توخيت تلك الساعة فدعوت الله فيه ـ بين ـ الصلاتين يوم الأربعاء في تلك الساعة =

وهو موصوف تقديره: ما من شيءٍ بدىء يوم الأربعاء في حال من الأحوال إلَّا حال تحقُّق تماميَّته.

وَهَكَذَا كَانَ يَفْعَلُ أَبُو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ الله وَكَانَ يَرْوِي هَذَا الحَدِيْثَ المذكور آنفاً عَنْ أُسْتَاذِهِ الشَّيْخِ الإمَامِ الأَجَلِّ قَوَامِ الدِّيْنِ أَحْمَدَ بنِ عَبْدِ الرَّشِيْدِ رَحِمَهُ الله[1].

وَسَمِعْتُ مِمَّنْ أَثِقُ أي: اعتمد بِهِ أَنَّ الشَّيْخَ يُوسُفَ الهَمَدَانِيَّ رَحِمَهُ الله[2] كَانَ يُوقِفُ أي: يجعل موقوفاً كُلَّ عَمَلٍ مِنْ أَعْمَالِ الخَيْرِ عَلَى يَوْمِ الأَرْبِعَاءِ.

إلا عرفت الإجابة. قال السيوطي: إسناده جيد.

وقال السمهودي في « وفاء الوفا»: فاستفيد من هذا الحديث أنَّ في الأربعاء ساعةً يجاب فيها الدعاء، فمِن ثَمَّ استحبُّوا أن يُبتدأ السبق فيها، إذا المبتديء بشيء لا يخلوا غالباً عن دعاء لتيسُّر الاختتام وتعجُّل الإتمام؛ فيجاب دعاؤه في ذلك اليوم.. فيتمُّ!!.

قال ابن عرَّاق في « تنزيه الشريعة»: والأولى أن يلحظ في ذلك ما في «الصحيح» أنَّ الله خلق النور يوم الأربعاء، والعلم نور فيقال لتمامه ببدايته؛ إذ يأبى الله إلا أن يتم نوره. (من «الفوائد» وهامشه ١٤٣-١٤٤ بتصرف).

قلت: وفي بعض الروايات أنه (خلق النون يوم الأربعاء) بدل « النور»! فربما كان المراد بالنون: الدواة فيكون يوم الأربعاء للعلم...! على أنه ورد في بعض الآثار أن يوم الاثنين يوم خلق العلم. والله تعالى أعلم.

(١) البخاري، أخذ العلم عن أبيه، وتفقه عليه ابنه (صاحب الخلاصة) وشرح « الجامع الصغير»، وهو من مجتهدي المسائل التي لا رواية فيها عن صاحب المذهب.

(٢) أبو يعقوب يوسف بن أيوب الهمداني، محدِّث رحَّالة وصوفي شهير، أخذ عنه كثيرٌ؛ منهم (ركن الإسلام إمام زاده؛ صاحب « شرعة الإسلام») المتوفى سنة: ٥٣٥ هـ.

بركة اليوم: وَهَذَا أي: التوقيفُ ثابت، لِأَنَّ يَوْمَ الأَرْبِعَاءِ يَوْمٌ خُلِقَ فِيْهِ النُّورُ فاليوم الذي خلق فيه النور مباركٌ أيضاً يتفاءل به ازدياد نور العالم، وَهُوَ يَوْمُ نَحِسٍ أي: غير مبارك فِي حَقِّ الكُفَّارِ؛ لأَنَّه رُوي أنَّ الله تعالى ما خسف بقومٍ من الكفَّار؛ ولا مسخ قوماً منهم.. إلَّا لآخر يوم الأربعاء من كلِّ شهر؛ فَيَكُونُ مُبَارَكاً لِلْمُؤْمِنِيْنَ[1].

تحضير الدرس: وَأَمَّا قَدْرُ السَّبْقِ أي: مقداره فِي الابْتِدَاءِ أي: في ابتداء التعلُّم، قوله: وأمَّا (قدرُ) مبتدأ خبره ما فهم من هذه الحكاية. فَكَانَ أَبُو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ الله يَحْكِي عَنِ الشَّيْخِ القَاضِي الإمَامِ عُمَرَ ابنَ الإمَامِ بَكْرٍ الزَّرَنْجَرِيِّ رَحِمَهُ الله[2] أَنَّهُ قَالَ: قَالَ مَشَايِخُنَا رَحِمَهُمُ الله تَعَالَى: يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ قَدْرُ السَّبْقِ لِلْمُبْتَدِيء قَدْرَ مَا يُمْكِنُ ضَبْطُهُ أي: حفظه وتعلُّمه بِالإعَادَةِ أي: بإعادة السبق مَرَّتَيْنِ، وذلك لا يأتي في السبق الكثير[3].

التوسع بالمدارسة: وَيَزِيْدُ كُلَّ يَوْمٍ كَلِمَةً حَتَّى إنَّهُ وَإِنْ طَالَ (إن) للوصل وَكَثُرَ أي: السبق.. يُمْكِنُ ضَبْطُهُ بِالإعَادَةِ مَرَّتَيْنِ. وَيَزِيْدُ بِالرِّفْقِ وَالتَّدْرِيْجِ..

---

(١) انظر التعليق على الحديث المتقدم قبل قليل « مَا مِنْ شَيْءٍ...».

(٢) عماد الدين عمر بن بكر يعرف بـ « نعمان وقته». انتهت إليه رئاسة الحنفية في عصره. تفقه على والده ـ وهو آخر من روى عنه ـ وعلى الكردري والمحبوبي. توفي سنة: ٥٨٤هـ؛ عن نحو ٩٠ سنة.

(٣) ربما لأنه أدنى التكرار للتمكن، ولعل اقتباسه من الإسفار المسنون في الفجر وهو إلى حدٍّ يمكنه الإعادة مرَّة أخرى قبل الشروق بالطهارة.. لو فسدت.

لا دفعة؛ ليسهل تعلُّمه وحفظه ، فَأَمَّا إِذَا طَالَ السَّبْقُ فِي الابْتِدَاءِ وَاحْتَاجَ إِلَى الإِعَادَةِ عَشْرَ مَرَّاتٍ.. فَهُوَأي: المتعلِّم فِي الانْتِهَاءِ أيضاًكما في الابتداء.. يَكُونُ كَذَلِكَأي: يحتاج إلى الإعادة الكثيرة، لِأَنَّهُ يَعْتَادُ ذَلِكَ، وَلَا يَتْرُكُ تِلْكَ العَادَةِ إِلَّا بِجُهْدٍ كَثِيْرٍ، وَقَدْ قِيْلَ: السَّبْقُ حَرْفٌوهذا كناية عن القلَّة ، وَالتَّكْرَارُ أَلْفٌوهذا كناية عن الكثرة، ففُهِم من هذا أنَّ اللازم للمتعلِّم التكرير دون التكثير.

تسهيل البدء: وَيَنْبَغِي أَنْ يَبْتَدِىَء بِشَيْءٍ من العلوم يَكُونُ أَقْرَبَ إِلَى فَهْمِهِويسهل تعلُّمه من غير تعب ومشقَّة.

وَكَانَ الشَّيْخُ الإِمَامُ الأُسْتَاذُ شَرَفُ الدِّيْنِ العَقِيْلِيُّ رَحِمَهُ الله[1] يَقُولُأي: عادته أن يقول: الصَّوَابُ عِنْدِي فِي هَذَاأي: في تعيين السبق الذي ابتدىء أوَّل مرَّة مَا فَعَلَهُ مَشَايِخُنَا رَحِمَهُمُ اللهقوله: (الصواب عندي) مبتدأ خبره (ما فعله) ، فَإِنَّهُم كَانُوا يَخْتَارُونَ لِلْمُبْتَدِيءِ صِغَارَاتِ المَبْسُوطَةِ[2] أي: الكتب الصغيرة الحجم، والقطعة من المبسوطة؛ لِأَنَّهُأي: اختيارها أَقْرَبُ إِلَى الفَهْمِ

---

(١) شرف الدين أبو حفص عمر بن محمد العقيلي الأنصاري البخاري، من أعيان الحنفية في الفروع والأصول والخلاف والحديث. قدم بغداد حاجّاً ثم رجع فحدَّث بها، له تصانيف منها « المنهاج». توفي ببخارا سنة: ٥٩٤هـ. وهو مترجم في « طبقات الفقهاء» لابن الحنَّائي بتحقيقنا.

(٢) الكتب المبسَّطة الخفيفة ليتمرَّس الطالب شيئاً فشيئاً على صلته بالكتاب، ثم يتدرَّج في التعمُّق.

من المطوَّلات وَالضَّبْطِ، وَأَبْعَدُ عَنِ المَلَالَةِ بكثرة مسائله، وَأَكْثَرُ وُقُوعَاً مسائله بين الناس.

تمكن التلقي: وَيَنْبَغِي أَنْ يُعَلِّقَ[1] أي: المتعلِّم السَّبْقَ التعليق: عبارة عن الكتابة، يعني: كانوا في الزمان الأوَّل يحفظون السبق من الأستاذ، ثمَّ يكتبونه ويسمُّونه تعليقاً بَعْدَ الضَّبْطِ وَالإعَادَةِ كَثِيْرَاً، فَإِنَّهُ التعليقَ نَافِعٌ جِدَّاً أي: قطعاً، وَلَا يَكْتُبُ المُتَعَلِّمُ شَيْئَاً لَا يَفْهَمُهُ. هذه الجملة صفة (شيئاً)، فَإِنَّهُ يُوْرِثُ أي: يعطي كَلَالَةَ الطَّبْعِ أي: إعياء الطبع، وَيُذْهِبُ الفِطْنَةَ أي: الذكاء، وَيُضِيْعُ أَوْقَاتَهُ، لأنَّه بسعى بما لا فائدة فيه؛ فيكون عبثاً ويضيع الأوقات.

التأمل للفهم: وَيَنْبَغِي أَنْ يَجْتَهِدَ فِي الفَهْمِ مِنَ الأُسْتَاذِ متعلِّق بـ(الفهم)، أَوْ بِالتَّأَمُّلِ في ما قاله الأستاذ وَالتَّفَكُّرِ وَكَثْرَةِ التَّكْرَارِ، فَإِنَّهُ أي: الشأن إذَا قَلَّ السَّبْقُ وَكَثُرَ التَّكْرَارُ وَالتَّأَمُّلُ يُدْرِكُ أي: السبق وَيَفْهَمُ.

فَقَدْ قِيْلَ: حِفْظُ حَرْفَيْنِ أي: كلمتين خَيْرٌ مِنْ سَمَاعِ وِقْرَيْنِ[2] الوِقْر بكسر الواو وسكون القاف: الحِمْل، أي: حفظ كلمتين خيرٌ من سَمَاع حِمْلين من غير حفظ، وَفَهْمُ حَرْفَيْنِ خَيْرٌ مِنْ حِفْظِ وِقْرَيْنِ، فعُلِم الفرق بين السماع والحفظ والفهم فرقاً بيِّناً.

---

(١) أي: يدوِّنُه ويكتبه، لأنَّ إعمال اليد والنظر مع الفهم والسمع أدعىٰ الى التمكُّن والتثبيت.

(٢) الوقر: الحمل الثقيل. وربما قرن بالبعير.

تحري الفهم: وَإِذَا تَهَاوَنَ أي: تكاسل فِي الفَهْمِ وَلَمْ يَجْتَهِدْ بيان للتكاسل مَرَّةً؛ أوْ مَرَّتَيْنِ يَعْتَادُ ذَلِكَ أي:عدم الفهم، فَلَا يَفْهَمُ الكَلَامَ اليَسِيْرَ فهمَه وإدراكَه لاعتياد الطبيعة بعدم الفهم.

فَيَنْبَغِي أنْ لَا يَتَهَاوَنَ فِي الفَهْمِ؛ بَلْ يَجْتَهِدُ، وَيَدْعُو الله تعالى، وَيَتَضَرَّعُ إلَيْهِ، فَإِنَّهُ أي: الله تعالى يُجِيْبُ مَنْ دَعَاهُ، لأنَّه قال في محكم كتابه ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[غافر: ٦٠] وَلَا يَخِيْبُ أي: لايجعل ميؤساً مَنْ رَجَاهُ أي: مَن رجا منه رحمته وعفوه.

توصية لطالب: أَنْشَدَنَا الشَّيْخُ الإمَامُ الأجَلُّ قَوَامُ الدِّيْنِ حَمَّادُ بنُ إبْرَاهِيْمَ بنِ إسْمَاعِيْلَ الصَّفَّارُ رَحِمَهُ الله الأنصاريُّ أي: قرأ علينا إمْلَاءً أي: شعراً لِلْقَاضِي الخَلِيْلِ بنِ أحْمَدَ السِّجْزِيِّ[1] وفي بعض النسخ (السرخسي) شعراً فِي ذَلِكَ:

أُخْدُمِ العِلْمَ خِدْمَةَ المُسْتَفِيْدِ أي: داومه وجاهد في دوامه كمجاهدة المستفيد من العلم الذائق لذَّته، وَأَدِمْ من الإدامة دَرْسَهُ بِفِعْلٍ حَمِيْدٍ أي: بفعل محمود؛ وهو الحفظ والتكرار.

---

(١) أبو سعيد الخليل بن أحمد السِّجْزي، قاض فقيهٌ محدِّث، من أعلام الحنفية الأدباء والواعظين، رحل في طلب الحديث مع ابن خزيمة وروى عنه، وله شعر، توفي بسمرقند قاضياً سنة: ٣٨٣هـ. وممن رثاه أبو بكر الخوارزميُّ بقوله:

وَلَمَّا رَأَيْنَا النَّاسَ حَيْرَى لِهَدَّةً ... بَدَتْ بِأَسَاسِ الدِّيْنِ بَعْدَ تَأَطُّدِ

أَفَضْنَا دُمُوعَاً بِالدِّمَاءِ مَشُوبَةً ... وَقُلْنَا: لَقَدْ مَاتَ الخَلِيْلُ بنُ أحْمَدِ

وَإِذَا مَا حَفِظْتَ شَيْئَاً أَعِدْهُ كلمة (ما) في (إذا ما) زائدة، أي: إذا حفظت شيئاً من العلوم أعده وكرِّره ثُمَّ أَكِّدْهُ أمرٌ من التأكيد أي: أكِّد وقرِّر ما حفظتَه غَايَةَ التَّأْكِيْدِ كي لا يزول عن خاطرك.

ثُمَّ عَلِّقْهُ أمرٌ من التعليق، أي: اكتبه كَيْ تَعُودَ إِلَيْهِ أي: كي ترجع إليه، وَإِلَى دَرْسِهِ عَلَى التَّأْبِيْدِ، لأنَّ ما حفظتَه كثيراً ما يذهب عن الحفظ؛ فإذا علَّقتَه تجده مهما رجعت إليه وتدرسه كلَّما أردت درسه.

فَإِذَا مَا أَمِنْتَ مِنْهُ فَوَاتَاً كلمة (ما) زائدة، وضمير (منه) يرجع إلى الشيء، (فواتاً) نصب على التمييز، أي: إذا أمنتَ من فوات ما حفظته.

فَانْتَدِبْ بَعْدَهُ أي: سارع بعد ذلك إلى الشيء المأمون من فواته، يقال: «انْتَدَبَ الله لِمَنْ خَرَجَ فِي سَبِيْلِهِ....» - أي: سارع بثوابه- كذا في «القاموس». لِشَيْءٍ جَدِيْدٍ أي: لتحصيل شيء جديد.

مَعَ تِكْرَارِ مَا تَقَدَّمَ مِنْهُ أي: مع تكرار المسألة التي تقدَّمت، والضمير في (منه) يرجع إلى الشيء الجديد. اقْتِنَاءٍ بالجرِّ عطف على (تكرار ما تقدَّم) أي: اكتساب لِشَأْنِ هَذَا المَزِيْدِ الذي أسرعت إلى تحصيله.

ذَاكِرِ النَّاسَ بِالعُلُومِ أي: بتعليمهم إيَّاها لِتَحْيَا أي: لتكون حيَّاً بالحياة الأبديَّة، لقوله ﷺ: « مَنْ صَارَ بالعِلْمِ حَيَّاً.. لَمْ يَمُتْ أَبَدَاً». وفي بعض النسخ (لتحمى) من الحماية؛ أي: لتكون محميَّاً من العذاب والعقاب ببركة تعليمك.

لَا تَكُنْ مِنْ أُولِي النُّهَىٰ بِبَعِيْدِ النهىٰ جمع: نهية، وهي العقل، أي: لا تكن من ذوي العقول ببعيد، لأنَّ صحبتهم تفيدك منافع الدنيا والآخرة.

إنْ كَتَمْتَ العُلُومَ أُنْسِيْتَ يعني: إن كتمت العلوم ومنعت عن الطالبين جزيت بالنسيان

حَتَّى لَا تُرَى بصيغة المجهول غَيْرَ جَاهِلٍ وَبَلِيْدِ أي: لا تُظنَّ غير جاهل وبليد، يعني: نسيانك بالعلم يصل إلى مرتبةٍ لا يظنُّ الرائي إيَّاك إلَّا جاهلاً وبليداً، وبهذا القَدْر لا يكتفى بل تعذيب بالعذاب الشديد في الآخرة، حسبما ينبىءُ عنه قوله:

ثُمَّ أُلْجِمْتَ على صيغة الخطاب المبنيَّة للمفعول فِي القِيَامَةِ نَارَاً أي: بلجام من نار جهنم وَتَلَهَّبْتَ أي: يتلهب أيضاً سائر جسدك بِالعَذَابِ الشَّدِيْدِ[1]، لما روي عن النَّبيِّ ﷺ أنَّه قال: « مَنْ عَلِمَ عِلْمَاً فَكَتَمَهُ أُلْجِمَ يَومَ القِيَامَةِ بِلِجَامٍ مِنْ نَارٍ».

وقال ﷺ: «خُلَفَائِي رَحِمَهُمُ الله تَعَالَى». قيل: ومَن خلفاؤك؛ يا رسول الله؟ قال: « الَّذِيْنَ يُحْيُونَ سُنَّتِي يُعَلِّمُونَهَا عِبَادَ الله تَعَالَى». كذا في « الإحياء».

أدب المناظرة والمذاكرة: وَلَابُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنَ المُذَاكَرَةِ وَالمُنَاظَرَةِ أي: المباحثة وَالمُطَارَحَةِ[2]: من طرح أحدِهما كلام الآخر، فَيَنْبَغِي أَنْ يَكُونَ كلٌّ منهما

---

(١) الأبيات من الخفيف.

(٢) المذاكرة: هي التداول والمراجعة بين الطالب وكتابه. وقد قيل:

=

بِالإِنْصَافِ وَالتَّأَنِّي وَالتَّأَمُّلِ، لأنَّ أضداد هذه الأشياء مذمومة ومستهجنة.

محترز المناظر: وَيَتَحَرَّزَ عَنِ الشَّغَبِ[1] -بفتح الشين المعجمة وسكون الغين المعجمة وتحريكها- أي: تهييج الشرِّ وتحريكه، فَإِنَّ المُنَاظَرَةَ وَالمُذَاكَرَةَ مُشَاوَرَةٌ؛ وَالمُشَاوَرَةُ.. إِنَّمَا تَكُونُ لِاسْتِخْرَاجِ الصَّوَابِ، وَذَلِكَ أي: استخراج الصواب إِنَّمَا يَحْصُلُ بِالتَّأَمُّلِ وَالتَّأَنِّي وَالإِنْصَافِ، وَلَا يَحْصُلُ بِالغَضَبِ وَالشَّغَبِ.

تصحيح النية: فَإِنْ كَانَتْ نِيَّتُهُ إِلْزَامَ الخَصْمِ! وَقَهْرَهُ لَا يَحِلُّ ذَلِكَ أي: ما ذكر من المباحثة والمطارحة؛ فلا تحلِّ المناظرة، وَإِنَّمَا يَحِلُّ ذَلِكَ لِإِظْهَارِ الحَقِّ أي: الصواب.

الحيلة للحق: وَالتَّمْوِيهُ[2] أي: التلبيس وَالحِيْلَةُ لَا تَجُوزُ فِيْهَا أي: من المناظرة.. إِلَّا إِذَا كَانَ الخَصْمُ مُتَعَنِّتاً أي: طالب الزلَّة صاحبه؛ لَا طَالِباً لِلْحَقِّ، فحينئذ تجوز.

وَأَدِمْ لِلْعِلْمِ مُذَاكَرَةً ... فَحَيَاةُ العِلْمِ مُذَاكَرَتُهْ

وقيل:

إِذَا لَمْ يُذَاكِرْ ذُو العُلُومِ لِعِلْمِهِ ... وَلَمْ يَسْتَزِدْ عِلْماً نَسِيْ مَا تَعَلَّمَا

وَكَمْ جَامِعٍ لِلْعِلْمِ مِنْ كُلِّ مَذْهَبٍ ... يَزِيْدُ عَلَى الأَيَّامِ فِي جَمْعِهِ عَمَىٰ

والمناظرة: هي المباحثة بين مختلفي الرأي لاستخراج الصواب.

والمطارحة: هي البحثُ في المسائل المطروحة بين الأقران وأصدقاء الطلب.

(١) الفوضى ورفع الصوت بما لا فائدة فيه.

(٢) التلوُّن والتلاعب لإخفاء الحقِّ.

التروي بالالتزام: وَكَانَ مُحَمَّدُ بنُ يَحْيَى رَحِمَهُ الله[1]: إذَا تَوَجَّه عَلَيْهِ الإِشْكَالُ؛ وَلَمْ يَحْضُرْهُ الجَوَابُ يَقُولُ: مَا أَلْزَمْتَهُ من السؤال لَازِمٌ، أي: وارد؛ وَأَنَا فِيْهِ أي: في الإشكال الذي أوردتَه نَاظِرٌ أي: متأمِّلٌ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيْمٌ أرفعُ درجةً منه.

ثمرة التذاكر: وَفَائِدَةُ المُطَارَحَةِ وَالمُنَاظَرَةِ أَقْوَى مِنْ فَائِدَةِ مُجَرَّدِ التَكْرَارِ، لِأَنَّ فِيْهِ أي: في المطارحةِ وتذكير الضمير! باعتبار تأويل المصدر بأنْ مع الفعل تِكْرَارَاً لما علمته وَزِيَادَةً أي: زيادة ما لم تعلمه لأنه بسبب المناظرة ينكشف من المعاني الدقيقة الغامضة ما لا ينكشف بدونها.

فَقَدْ قِيْلَ: مُطَارَحَةُ سَاعَةٍ خَيْرٌ مِنْ تَكْرَارِ شَهْرٍ!! وَلَكِنْ إذَا كَانَتِ المناظرة مَعَ مُنْصِفٍ أي: ذي إنصاف سَلِيْمَ الطَّبْعِ عن الاعوجاج.

غلبة الطبع: وَإِيَّاكَ نصب على التحذير وَالمُذَاكَرَةَ أي: اتق المذاكرة مَعَ مُتَعَنِّتٍ أي: طالب لزلَّةِ الخصم غَيْرِ مُسْتَقِيْمِ الطَّبْعِ، فَإِنَّ الطَّبِيْعَةَ مَسْرَقَةٌ من السرقة؛ أي: سارقة أخلاق صاحبه شيئاً فشيئاً، وَالأَخْلَاقُ أي: الأوصاف مُتَعَدِّيَةٌ أي: متجاوزة إلى الغير، وَالمُجَاوَرَةُ أي: المقاربة مُؤَثِّرَةٌ[2] فيتأثَّر الرجل

---

(١) أبو عبد الله محمد بن يحيى الفقيه الجرجاني، أخذ عنه القدوري والناطفي، وتفقَّه عليه الجصَّاص الرازي، توفي سنة: ٣٩٨ هـ، ودفن بجوار الإمام أبي حنيفة.

(٢) المتسرِّبة: التي تنتقل خفية. وفي نسخة الشرح: سرقة.

المتعدية: المنتقلة بالعدوى الى الغير، أو قهراً بالاعتداء.

المجاور: التقارب والتلامس.

بالمقارنة؛ فيظهر فيه من الآثار والأوصاف ما كان مخصوصاً بصاحبه.

وَفِي الشِّعْرِ الَّذِي ذَكَرَهُ الخَلِيْلُ بنُ أَحْمَدٍ رَحِمَهُ الله وهو الشعر الذي مرّ ذكره آنفاً (ص١٢٩)وهو ما أوَّله:

* اخْدُمِ العِلْمَ خِدْمَةَ المُسْتَفِيْدِ*

فَوَائِدُ كَثِيْرَةٌ مبتدأ مؤخَّر خبرُه و(في الشعر) خبره مقدَّم، وَقَدْ قِيْلَ:

الْعِلْمُ مِنْ شَرْطِهِ لِمَنْ خَدَمَهْ أَنْ يَجْعَلَ النَّاسَ كُلَّهُمْ خَدَمَهْ[1]

فقوله: (العلم) مبتدأ و(من شرطه) خبرٌ مقدَّم، و(لمن خدمه) متعلِّق بأن يجعل الناس على التوسُّع في الظروف، وهو مبتدأ مؤخَّر، والجملة خبر المبتدإ الأوَّل. و(خدم) في المصراع الأول فعلٌ ماضٍ والهاء ضمير مفعول، وفي الثاني جمع: خادم، والمعنى: مِن شرط العلم أن يجعل الناس كلَّهم خادمين لمن خدمه على ما ينبئ عنه الخبرُ المشهور؛ وهو: مَنْ خَدَمَ خُدِمَ .

التأمل بالدقائق: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَكُونَ مُتَأَمِّلاً فِي جَمِيْعِ الأَوْقَاتِ فِي دَقَائِقِ العُلُومِ وَيَعْتَادَ ذَلِكَ أي: التأمَّل في دقائق العلوم، فَإِنَّمَا تُدْرَكُ الدَّقَائِقُ بِالتَّأَمُّلِ، وَلِهَذَا قِيْلَ: تَأَمَّلْ تُدْرِكْ. قوله: (تأمَّل) أمر؛ و(تدرك) مجزوم على أنَّه جوابه، يعني: إن تأمَّلتَ في شيء تدركه لا محالة .

التقويم بالتأمل: وَلَا بُدَّ مِنَ التَّأَمُّلِ قَبْلَ الكَلَامِ حَتَّى يَكُونَ صَوَابَاً، فَإِنَّ الكَلَامَ كَالسَّهْمِ فَلَا بُدَّ مِنْ تَقْوِيْمِهِ أي: جعله مستقيماً بِالتَّأَمُّلِ قَبْلَ الرَّمْيِ

---

(١) والمعنى: يشترط في صحة العلم أن يجعل الناس خدماً لمن يخدمه.

حَتَّى يَكُونَ أي: سهم الكلام مُصِيْبَاً أي: إلى المقصود، فكما أنَّ سهم القوس إذا كان معوجَّاً لم يصل إلى المقصود؛ كذلك سهم الكلام إذا كان فيه اعوجاج بأن كان غير مقصودك لم يصل إلى المراد.

أصل كبير: وَقَالَ أي: صاحب أصول الفقه فِي «أُصُولُ الفِقْهِ»[1]: هَذَا أَصْلٌ كَبِيْرٌ؛ وَهُوَ أَنْ يَكُونَ كَلَامُ الفَقِيْهِ المُنَاظِرِ بِالتَّأَمُّلِ.

وَقِيْلَ: رَأْسُ العَقْلِ أَنْ يَكُونَ الكَلَامُ بِالتَّثَبُّتِ أي: بالتأني والوقار وَالتَّأَمُّلِ.

الوصايا الخمس: قَالَ قَائِلٌ: في بيان ما يتأمَّل في الكلام: أُوصِيْكَ فِي نَظْمِ الكَلَامِ بِخَمْسَةٍ أشياء:

إِنْ كُنْتَ بصيغة الخطاب لِلْمُوصِي الشَّفِيْقِ أي: للذي أوصاك بخير وأشفقك مُطِيْعَا لَا تُغْفِلَنْ بالنون الخفيفة سَبَبَ الكَلَامِ وَوَقْتَهُ أي: لا تغفل عن سبب الكلام ومنشئه ووقته الذي ناسب الكلام فيه دون غيره.

وَالكَيْفَ أي: وصف الكلام، وَالكَمَّ أي: مقداره، وَالمَكَانَ الذي ناسب الكلام فيه جَمِيْعَاً[2].

---

(١) هو للسرخسي عند الإطلاق (مطبوع).

(٢) البيتان من الكامل، ولإيضاح معناهما نقول: أمَّا سبب الكلام! فيجب أن يكون جواباً لمستفهم، أو دلالة لطالب، أو نصحاً لراغب، وإلَّا! فالصمت أسلم عن غير العبادة. وغير هذا لهو أو محرَّم. وقد كان إمامنا الأعظم رضي الله عنه لا يبدأ بكلام قط، فإذا ما =

غنيمة الحكمة: وَيَكُونَ بالنصب عطف على أن يكون متأمِّلاً مُسْتَفِيْدَاً فِي جَمِيْعِ الأَحْوَالِ وَالأَوْقَاتِ مِنْ جَمِيْعِ الأَشْخَاصِ من غير النظر إلى كونه وضيعاً وشريفاً، صغيراً وكبيراً، ذكراً أو أنثى!! وأثبت هذا المعنى بقوله:

سئل كان كالبحر الهادر. ومعلوم أنَّ الصمت أحدُ أركان الولاية.

وفيما أخرجه ابن عدي بسند حسن؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه:« الحِكْمَةُ عَشَرَةُ أَجْزَاءٍ؛ تِسْعَةٌ مِنْهَا فِي العُزْلَةِ، وَوَاحِدٌ فِي الصَّمْتِ».

وأما وقت الكلام! فعند الاستماع، وبعد انتهاء الغير؛ وقد كان النبي ﷺ إذا أراد أن يتكلَّم يستنصتُ الناس. ويجب أن لا يقاطِع الغير في كلامه، ويسمح للسائل حتَّىٰ يفرغ من سؤاله. ولا يتكلَّم إلَّا إذا طُلِب إليه.

وأما الكيف! فيختلف باختلاف أحوال السامعين؛ من تأنيب وترغيب وترهيب.

وكذلك يختلف بقَدْر حاجة السامعين؛ من سائل مستفهم، أو متعلِّم متمرِّس، أو طالب حجَّة ودليل. ولذلك تفرَّعت أنواع الخبر بين ١-خالي الذهن، فيلقى إليه الخبر ابتدائياً بدون توكيد. وبين ٢-أن يكون متردِّداً في الحكم، فيحسُن توكيده، ويكون الخبر طلبياً. وبين ٣-أن يكون منكراً؛ فيؤكد له الخبر بمؤكد أو أكثر... حينما يكون الخبر إنكارياً.

وأما الكم فمقدَّر بالحاجة ومراعاة حال السامعين أيضاً، لأنَّ الإكثار مملٌّ، وربما أنسى آخرُ الكلام أوَّله. والأصل في ذلك أنَّ خير الكلام ما قلَّ ودلَّ.

أما المكان فتبعٌ للطالبين فيه... فما يقال في مجلس وعظ لا يقال مثله في محاضرة متخصِّصة، وما يقال على كرسي الدرس يختلف عما يقال على منبر الجمعة... وهكذا؛ فيجب على المتكلِّم أن يراعيَ حال السامع ومكانه وجميع شؤونه لتتمَّ الفائدة المرجوَّةُ فلا يتكلَّم... وهو في مأتم عن شؤون الدنيا والكسب، أو عن المزاح والهزل، وكذا لا ينبغي أن يتكلَّم في حفل الزفاف عن عذاب القبر وبؤس العيش.

ولذلك قيل: البلاغة حسن خطابِ السامع.

قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: «الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ أي: لُقَطَته أَيْنَمَا وَجَدَهَا أَخَذَهَا»[1].

وَقِيْلَ: خُذْ مَا صَفَا مما استفدته وَدَعْ أي: اترك مَا كَدَرَ[2] أي: ما كان مكدَّراً؛ أي: مشوباً بالضعف والفساد.

أستذة جارية: وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ الإِمَامَ الأُسْتَاذَ فَخْرَ الدِّيْنِ الكَاشَانِيَّ رَحِمَهُ الله يَقُولُ: كَانَتْ جَارِيَةُ أَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ الله أَمَانَةً عِنْدَ مُحَمَّدٍ، فَقَالَ لَهَا مُحَمَّدٌ: هَلْ تَحْفَظِيْنَ أنت فِي هَذَا الوَقْتِ مِنْ أَبِي يُوسُفَ أي: من كلامه فِي الفِقْهِ شَيْئَاً؟ أي: مسألة من مسائل الفقه. قَالَتْ: لَا؛ أي: لا أحفظه، إِلَّا أَنَّهُ أي: أبا يوسف كَانَ يُكَرِّرُ أي: عادته المستمرَّة أن يكرِّر؛ وَيَقُولُ: سَهْمُ الدَّوْرِ سَاقِطٌ.

فَحَفِظَ أي: محمد ذَلِكَ مِنْهَا أي: من الجارية، وَكَانَتْ أي: والحال أنَّ تلك المسألة كانت مُشْكِلَةً عَلَى مُحَمَّدٍ رَحِمَهُ الله؛ فَارْتَفَعَ إِشْكَالُهُ بِهَذِهِ الكَلِمَةَ المستفادةِ من الجارية.

مدرك العلم: فَعُلِمَ أَنَّ الاسْتِفَادَةَ مُمْكِنَةٌ مِنْ كُلِّ أَحَدٍ، وحُكي أيضاً عن أبي حنيفة أنَّه كان يحجُّ في كلِّ سنة حتَّىٰ حجَّ خمساً وخمسين سنة، وكان

---

(١) أخرجه القضاعي: ١٤٦ بالشطر الأول وزيادةٍ غير هذه، والترمذي في أواخر (باب العلم)، والبيهقيُّ في «المدخل»، والعسكريُّ. وانظر «كشف الخفا»: ١١٥٩. ولفظه عند ابن ماجه ٢/ ١٣٩٥: «الكَلِمَةُ الحِكْمَةُ ضَالَّةُ المُؤْمِنِ حَيْثُمَا وَجَدَهَا فَهُوَ أَحَقُّ بِهَا».

(٢) في ما يسمعه المرء خير وشرٌّ، والعاقل يلتقط الخير كيفما استطاع، ويترك الشرَّ ما أمكنه.

أصحابُه يستقبلونه كلَّ سنة، فسنةً من السنين كان حاجَّاً فوقع[1] مسألة الدور بالكوفة، ودار السائل على الخلق فأخطؤا في ذلك وتكلَّم كلُّ فريق بنوع فذكروا له ذلك حيث استقبلوه فقال رحمه الله من غير رويَّة ولا فكر: اسقطوا السهم الدائر تصح المسألة.

* صورته: مريض وهب عبداً له من مريض آخر؛ وسلَّم إليه، ثمَّ إنَّ الموهوب له وهب من الواهب الأوَّل فسلَّم إليه ثمَّ ماتا جميعاً.. ولا مال لهما غير ذلك العبد! فإنَّه وقع فيه الدور، لأنَّه متى رجع إليه شيء من ذلك.. زاد في ماله، وإذا زاد في ماله.. زاد في ثلثه، وإذا زاد في ثلثه.. زاد فيما يرجع إليه، وإذا زاد فيما يرجع إليه.. زاد في ثلثه. ثم لا يزال كذلك؛ فاحتيج إلى حساب يمكن تصحيحه منه؛ فتقول:

طريقه أن تطلب حساباً له ثلث، وللثلث ثلث، وأقلُّه تسعة، ثم تقول: صحَّت الهبة في ثلاثة منها، ثم يرجع في الهبة الثانية من الثلث سهم إلى الواهب الأوّل، فهذا السهم هو سهم الدور، فأسقطْه من الأصل الذي هو تسعةٌ، ويبقى ثمانية؛ فمنها تصحُّ المسألة؛ هذا معنى قول أبي حنيفة (أسقطوا السهم الدائر تصح المسألة). فتصبحُ الهبة الأولى في ثلاثة من ثمانية، والهبة الثانية في سهم؛ فيحصل للواهب الأوّل ستَّةٌ؛ وهو ضعف ما صححنا في هبته، وللواهب الثاني اثنان وهو ثلث ما أعطينا للواهب الأوّل.

---

(١) من المقرر عند علماء العربية: أنَّ الفاعل إذا كان مؤنثاً غير حقيقي.. جاز تذكير الفعل وتأنيثه.

فثبت بهذا الطريق: أن طريق التصحيح إسقاطُ سهم الدور الـذي هـو واحدٌ من التسعة.

وَلِهَذَا أي: ولأجل أنَّ الاستفادة ممكنة من كلِّ أحد.. قَالَ أَبُـو يُوسُـفَ رَحِمَهُ الله حِيْنَ قِيْلَ لَهُ: بِمَ أي: بماذا أَدْرَكْتَ العِلْمَ؟ أي: وصـلت إلى العلـم. قَالَ: مَا اسْتَنْكَفْتُ[1] مِنَ الاسْتِفَادَةِ من كلِّ أحد، وَمَا بَخِلْتُ بِالإِفَـادَةِ لكـلِّ أحد . وهذه الجملة مقول لـ(قال).

وسيلة التعلم: قِيْلَ لِابنِ عَبَّـاسٍ رَضِيَ الله عَـنْهُمَا: بِـمَ أَدْرَكْـتَ العِلْـمَ؟ قَالَ: بِلِسَانٍ سَؤُوْلٍ فعول؛ أي: مبالغ في السؤال، وَقَلْبٍ عَقُوْلٍ[2] أي: مبالغ في العقل.

الماتقولي: وَإِنَّمَا سُمِّيَ طَالِبُ العِلْمِ في الزمان الأول (مَاتَقُولُ)!! لِكَثْرَةِ مَا كَانُوا يَقُولُونَ فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ (مَا تَقُـولُ فِي هَـذِهِ المَـسْأَلَةِ؟) وجملـة (مـا تقولون) مقول القول لـ(يقولون).

الكسب والتعلم: وَإِنَّمَا تَفَقَّهَ أَبُو حَنِيْفَةَ أي: ما صار أبو حنيفة رحمه الله فقيهاً إِلَّا بِكَثْرَةِ المُطَارِحَةِ، وَالمُذَاكَرَةِ فِي دُكَّانِهِ حِيْنَ كَانَ بَزَّازاً[3] يبيع البزَّ في دكانه.

---

(١) تكبَّر، واستعلى، والاستفادة: طلب الفائدة، والإفادة: بذلها للغير.

(٢) ولأنه لا ينال العلم مستحي ولا مستكبِر، مستحي عن السؤال، أو مستكبر على مَن يسأله.

(٣) البزَّاز: بائع البزِّ هو تاجر الأقمشة، فالبزُّ: القطن الناعم، أو الكتان والكرباس أو الحريـر خاصَّة، ويطلق على أنـواع غـيره. وهـذا غـير مـسلَّم في حـقِّ أبي حنيفـة، وإنَّـما كانـت المطارحات في دكانه من أسباب تعلُّقه وتشوُّقه للتحصيل في مجالسه.

=

فَبِهَذا يُعْلَمُ أَنَّ تَحْصِيْلَ العِلْمِ وَالفِقْهِ يَجْتَمِعُ مَعَ الكَسْبِ كما جمعه أبو حنيفة، وَكَانَ أَبُو حَفْصٍ الكَبِيْرُ رحمه الله[1] يَكْتَسِبُ ما كفاه من الرزق وَيُكَرِّرُ العُلُومَ. وهذا أيضاً شاهد في جواز اجتماع تحصيل العلم مع الكسب.

العالم المتكسب: فَإِنْ كَانَ لَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنَ الكَسْبِ لِنَفَقَةِ عِيَالِهِ بكسر العين جمع: عَيِّل كجياد جمع: جَيِّد وَغَيْرِهِ!! مما لزم نفقته.. فَلْيَكْتَسِبْ، وَلْيُكَرِّرْ وَلْيُذَاكِرْ، وَلَا يَكْسَلَ، وَلَيْسَ لِصَحِيْحِ البَدَنِ وَالعَقْلِ عُذْرٌ فِي تَرْكِ التَّعَلُّمِ وَالتَّفَقُّهِ؛ فإنَّه ما دام بدن الرجل صحيحاً وسالماً من الأمراض؛ وعقله كاملاً.. لا يكون له عذر في ترك التعلُّم بشيء من الأعذار من فقر

وكذلك الشيخ إسماعيل الحايك : كان من مجاوري المسجد الأموي بدمشق، وكان دكَّانه مرتاداً لكثير من أهل العلم يتذاكرون فيه، وتأثَّر بمجالستهم حتى استهواه العلم ودأب على تحصيله، وكان بعض الأقران يعيِّره بالحياكة؛ وأنه جليس (النول)! حتى فتح الله عليه وقصد استنبول وأجاب عن مسألة استعصت على غيره؛ فكوفئ بها أن قُلِّد (فتوى الشام). وعاد الى دمشق فانتزعها ممن كانوا يعيِّرونَه بالنول!! ولله في خلقه شؤون.

وكذلك كان أستاذنا الشيخ عبد الرزاق الحلبي القارئ الجامع فقيه الشام مديراً لمعمل أقمشة، ومثله أستاذنا الشيخ أديب الكلاس الفقيه النظَّار المتكلِّم كان عامل طين وكلس قبل أن يتفرَّغا للتحصيل. بارك الله في عافيتهما وحياتهما. ومن شيوخ القراء الآن الشيخ محيي الدين الكردي (أبو الحسن) كان جزَّاراً، وكان يكتب الصحيفة من القرآن أمامه.. وهو يعمل، وحفظ الكتاب العزيز كذلك حتى ختمه وهو وراء سكينه.

(١) أبو حفص أحمد بن حفص البخاري (الكبير) من كبار شيوخ الحنفية، أخذ عن محمد بن الحسن؛ وله اختيار وترجيح في المذهب. وهو والد أبي حفص الصغير. توفي سنة: ٤١٧هـ.

وغيره، فَإِنَّهُ أي: ذلك الرجل لَا يَكُونُ أَفْقَرَ مِنْ أَبِي يُوسُفَ رَحِمَهُ الله[1]، وَلَمْ يَمْنَعْهُ أي: أبا يوسف ذَلِكَ أي: الفقر مِنَ التَّفَقُّهِ!!

فَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ كَثِيْرٌ!؟ فَـ «نِعْمَ المَالُ الصَّالِحُ لِلْرَجُلِ الصَّالِحِ»[2] قوله: (فنعم المال الصالح) خبر للمبتدإ بتقدير المقول، أي: فمَن كان له مال كثير فقول في حقِّه: نعم المال الصالح لغير الفاسد بمخالطة الحرام (للرجل الصالح) يستعينُ به على تحصيل العلوم المنصرِف في طريق العلم.

تعلم الغني: قِيْلَ لِعَالِمٍ: بِمَ أي: بأيِّ شيء أَدْرَكْتَ العِلْمَ؟ قَالَ: بِأَبٍ غَنِيٍّ، لِأَنَّهُ أي: الأب الغنيُّ كَانَ يَصْطَنِعُ أي: يحسن بِهِ أي: بسبب الغنى أَهْلَ العِلْمِ وَالفَضْلِ[3]، فَإِنَّهُ أي: الإحسان سَبَبُ زِيَادَةِ العِلْمِ، لِأَنَّهُ شُكْرٌ عَلَى نِعْمَةِ العَقْلِ وَالعِلْمِ؛ وَأَنَّهُ أي: الشكر عليها وهو سَبَبُ الزِّيَادَةِ أي: سبب

---

(١) فإنه كان أجيراً لخبَّاز لا يكتفي بضروري قوته، وكانت أمه تلزمه بذلك لينصرف عن مجلس أبي حنيفة.

(٢) أخرجه أحمد: ٤/ ١٩٧، وابن منيع؛ عن عمرو بن العاص رضي الله عنه قاله ﷺ عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(٣) يختلف الحال باختلاف حال الآباء وبذلهم لتعليم أولادهم. ولكلِّ حال شواهد، ولكن القاعدة الغالبة أن العلم لا يثمر مع المال واليسار..

سَأَلْتُ الفَقْرَ: أَيْنَ أَنْتَ مُقِيْمٌ؟ فَقَالَ لِي: فِي عَمَائِمِ الفُقَهَاءِ

* * *

إِنَّ الفَقِيْرَ هُوَ الفَقِيْهُ وَإِنَّمَا رَاءُ الفَقِيْرِ تَجَمَّعَتْ أَطْرَافُهَا

زيادة النعمة حيثما ينبئ عنه بقوله تعالى ﴿لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾ [إبراهيم: ٧].

التعلم بالشكر: قِيْلَ: قَالَ أَبُو حَنِيْفَةَ رحمه الله -وهذه الجملة مقول القول لـ (قيل)-: إِنَّمَا أَدْرَكْتُ العِلْمَ بِالحَمْدِ لله تَعَالَى وَالشُّكْرِ أي: ما وصلت إلى هذه المرتبة من العلم إلَّا بالحمد لله تعالى وثنائه وشكره في مقابلة نعمه، فَكُلَّمَا فَهِمْتُ أي: شيئاً من العلوم وَوُفِّقْتُ على صيغة المبنيِّ للمفعول أي: جعلت موفَّقاً من عند الله تعالى عَلَى فِقْهٍ وَحِكْمَةٍ أي: معرفة من المعارف.. فَقُلْتُ: (الحَمْدُ لله تَعَالَى) هذه الجملة معطوفة على جملة (فهمت) فَازْدَادَ عِلْمِي جواب (كلَّما).

الاشتغال بالشكر: وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ يَشْتَغِلَ بِالشُّكْرِ بِاللِّسَانِ وَالجِنَانِ وَالأَرْكَانِ أي: الجوارح وَالمَالِ[1]،أي: يتصدَّق بالأموال الطيِّبة إلى الفقراء، وَيَرَى الفَهْمَ أي: يعتقد الفهمَ وَالعِلْمَ وَالتَّوْفِيْقَ مِنَ الله تَعَالَى، وَيَطْلُبَ -بالنصب عطف على (ويرى)- الهِدَايَةَ مِنَ الله تَعَالَى بِالدُّعَاءِ متعلِّق بـ (يطلب) لَهُ أي: لله تعالى وَالتَّضَرُّعَ إِلَيْهِ؛ فَإِنَّهُ تَعَالَى هَادٍ مَنِ

---

(١) الجنان: القلب، والأركان: الجوارح والأعضاء، ولذلك قيل: ومن المعلوم أن الشكر: تسخير العبد ما أنعم الله به عليه فيما خلقه من أجله. وهو شامل لجميع ما ذكر من جوارح، وجوانح، ومال، وثناء، وجاه، وغيرها. ولذا كان ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣].نسأل الله أن يجعلنا منهم.

اسْتَهْدَاهُ[1] أي: من طلب الهداية منه تعالى أي: دالٌّ إيَّاه على ما يوصِل إلى مقصوده من العلم وغيره.

التفويض للهادي: فَأَهْلُ الحَقِّ ـ وَهُمْ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالجَمَاعَةِ ـ طَلَبُوا الحَقَّ أي: القول الصادق والفعل الصائب مِنَ الله تَعَالَى الحَقِّ مجرورعلى أنَّه صفة لله تعالى، الهَادِي المُبِيْنِ العَاصِم؛صفات مترادفة، ومعنى (العاصم): الذي عصمهم عن الضلالة في الدين فَهَدَاهُمُ الله تَعَالَى، وَعَصَمَهُمْ عَنِ الضَّلَالَةِ يعني: أعطاهم ما سألوا، وَأَهْلُ الضَّلَالَةِ[2] أُعْجِبُوا بِرَأْيِهِمْ وَعَقْلِهِمْ وَطَلَبُوا الحَقَّ مِنَ المَخْلُوقِ العَاجِزِ، وَهُوَ العَقْلُ، لِأَنَّ العَقْلَ علَّة كونه عاجزاً لَا يُدْرِكُ جَمِيْعَ الأَشْيَاءِ ـ كَالبَصَرِ لَا يُبْصِرُ جَمِيْعَ الأَشْيَاءِ ـ فَحُجِبُوا على صيغة المبنيِّ للمفعول، أي: صاروا محجوبين عن معرفة الحقِّ وَعَجِزُوا عن معرفته، وَضَلُّوا أي: كانوا ضالِّيْن وَأَضَلُّوا غيرهم.

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « مَنْ عَرَفَ نَفْسَهُ عَرَفَ رَبَّهُ»[3]،أي: من عرف

---

(١) وكيف لا؛ و(أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي) و(لَئِنْ سَأَلَنِي لَأَعْطَيْتُهُ)!!

(٢) هم المعتزلة الذين حكموا العقل، وجعلوه مرجع التشريع، ومناط التحكيم.

(٣) تكلَّم فيه أهل الحديث بالبطلان والردِّ؛ لعدم صحَّته من طريق الرواية، وأثبته أهل الكشف لصحَّته عندهم كشفاً، وعلى كلِّ حال.. فمعناه صحيح؛ كما أشار إليه المؤلَّف بالعجز والقدرة... وهكذا...

ومن شواهده ما في «أدب الدنيا والدين» للماوردي، عن عائشة رضي الله عنها: سئل النبيﷺ: مَنْ أَعْرَفُ النَّاسِ بِرَبِّهِ؟ قال: « أَعْرَفُهُم بِنَفْسِهِ». وفي «الحاوي للفتاوى» للسيوطي (القول الأشبه في حديث «مَنْ عَرَفَ... فَقَدْ عَرَفَ رَبَّهُ»). فلتراجع.

نفسه بصفات المخلوقين؛ من العجز والفناء والضعف والفقر.. فقد عرف ربَّه بصفات الخالق؛ من القدرة لله تعالى والبقاء والقوَّة والغنى، فَإِذَا عَرَفَ عَجْزَ نَفْسِهِ.. عَرَفَ قُدْرَةَ الله تَعَالَى.

آفة الاعتداد: وَلَا يَعْتَمِدَ عَلَى نَفْسِهِ الناطقة وهي: الجوهر المجرَّد المعلَّق بالبدن تعلُّق التدبير والتصرُّف عند الحكماء، وعند المتكلِّمين: نفس الشيء ذاته وحقيقته، وَعَقْلِهِ، وهو: قوَّة للنفس تستعدُّ بها للعلوم والإدراكات، بَلْ يَتَوَكَّلُ عَلَى الله تَعَالَى[1]، وَيَطْلُبُ الحَقَّ مِنْهُ، ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُۥ﴾، أي: كافيه، وهذا القول وما بعده اقتباس من القرآن، وَيَهْدِيْهِ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيْمٍ؛ وهو الدين الحقُّ.

داء البخل: وَمَنْ كَانَ لَهُ مَالٌ معطوف على قوله فيما سبق (فمَن كان له مالٌ كثير) فَلَا يَبْخَلْ بالجزم نهيٌ عن غائب، لأنَّ البخل عن الزكاة حرامٌ،

---

(١) وكان شيخنا الراحل الشيخ صالح الفرفور: يرشدنا لأنْ نحوقل ثلاثاً بتمعُّن وتجرُّد تامَّين عند صعودنا المنبر، وأنَّه في ريعان شبابه.. خطب بحضور رئيس الدولة آنذاك؛ فكانت خطبةً رائدة، ولكنَّه لم يتمالك أن سُرَّت بها نفسه؛ فإذا به يزل لسانه في فاتحة الكتاب من تلك الصلاة!!

ومن كلام إمامنا الأعظم رضي الله عنه: من لم يتَّهم نفسه على دوام الأوقات؛ ولم يخالفها في جميع الأحوال؛ ولم يجرَّها إلى مكروهها في سائر أيامه.. كان مغروراً، ومَن نظر إليها باستحسان شيء منها.. فقد أهلَكَها، وكيف يصحُّ لعاقل الرضىٰ عن نفسه؛ والكريم ابن الكريم يقول: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِيٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾ [يوسف: ٥٣]!!

والبخل عن الصدقات النوافل مذمومٌ.

وَيَنْبَغِي أَنْ يَتَعَوَّذَ بِالله تَعَالَى مِنَ البُخْلِ. قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «أَيُّ دَاءٍ أَدْوَأُ مِنَ البُخْلِ؟!»[1] يعني: أيُّ مرض يكون أشدَّ من البخل.

بركة الجود: وَكَانَ أَبُو[2] الشَّيْخِ الإِمَامُ الأَجَلُّ شَمْسُ الأَئِمَّةِ الحَلْوَانِي رَحِمَهُ الله فَقِيْرَاً يَبِيْعُ الحَلْوَاءَ، وَكَانَ يُعْطِي الفُقَهَاءَ مِنَ الحَلْوَاءِ؛ وَيَقُولُ: (ادْعُوا لِابْنِي)! فَبِبَرَكَةِ جُودِهِ وَاعْتِقَادِهِ وَشَفَقَتِهِ بفتح الفاء وَتَضَرُّعَهُ نَالَ ابْنُهُ أي: وصل مَا نَالَ إيراد الموصول للتعظيم أي: المرتبة العالية من العلم .

اقتناء الكتب: وَيَشْتَرِي بِالمَالِ الكُتُبَ بالنصب عطف على (يتعوَّذ) أي: ينبغي أن يشتري الطالب المتموِّل بماله الكتب، وَيَسْتَكْتِبَ أي: يطلب الكتابة من الغير بإعطاء المال؛ فَيَكُونُ عَوْنَاً عَلَى التَّعَلُّمِ وَالتَفَقُّهِ باشتراء آلات العلم وأسبابه.

وَقَدْ كَانَ لِمُحَمَّدِ بنِ الحَسَنِ رَحِمَهُ الله مَالٌ كَثِيْرٌ[3]، حَتَّى كَانَ لَهُ ثَلَاثُ مِئَةٍ مِنَ الوُكَلَاءِ عَلَى مَالِهِ، فَأَنْفَقَهُ كُلَّهُ فِي العِلْمِ وَالفِقْهِ أي: في تحصيلهما باشتراء الكتب وإعطاء أجرة للمعلِّم وغيره، وَلَمْ يَبْقَ لَهُ ثَوْبٌ نَفِيْسٌ! أي: شريف

---

(١) بل قاله أبو بكر رضي الله عنه ثلاثاً؛ جواباً لجابر رضي الله عنه حينما جاء يطلب عِدَةً كان ﷺ قد وَعَدَه بها حينما يقدُم مال البحرين. والحديث أخرجه البخاري في «صحيحه»: ٤٣٨٣.

(٢) هو أحمد بن نصر بن صالح؛ كما في « الفوائد البهية» نقلاً عن نسخةٍ أكمل من هذه.

(٣) لأنَّه كان من أولاد الجند. وقيل: كان له ثلاثون ألفاً.

فَرَآهُ أَبُو يُوسُفَ رحمه الله فِي ثَوْبٍ خَلِقٍ)[1]؛ -بفتح الخاء وكسر اللام صفة مشبهة-، وهو ما بلي من الثياب، فَأَرْسَلَ ثِيَابَاً نَفِيْسَةً.. فَلَمْ يَقْبَلْهَا، فَقَالَ: أي: محمَّد عُجِّلَ لَكُمْ أي: أُعطي لكم المال في الدنيا، وَأُجِّلَ لَنَا أي: أخِّر المال وادُّخر لنا في الآخرة.

وَلَعَلَّهُ هذا الكلام للمصنِّف أي: أظنُّه إِنَّمَا لَمْ يَقْبَلْهُ أي: ما أرسل؛ وَإِنْ كَانَ قُبُولُ الهَدِيَّةِ سُنَّةً!! لَمَّا رَأَى أَنَّ فِي ذَلِكَ مَذَلَّةً لِنَفْسِهِ! وتذليل النفس غيرُ جائزٍ. وأشار إلى دليله بقوله: وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ:

« لَيْسَ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَذِلَّ نَفْسَهُ»[2] أي: يجعل نفسه ذليلة بإيقاعها في موقع الذلَّة والاستذلال.

التعززبالعلم: وَحُكِيَ أَنَّ الشَّيْخَ فَخْرُ الإِسْلَامِ الأَرْسَابَنْدِي رحمه الله[3] جَمَعَ قُشُورَ -جمع: قشر- البِطِّيْخِ المُلْقَاةَ -بالنصب صفة (قشور)- فِي مَكَانٍ خَالٍ فَغَسَلَهَا وَأَكَلَهَا، فَرَأَتْهُ أي: فرأت هذا المذكور جَارِيَةٌ؛ فَأَخْبَرَتْ بِذَلِكَ مَولَاهَا!! فَاتَّخَذَ أي: المولى لَهُ أي: لفخر الإسلام دَعْوَةً وَدَعَاهُ إِلَيْهَا، فَلَمْ يَقْبَلْ لِهَذَا! أي: لذلِّ نفسه.

---

(١) بالٍ ومهترء.

(٢) أخرجه أحمد: ٥/ ٤٠٥، الترمذي: ٢٢٥٥؛ عن أبي حذيفة رضي الله عنه بلفظ: «لَا يَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ...» وانظر « كنز العمال»: ٧٣٧١.

(٣) فخر الإسلام ـ فخر القضاة محمد بن الحسين. انظر ترجمته في تحقيقنا لـ«تقويم أصول الفقه» للدبوسي، وما قدمَّنا ص٨٠.

كراهة الطمع: وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ يَكُونَ ذَا هِمَّةٍ عَالِيَةٍ لَا يَطْمَعُ فِي أَمْوَالِ النَّاسِ، أي: حال كونِه غير طامع في أموالهم والطمع مذمومٌ لطالب العلم وغيرِه؛ خصوصاً للطالبين.

قَالَ رَسُولُ اللهﷺ: «إيَّاكَ أي: اتق الله، وإيَّاكَ وَالطَّمَعَ؛ فَإنَّهُ فَقْرٌ حَاضِرٌ»[1] لا فقر يتوقَّع إتيانه؛ لأنَّ الرجل إذا طمع في الزيادة مع وجود ماله.. كان فقيراً عاجلاً.

كراهة البخل: وَلَا يَبْخَلُ بِمَا عِنْدَهُ مِنَ المَالِ، بِلْ يَنْفِقُ عَلَى نَفْسِهِ وَعَلَى غَيْرِهِ؛ طالباً لرضا الله تعالى.. كائناً من كان، لأنَّ الناس كلَّهم فقراء، وأشار إلى هذا بقوله: وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « النَّاسُ مِنْ خَوْفِ الفَقْرِ فِي فَقْرٍ»[2] أي: لأجل مخافة الفقر.

وَكَانُوا أي: الناس فِي الزَّمَانِ الأَوَّلِ يَتَعَلَّمُونَ الحِرْفَةَ أي: الصناعة، ثُمَّ يَتَعَلَّمُونَ العِلْمَ؛ حَتَّى لَا يَطْمَعُوا فِي أَمْوَالِ النَّاسِ بقناعتهم بالمال الحاصلِ من الحرفة.

وَفِي الحِكْمَةِ[3] أي: ورد في الكلمات الدالَّة على الحكمة مَنِ اسْتَغْنَى أي:

---

(١) أخرجه الطبراني في « الأوسط»: ٧٧٥٣، والعسكري؛ عن جابر رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ: «الفَقْرُ الحَاضِرُ» وزيادة: «وَإِيَّاكُمْ وَمَا يُعْتَذَرُ مِنْهُ».

(٢) لم أجده.

(٣) الظاهر أن المراد «التوراة» فيما أنزلها الله تعالى.

طلب الغنى بِمَالِ النَّاسِ افْتَقِرَ أي: يكون فقيراً.

طمع العالم: وَالعَالِمُ إِذَا كَانَ طَمَّاعاً أي: كثير الطمع لَا يَبْقَ لَهُ من الإبقاء حُرْمَةُ العِلْمِ بسبب الابتذال وعرضِ الاحتياج إلى الأدنى، وَلَا يَقُولُ أي: لا يحكم بِالحَقِّ، وَلِهَذَا أي: ولأجل أنَّ الطمع يؤدِّي إلى ما ذُكِر.. كَانَ يَتَعَوَّذُ صَاحِبُ الشَّرْعِ ﷺ مِنْهُ؛ وَيَقُولُ: «أَعُوذُ بِالله مِنْ طَمَعٍ يَدْنِي أي: يقرب إِلَى طَبَعٍ»[1] بالتحريك: الشَّيْن والعيب.

الرجاء والخوف: وَيَنْبَغِي لِلْمُؤْمِنِ أَلَّا يَرْجُو إِلَّا مِنَ الله تَعَالَى، وَلَا يَخَافَ إِلَّا مِنْهُ تَعَالَى، وَيَظْهَرُ ذَلِكَ أي: عدم الرجاء إِلَّا من الله تعالى، وعدم الخوف إِلَّا من الله بِمُجَاوَزَةِ حَدِّ الشَّرْعِ، وَعَدَمِهَا أي: عدم المجاوزة. وهذا الكلام مجملٌ فصَّله بقوله:

فَمَنْ عَصَى الله تَعَالَى خَوْفاً مِنَ المَخْلُوقِ.. فَقَدْ خَافَ غَيْرَ الله تَعَالَى، أي: من غير الله تعالى حذف (من)! كما في قوله تعالى ﴿وَٱخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُۥ سَبْعِينَ رَجُلًا﴾ [الأعراف: ١٥٥]. أي: من قومه، فَإِذَا لَمْ يَعْصِ الله تَعَالَى لِخَوْفِ المَخْلُوقِ، وَرَاقَبَ حُدُودَ الشَّرْعِ أي: حافظ عليها، والمراد بحدود الشرع أوامرُ الله تعالى

---

(١) أخرجه تمام في «فوائده»؛ عن أبي أمامة رضي الله عنه مرفوعاً بلفظ «يَجِرُّ» بدل «يُدْنِي» وهما بمعنى واحد. والإمام أحمد: ٥/ ٢٣٢؛ بلفظ «اسْتَعِيْذُوا... يَهْدِي إِلَى طَبْعٍ»، والطبراني؛ عن عوف بن مالك رضي الله عنه: إِنَّ رَسُولَ الله ﷺ أَمَرَكُمْ أَنْ تَتَعَوَّذُوا... وَمِنْ طَمَعٍ يَرُدُّ إِلَى طَبَعٍ.

رجاءً من المخلوق.. فقد رجا غير الله تعالى، وإذا لم يعصِ الله لرجاء المخلوق؛ بل أطاع الله تعالى وراقب حدود الشرع.. لم يكن راجياً إلَّا من الله تعالى فلم يخف غير الله تعالى، بل خاف الله تعالى. وكذا في جانب الرجاء.

ضبط الدرس: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يَعُدَّ من العدِّ، وَيُقَدِّرَ لِنَفْسِهِ تَقْدِيْرَاً في التَّكْرَارِ أي: في تكرُّر سبقه ودرسه يعني: عيَّن مقداراً من العدد فكرَّر وأعاد درسه بمقداره، فَإِنَّهُ لَا يَسْتَقِرُّ قَلْبُهُ ولا تنتقش الصور الحاصلة في ذهنه.. حَتَّى يَبْلُغَ ذَلِكَ المَبْلَغَ أي: ذلك المقدار الذي عيَّنه في تكرار الدرس.

تكرار السابق: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَنْ يُكَرِّرَ سَبْقَ الأَمْسِ خَمْسَ مَرَّاتٍ، وَسَبْقَ اليَوْمِ الَّذِي قَبْلَ الأَمْسِ أَرْبَعَ مَرَّاتٍ، وَالسَّبْقَ الَّذِي قَبْلَهُ ثَلَاثَ مَرَّاتٍ، وَالَّذِي قَبْلَهُ اثْنَتَيْنِ، وَالَّذِي قَبْلَهُ مَرَّةً وَاحِدَةً، فَهَذَا أي: عدد التكرار على هذا الترتيب أَدْعَى[1] أي: أشدُّ دعوة وتأدِّياً إلَى الحِفْظِ.

همة المدارسة: وَيَنْبَغِي أَلَّا يَعْتَادَ المُخَافَتَةَ بضمِّ الميم؛ مصدر من الإخفات؛ لا من الخوف[2] فِي التَّكْرَارِ[3]، أي: تكرُّر الدرس، لِأَنَّ الدَّرْسَ وَالتَّكْرَارَ يَنْبَغِي أَنْ يَكُونَا بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ أي: سرور وطيب نفس؛ والمخافتة تنافي التكرار على وجه القوَّة والنشاط، وَلَا يَجْهَرُ جَهْرَاً يُجْهِدُ نَفْسَهُ أي: يشقُّ

---

(١) أدعى: أقوى وآكد.

(٢) هكذا في الأصل!! ولعل صوابها: الخفوت.

(٣) ما لم يكن مضطراً إليه؛ كأن كان معه مَن يشاركه مسكنه، لأنَّ الإيذاء حرام.

بها كَيْلَا يَنْقَطِعَ أي: النفس عَنِ التَّكْرَارِ، فَـ « خَيْرُ الأُمُورِ أَوْسَطُهَا»[1] أي: ما كان بين الجهر والإخفاء.

نشاط المذاكرة: حُكِيَ أَنَّ أَبَا يُوسُفَ رَحِمَهُ الله كَانَ يُذَاكِرُ الفِقْهَ مَعَ الفُقَهَاءِ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ كما هو اللائق لطالب العلم؛ وَكَانَ صِهْرُهُ أي: زوج ابنته أو زوج أخته عنده يَتَعَجَّبُ مِنْ أَمْرِهِ أي: في شأن أبي يوسف؛ وَيَقُولُ: أَنَا أَعْلَمُ أَنَّهُ جَائِعٌ مُنْذُ خَمْسَةِ أَيَّامٍ[2]، وَمَعَ ذَلِكَ أي: مع الجوع مقدارَ هذا الزمان أَنَّهُ يُنَاظِرُ بِقُوَّةٍ وَنَشَاطٍ!!

آفة الفتور: وَيَنْبَغِي أَلَّا يَكُونَ لِطَالِبِ العِلْمِ فَتْرَةٌ أي: اضطراب وَتَحَيُّرٌ، فَإِنَّهَا آفَةٌ[3] مانعة للتحصيل وَكَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ رَحِمَهُ الله يَقُولُ: إِنَّمَا فُقْتُ عَلَى شُرَكَائِي بِأَنِّي لَمْ تَقَعْ لِيَ الفَتْرَةُ فِي التَّحْصِيْلِ أي: في زمانه.

دأب التحصيل: وَكَانَ يَحْكِي عَنْ شَيْخِ الإِسْلَامِ الإِسْبِيْجَابِيِّ[4] أَنَّهُ وَقَعَ لَهُ

---

(١) أخرجه ابن السمعاني في ذيل «تاريخ بغداد»؛ عن عليٍّ كرَّم الله وجهه.

(٢) وهذا قبل أن يفتح عليه ولاية القضاء.

(٣) أياً ما كان عذرُها! فلابدَّ من نوع حرمان، فإن كانت الفترةُ بغير عذر.. أثم؛ وانقطع مدده وصُرِف عن العلم، وإن كانت بعذر؟ عذر، ولابدَّ من أثر سلبيٍّ في التحصيل.

(٤) شيخ الإسلام علي بن محمد السمرقندي الإسبيجابي، عُمِّر طويلاً وكان أعلمَ أهل عصره بفقه الإمام الأعظم، تفقَّه عليه المرغيناني (صاحب « الهداية»؛ شيخ المؤلف)، وله شرح « المختصر الطحاوي» و« المبسوط»، توفي بسمرقند سنة: ٥٣٥ هـ.

فِي زَمَانِ تَحْصِيْلِهِ وَتَعَلُّمِهِ فَتْرَةٌ اثْنَتَي عَشَرَةَ سَنَةً بِـانْقِلَابِ المَلِـكِ أي: بـسبب انعزال سلطان زمانه وجلوس آخر مكانه، وَخَرَجَ مَـعَ شَرِيْكِـهِ فِي المُنَـاظَرَةِ أي: في محلِّ المناظرة.. وَلَمْ يَتْرُكَا المُنَاظَرَةَ، وَكَانَا يَجْلِسَانِ فِي المُنَاظَرَةِ كُلَّ يَوْمٍ.. وَلَمْ يَتْرُكَا الجُلُوسَ لِلْمُنَاظَرَةِ اثْنَتَي عَشَرَةَ سَنَةٍ! فَصَارَ شَرِيْكَهُ شَـيْخَ الإِسْـلَامِ الشَّافِعِيِّيْنَ أي: صار مفتياً ومقتدى لهم؛ وَهُوَ أي: شريكه كَانَ شَافِعِيًّاً.

أس الحفظ: وَكَانَ أُسْتَاذُنَا الشَّيْخُ القَاضِي الإِمَامُ فَخْـرُ الإِسْـلَامِ قَـاضِي خَان يَقُولُ: يَنْبَغِي لِلْمُتَفَقِّهِ أي: لمن أراد أن يحصِّل علم الفقه أَنْ يَحْفَظَ نُسْخَةً وَاحِدَةً مِنْ نُسَخِ الْفِقْهِ دَائِمًا فَيَتَيَسَّرُ لَهُ بَعْدَ ذَلِكَ أي: حفظِ نسخة مـن الفقـه حِفْظُ مَا سَمِعَ مِنَ الْفِقْهِ.

* * * *

* * *

* *

*

الفصل السابع

فِي التَّوَكُّلِ أي: تفويض الأمر إلى الله تعالى.

ضمان الرزق: ثُمَّ لَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنَ التَّوَكُّلِ فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَلَا يَهْتَمَّ أي: ولا يغتمَّ لِأَمْرِ الرِّزْقِ، وَلَا يُشْغِلَ من الإشغال قَلْبَهُ بِذَلِكَ أي: بتحصيل الرزق.

رَوَى أَبُو حَنِيْفَةَ رَحِمَهُ الله عَنْ عَبْدِ الله بنِ الحَارِثِ الزَّبِيْدِيِّ رَضِيَ الله عَنْهُ أي: المنسوب إلى (زَبِيْد: اسم قبيلة) صَاحِبِ رَسُولِ الله ﷺ أي: هو من أصحاب رسول الله ﷺ: « مَنْ تَفَقَّهَ -وهذه الجملة مع آخرها مفعول (روي)- فِي دِيْنِ الله -أي: مَن صار عالماً بأحكام الشرع في دين الإسلام- كَفَاهُ الله تَعَالَى هَمَّهُ-؛ أي: مقصوده- وَرَزَقَهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ»[1] أي: من مكان لا يظنُّ الرزق منه.

فَإِنَّ مَنْ شُغِلَ قَلْبُهُ بالرفع نائب فاعل (شغل) بِأَمْرِ الرِّزْقِ مِنَ القُوْتِ وَالكِسْوَةِ قَلَّمَا يَتَفَرَّغُ -أي: لا يتفرَّغ، يجوز أن تكون القلَّة كناية عن العدم- لِتَحْصِيْلِ مَكَارِمِ الأَخْلَاقِ، وَمَعَالِي الأُمُورِ أي: أشراف الأمور وخيارها.

---

(١) أخرجه الإمام الأعظم في مسنده.

قيل[1]:

دَعِ المَكَارِمَ أي: اتركها لَا تَرْحَلْ أنت لِبُغْيَتِهَا أي: لا تسافر أنت لطلبها.

وَاقْعُدْ عن دعوى المكارم فَإِنَّكَ أَنْتَ الطَّاعِمُ الكَاسِي أي: أنت ذو طعام وكسوة ومشغول لتحصيلها؛ فأنَّى يتيسَّر لك تحصيل المكارم.

وصية الحلاج: قَالَ رَجُلٌ لِمَنْصُورٍ الحَلَّاجِ[2]: أَوْصِنِي، فَقَالَ أي: منصور: هِيَ أي: الوصية، ويجوز أن يكون أمراً من (هَيِّء) بمعنى: أصلح نَفْسُكَ خبر لمبتدإٍ أي: ما أوصي إليك! نفسك إِنْ لَمْ تَشْغَلْهَا وتستعلمها في طلب المكارم شَغَلَتْكَ أي: شغلت به نفسك إيَّاك باتباع مراداتها.

فَيَنْبَغِي لِكُلِّ أَحَدٍ أَنْ يُشْغِلَ من الإشغال نَفْسَهُ منصوب على أنه مفعول (يشغل) بِأَعْمَالِ الخَيْرِ حَتَّى لَا تَشْتَغِلَ بِهَوَاهَا، لما أنَّ أعمال الخير تمنع الاتباع بالهوى، لأنَّهما متضادَّان؛ متى وجد أحدهما.. امتنع الآخر.

وَلَا يَهْتَمُّ العَاقِلُ لِأَمْرِ الدُّنْيَا، لِأَنَّ الهَمَّ وَالحُزْنَ لَا يَرُدُّ المُصِيْبَةَ وَلَا يَنْفَعُ،

---

(١) من البسيط، وهو للحطيئة يهجو بها الزِّبْرِقان بن بدر، ولكن ليس المعنى كما تبادر لذهن المؤلف رحمه الله! لأنَّ المراد أنَّ اسم الفاعل ههنا (الطاعم) (الكاسي).. إنما هو بمعنى اسم المفعول، يعني (المطعوم، المكسوّ) وهو شأن العجائز والصبيان. والله تعالى أعلم.

(٢) بل هو الحسين بن منصور الحلاج، من مشاهر الصوفية المتكلِّمين، وكان فيه اختلاف كثير، له تصانيف منها « خلق الإنسان والبيان»، توفي قتيلاً ببغداد سنة: ٣٠٩هـ.

بل يقع ما قدَّره الله تعالى، بَلْ يَضُرُّ بِالقَلْبِ وَالعَقْلِ وَالبَدَنِ، وَيُخِلُّ بِأَعْمَالِ الخَيْرِ، لانتفاء فراغ القلب. وَيَهْتَمُّ لِأَمْرِ الآخِرَةِ؛ لِأَنَّهُ -أي: أمر الآخرة- يَنْفَعُ إيَّاه في الآخرة.

الهم الممدوح: وَأَمَّا قَوْلُهُ ﷺ جوابٌ عن سؤال مقدَّر كأنَّه قيل: أنت قلتَ: إن العاقل لا ينبغي له أن يهتمَّ لأجل الدنيا؟! فكيف قال رسول الله ﷺ: « إنَّ مِنَ الذُّنُوبِ ذُنُوباً لَا يُكَفِّرُهَا إلَّا هَمُّ المَعِيْشَةِ»[1]!! أي: الاضطراب لأجل معيشة العيال، فَالمُرَادُ مِنْهُ قَدَرُ هَمٍّ لَا يَخِلُّ بِأَعْمَالِ الخَيْرِ، وَلَا يَشْغَلُ القَلْبَ شُغْلاً يُخِلُّ بِإِحْضَارِ القَلْبِ فِي الصَّلَاةِ، فَإِنَّ ذَلِكَ القَدَرَ مِنَ الهَمِّ وَالقَصْدِ أي: ذلك القدر اليسير من الهمِّ مِنْ أَعْمَالِ الآخِرَةِ: خبر (إنَّ)، لتوقُّف أعمال الآخرة عليه، إذ لا تحصل الأعمال إلَّا بالمعيشة.

غربة الطالب: وَلَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنْ تَقْلِيْلِ العَلَائِقِ الدُّنْيَوِيَّةِ بِقَدْرِ الوُسْعِ أي: بقدر الطاقة، وَلِهَذَا أي: ولأجل تقليل العلائق اخْتَارُوا أي: العلماء الغُرْبَةَ، لأنَّ الغريب تقلُّ علائقه بانقطاعه؛ واعتزاله عن الخلق.

سفر التعلم: وَلَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنْ تَحَمُّلِ النَّصَبِ عطف تفسيرٍ للمشقَّة فِي سَفَرِ التَّعَلُّمِ أي: في السفر الكائن لأجل التعلُّم، كَمَا قَالَ مُوسَى - صَلَوَاتُ الله وَسَلَامُهُ عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ - فِي سَفَرِ التَّعَلُّمِ؛ وَلَمْ يُنْقَلْ عَنْهُ ذَلِكَ فِي

---

(١) أخرجه أبو نعيم في « الحلية»، وابن عساكر؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه: «... لَا يُكَفِّرُهَا الصَّلَاةُ... يُكَفِّرُهَا الهُمُومُ فِي طَلَبِ المَعِيْشَةِ».

غَيْرِهِ أي: في غير سفر التعلُّم في غيره مِنَ الأَسْفَارِ ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا﴾ [الكهف: ٦٢]. مقول القول لـ(قال)... لِيَعْلَمَ متعلِّق بـ(قال) أنَّ سَفَرَ العِلْمِ لَا يَخْلُو مِنَ التَّعَبِ، لِأَنَّ العِلْمَ أَمْرٌ عَظِيْمٌ، فسفره أيضاً عظيم؛ وَهُوَ أَفْضَلُ مِنَ الغَزَوَاتِ عِنْدَ أَكْثَرِ العُلَمَاءِ، وَالأَجْرُ عَلَى قَدْرِ التَّعَبِ وَالنَّصَبِ، فأيُّ سفر يكون التعب والنصب فيه أشدَّ.. فثوابه يكون أكثرَ.

العوض باللذة: فَمَنْ صَبَرَ عَلَى ذَلِكَ أي: التعب والنصب وَجَدَ لَذَّةَ تَفَوْقُ أي: تعلو سَائِرَ لَذَّاتِ الدُّنْيَا، وَهَذَا كَانَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ إِذَا سَهِرَ اللَّيَالِيَ بالنصب على أنَّه مفعول (سهر) أي: إذا سهر.. ولم ينم في الليالي؛ وَانْحَلَّ لَهُ المُشْكِلَاتُ جواب (إذا).. يَقُولُ: (أَيْنَ أَبْنَاءُ المُلُوكِ مِنْ هَذِهِ اللَّذَّاتِ؟!) يعني: أنَّ أبناء الملوك بمنزلٍ بعيد من اللذَّات، لأنَّها لذَّات علميَّة لا يعرفها الجاهلون؛ ولو كانوا أبناءَ الملوك.

لزوم التعلم: وَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أَلَّا يَشْتَغِلَ بِشَيْءٍ آخَرَ غَيْرِ العِلْمِ، وَلَا يُعْرِضَ عَنِ الفِقْهِ، قَالَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ رَحِمَهُ الله: إِنَّ صَنَاعَتَنَا هَذِهِ مِنَ المَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ، فَمَنْ أَرَادَ أَنْ يَتْرُكَ عِلْمَنَا هَذَا -أي: علم الفقه، وإضافة هذا العلم إلى نفسه!! لكثرة الاشتغال به كأنَّه اختصَّ به- سَاعَةً؛ فَلْيَتْرُكْهُ السَّاعَةَ[1] فليتركه الزمان بأن لا يجري عليه بموته وهذا دعاء عليه.

---

(١) المراد علم الفقه، إذ لا حدَّ له ولا نهاية، لتجدُّد المسائل واتِّساع الحاجة وكثرة الجهل به، وقلَّة ممارسته. أما سِواه من العلوم.. فغايته معلومة، وتحصيلُه محدود بإتقان مسائله.

لذة العلم وسكرات الموت: وَدَخَلَ فَقِيْهٌ وَهُوَ إِبْرَاهِيْمُ بنُ الجَرَّاحِ عَلَى أَبِي يُوسُفَ[1] يَعُودُهُ أي: حال كونه عائداً له فِي مَرَضِ مَوْتِهِ، وَهُوَ يَجُودُ من جاد بِنَفْسِهِ إذا قارب أن يقبض، والحال أنَّ أبا يوسف حينئذ يقرب أن يقبض روحه فَقَالَ أَبُو يُوسُفَ لَهُ: رَمْيُ الجِمَارِ مبتدأٌ بحذف حرف الاستفهام بقرينة (أم) الواقعة بعده أي: أرمي الجمار في مواقعها أيام الحجِّ رَاكِبَاً أي: حال كونه راكباً أَفْضَلُ؛ أَمْ رَاجِلاً)؟ أي: ماشياً. فَلَمْ يَعْرِفْ أي: إبراهيم بن الجرَّاح الجَوَابَ! فَأَجَابَ بِنَفْسِهِ؛ وَهُوَ أنَّ الرَّمْيَ مَاشِيَاً أَحَبُّ فِي الأَوَّلَيْنِ أعني: ما يلي مسجد الخِيْف؛ ثمَّ ما يليه، لا في الثالث؛ وهو العقبة، فإن الرمي فيها راكباً أفضل.

لذة العلم: وَهَكَذَا يَنْبَغِي لِلْفَقِيْهِ أَنْ يَشْتَغِلَ بِهِ أي: بعلم الفقه فِي جَمِيْعِ أَوْقَاتِهِ، فَحِيْنَئِذٍ يَجِدُ لَذَّةً عَظِيْمَةً فِي ذَلِكَ أي: في اشتغاله بعلم الفقه.

وَقِيْلَ: رُئِيَ مُحَمَّدٌ فِي المَنَامِ بَعْدَ وَفَاتِهِ؛ فَقِيْلَ لَهُ: كَيْفَ كُنْتَ بصيغة الخطاب فِي حَالِ النَّزْعِ!؟ أي: في حال خروج الروح. فَقَالَ: كُنْتُ مُتَأَمِّلاً فِي مَسْأَلَةٍ مِنْ مَسَائِلِ المُكَاتَبِ؛ فَلَمْ أَشْعُرْ -الشعور: أدنى العلم. أي: لم أعلم بالكليَّة- بِخُرُوجِ رُوحِي[2]، لفرط اشتغالي بها.

---

(١) القاضي إمامنا الثاني في المذهب.

(٢) ما ورد من الرؤى لا يعتمد في تثبيت الحكم عليه، وسكرات الموت لا تحتاج للتنبيه إلى شدَّتها! ولله في خلقه شؤون!!

وَقِيْلَ: إِنَّهُ أي: محمد بن الحسن قَالَ فِي آخِرِ عُمُرِهِ: شَغَلَنِي أي: منعني مَسَائِلُ الْمُكَاتَبِ أي: الاشتغال بها عَنِ الاسْتِعْدَادِ لِهَذَا اليَوْمِ)!! أي: عن إحضار العُدَّة ليوم الموت، وَإِنَّمَا قَالَ ذَلِكَ تَوَاضُعَاً[1] وهضماً وإظهاراً لكمال

---

(١) وربما قال ذلك تورية لمعنىً بعيد غير مراد الظاهر!! وكيف يظنُّ بإمام ربَّانيٍّ هكذا حاله؛ يقال له في المنام: لو أردتُ أن أعذِّبَك ما وضعت علمي فيك!!.

مطلب مهم في أحوال العبيد

ويدلُّ على معنى التورية ما ذكره الإمام المفسِّر الفقيه حافظ الدين أبو البركات عبد الله ابن أحمد النسفي المتوفىٰ سنة: ٧١٠هـ عند قوله تعالى ﴿فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا﴾ [النور: ٣٣].

ما نصُّه: واعلم أنَّ العبيد أربعة: ١- قنٌّ مقتنىً للخدمة، و٢- مأذون في التجارة، و٣- مكاتب، و٤- آبقٌ.

فمثال الأول: وليُّ العزلة الذي حصَّل العزلة بإيثار الخلوة وترك العشرة.

والثاني: وليُّ العشيرة فهو نجيُّ الحضرة يخالط الناس للخبرة، وينظر إليهم بالعبرة، ويأمرهم بالعبرة؛ فهو خليفة رسول الله ﷺ.. يحكم بحكم الله، ويأخذ لله، ويعطي في الله، ويفهم عن الله، ويتكلَّم مع الله.

فالدنيا سوق تجارته، والعقل رأس بضاعته، والعدل في الغضب والرضا ميزانه، والقصد في الفقر والغنىٰ عنوانه، والعلم مفزعه ومنحاه، والقرآن كتاب الإذن من مولاه، [فـ]ـهو كائنٌ في الناس بظواهره؛ بائنٌ منهم بسرائره، فقد هجرهم فيما له عليهم في الله باطناً، ثمَّ وصلهم فيما لهم عليه لله ظاهراً.

وَمَا هُوَ مِنْهُمْ بِالْعَيْشِ فِيهِمْ ... وَلَكِنْ مَعْدِنُ الذَّهَبِ الرُّغَامُ

=

افتقاره إلى فضل الله ورحمته، وإلَّا! فأيُّ استعداد فوق استعداده.. وهو إمام الأمَّة وهمام الملَّة!!.

يأكل ما يأكلون، ويشرب ما يشربون، وما يدريهم أنَّه ضيف الله، يرى السماوات والأرض قائماتٍ بأمره، وكأنه قيل فيه:

فَـإِنْ تَفُـقِ الأَنَـامَ وَأَنْـتَ مِـنْهُمْ فَـإِنَّ المِـسْكَ بَعْـضُ دَمِ الغَـزَالِ

فحالُ وليِّ العزلة أصفى وأحلى، وحالُ وليِّ العشرة أوفى وأعلى.

ونُزِّل الأول من الثاني في حضرة الرحمان منزلةَ النديم من الوزير عند السلطان.

أمَّا النَّبيُّ ﷺ! فهو كريم الطرفين، ومعدن الشذرين، ومجمع الحالين، ومنبع الزلالين، فباطن أحواله مهتدىٰ وليِّ العزلة، وظاهرُ أعماله مقتدىٰ وليِّ العشرة.

والثالث: المجاهد المحاسَب العامل، المطالَب بالضرائب؛ كنجوم المكاتب... عليه في اليوم والليلة خمسٌ، وفي المئتي درهم خمسةٌ، وفي السنة شهرٌ، وفي العمر زورةٌ؛ فكأنه اشترى نفسه من ربِّه بهذه النجوم المرتَّبة، فيسعى في فكاك رقبته؛ خوفاً من البقاء في رِبقة العبوديَّة، وطمعاً في فتح باب الحرية ليسرح في رياض الجنة فيتمتَّع بمبيَّاه، ويفعل ما يشاءه ويهواه.

والرابع: الأبَّاق: فما أكثرهم!! فمنهم القاضي الجائر، والعالم غير العامل، والعامل المرائي، والواعظ الذي لا يفعل ما يقول؛ ويكون أكثر أقواله الفضول، وعلى كل ما لا ينفعه يصول؛ فضلاً عن السارق والزاني والغاصب، فعنهم أخبر النبيُّ ﷺ: «إنَّ اللهَ لَيَنْصُرُ هَذَا الدِّيْنَ بِقَوْمٍ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ».

الفصل الثامن

فِي وَقْتِ التَّحْصِيْلِ أي: في بيان زمان تحصيل العلم.

دوامه: قِيْلَ: وَقْتُ التَّعَلُّمِ مِنَ المَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ أي: من وقت الصغر إلى الموت، لقوله ﷺ:« اطْلُبُوا العِلْمَ مِنَ المَهْدِ إِلَى اللَّحْدِ». دَخَلَ الحَسَنُ بنُ زِيَادٍ وهو تلميذ أبي حنيفة رحمه الله فِي التَّفَقُّهِ أي: في تحصيل علم الفقه.. وَهُوَ ابنُ ثَمَانِيْنَ سَنَةً[1] أي: في حال بلوغ عمره ثمانين سنة.. وَلَمْ يَبِتْ أي: لم ينم عَلَى الفِرَاشِ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً، فَأَفْتَى بَعْدَ ذَلِكَ أَرْبَعِيْنَ سَنَةً، فصار كلُّ عمره مئة وستين سنة، فظهر من هذا أن طلب العلم لازم؛ وإن كان عمره بلغ إلى ثمانين سنة!!.

أفضل أوقاته: وَأَفْضَلُ الأَوْقَاتِ أي: أوقات الطلب شَرْخُ الشَّبَابِ[2]، أي: أوَّله وَوَقْتُ السَّحَرِ، وَمَا بَيْنَ العِشَاءَيْنِ أي: المغرب والعشاء، ولكن غلب العشاء على المغرب.

عند الملال: وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَغْرِقَ أي: طالب العلم جَمِيْعَ أَوْقَاتِهِ، فَإِذَا مَلَّ

---

(١) هذا غير صواب، فإنه توفي سنة أربع ومئتين هو والحسن ابن أبي مالك والشافعي في عام واحد. وإذا أردنا أن نصححها نقول: (ابن ثمان). والله تعالى أعلم.

(٢) شرخ: مطلع الشيء وفاتحته. والسَّحَر: قبيل الفجر. وتقدم.

أي: صار ملولاً وكسلان مِنْ عِلْمٍ يَشْتَغِلُ بِعِلْمٍ آخَرَ، فإنَّ لكلِّ علم لذَّةً تغاير لذَّة العلم الآخر، وَكَانَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ الله عَنْهُمَا إذَا مَلَّ مِنْ عِلْمِ الكَلَامِ؛ يَقُولُ: هَاتُوا أي: ائتوا دِيْوَانَ الشُّعْرَاءِ.

وَكَانَ مُحَمَّدُ بنُ الحَسَنِ لَا يَنَامُ اللَّيْلَ، وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ دَّفَاتِرَ. وَكَانَ إذَا مَلَّ مِنْ نَوْعٍ يَنْظُرُ فِي نَوْعٍ آخَرَ ليزيل ملالته.

وَكَانَ يَضَعُ عِنْدَهُ المَاءَ وَيُزِيْلُ نَوْمَهُ بِالمَاءِ[1]، وَكَانَ يَقُولُ: النَّوْمُ مِنَ الحَرَارَةِ، فَلَابُدَّ مِنْ دَفْعِهِ بِالمَاءِ البَارِدِ.

* * * *

* * *

* *

*

(١) وكان شيخنا العلامة المربي محمد صالح الفرفور وقت تحصيله يطيل السهر، ويضع قربة الماء فوق رأسه معلَّقة.. وهي تقطر عليه بين الفينة والأخرى؛ لدفع النوم.

الفصل التاسع

فِي

الشَّفَقَةِ وَالنَّصِيْحَةِ

خلق العلم: يَنْبَغِي أنْ يَكُونَ صَاحِبُ العِلْمِ مُشْفِقَاً أي: ذا شفقة ومرحمة، نَاصِحَاً أي: مريداً للخير، غَيْرَ حَاسِدٍ أي: غير مريد لزوال نعمة الغير؛ فَالحَسَدُ يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ.

وراثة العلم: وَكَانَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإسْلَامِ بُرْهَانُ الدِّيْنِ رَحِمَهُ الله يَقُولُ: قَالُوا أي: العلماء، وجملة (قالوا) مع قولهما مقول القول لـ(يقول): إنَّ ابنَ المُعَلِّمِ يَكُونُ عَالِمَاً، لِأَنَّ المُعَلِّمَ يُرِيْدُ أنْ تَكُونَ تَلَامِيْذُهُ فِي القُرْآنِ متعلِّق بقوله: عُلَمَاءَ؛ فَبِبَرَكَةِ اعْتِقَادِهِ وَشَفَقَتِهِ لتلاميذه يَكُونُ ابْنُهُ عَالِمَاً.

بركة الشفقة: وَكَانَ يُحْكَى بصيغة المبني للمفعول أنَّ الصَّدْرَ الأجَلَّ بُرْهَانَ الأئِمَّةِ رَحِمَهُ الله[1] جَعَلَ وَقْتَ السَّبْقِ أي: تعلُّم السبق لِابْنَيْهِ: الصَّدْرِ

---

(١) برهان الأئمة: هو عبد العزيز بن عمر بن مازه، وقد تفقَّه على السرخسي. ويقال له (الصدر الكبير) و(البرهان الكبير)، وهو أول من سُمِّي الصدر! لأن السلطان سنجر ابن ملك السلجوقي أرسله في مهمة الى بخارا سنة: ٤٩٥ هـ وسماه « صدراً». ثم قيل لأولاده وغيرهم. وأولاده هم: الصدر الشهيد: عمر بن عبد العزيز. والصدر السعيد: أحمد بن عبد العزيز.

الشَّهِيْدِ بدل من (ابنيه) حَسَامِ الدِّيْنِ عطفُ بيانٍ للصدر الشهيد، وَالصَّدْرِ السَّعِيْدِ تَاجِ الدِّيْنِ رَحِمَهُمَا الله تَعَالَى وَقْتَ الضَّحْوَةِ الكُبْرَى مفعول به ثان لـ(جعل) بَعْدَ جَمِيْعِ الأَسْبَاقِ[1] جمع: سبق؛ أي: بعد جميع أسباق المتعلِّمين، وهو بدل من وقت الضحوة؛ فَكَانَا أي: ابناه يَقُولَانِ: طَبِيْعَتُنَا تَكِلُّ.. بكسر الكاف وتشديد اللام؛ من الكلال، أي: تفتر وَتَمِلُّ أي: تصير ذات ملال فِي ذَلِكَ الوَقْتِ! فَقَالَ أَبُوهُمَا: إنَّ الغُرَبَاءَ وَأَوْلَادَ الكُبَرَاءِ يَأْتُونَنِي مِنْ أَقْطَارِ الأَرْضِ أي: من أطرافها، جمع: قُطْر؛ بضمِّ القاف؛ وهو الطَّرَف.. فَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ أُقَدِّمَ أَسْبَاقَهُم!!. فَبِبَرَكَةِ شَفَقَتِهِ فَاقَ ابْنَاهُ أي: صارا عالمين غالبين عَلَى أَكْثَرِ فُقَهَاءِ أَهْلِ الأَرْضِ الكائنين فِي ذَلِكَ العَصْرِ فِي الفِقْهِ قوله: في الفقه متعلِّق بـ (فاق).

ترك الخصام: وَيَنْبَغِي أَلَّا يَنَازِعَ أَحَدَاً، وَلَا يُخَاصِمَهُ لِأَنَّهُ أي: التنازع والتخاصم يُضِيْعُ من التضييع أَوْقَاتَهُ بأن صرفها إلى أمر غير مفيد. قِيْلَ: المُحْسِنُ سَيُجْزَى على صيغة المبني للمفعول بِإِحْسَانِهِ أي: سيعطىٰ جزاءه في مقابلة إحسانه إلى الدنيا، وَالمُسِيْءُ سَتَكْفِيْهِ مَسَاوِيْهِ أي: سيكفيه قبائحه التي عملها؛ يعني: تتضرَّر نفسه بضرر تلك القبائح التي قصد بها ضرر الغير، ويرجع وبالها إليه، وورد في الأخبار والحكايات ما يدلُّ على صدق هذا الكلام.

---

(١) جمع سبق، وقدمنا أنه الحصة الدرسية أول ما تتلقى. وإذا أعيدت فهي التكرار.

أَنْشَدَنِي أي: قرأ عليَّ الشَّيْخُ الإمَامُ رُكْنُ الإسْلَامِ مُحَمَّدُ بنُ أَبِي بَكْرٍ المَعْرُوفُ بِإِمَامِ « خواهر زاده»[1] المُفْتِي رَحِمَهُ الله؛ قَالَ: أَنْشَدَنِي سُلْطَانُ الشَّرِيْعَةِ يُوسُفُ الهَمَدَانِيُّ رَحِمَهُ الله هَذَا الشِّعْرَ:

دَعِ المَرْءَ أي: اتركه لَا تَجْزِهِ من الجزاء أي: لا تجازه عَلَى سُوءِ فِعْلِهِ، وهذه الجملة استئناف كأنَّه قيل: ما معنى ترك الرجل؟ فأجاب: بأنَّك لاتجزه على سوء فعله، بل خلِّ سبيله سَيَكْفِيْهِ مَا فِيْهِ من القبائح، وَمَا هُوَ فَاعِلُهُ[2] يعني: يكفيه فعله القبيح ويرجع وباله إليه.

وَقِيْلَ: مَنْ أَرَادَ أَنْ يُرْغِمَ أَنْفَ عَدُوِّهِ وهذا كناية عن قهر العدوِّ وتحقيره.. فَلْيُكَرِّرْ هَذَا الشِّعْرَ. وَأُنْشِدَتْ على صيغة المجهول:

إِذَا شِئْتَ أَنْ تَلْقَى عَدُوَّكَ رَاغِمًا حال كونك راغماً[3] ومحقِّراً إيَّاه.

وَتَقْتُلَهُ غَمًّا أي: لأجل الغمِّ، وَتُحْرِقَهُ من الإحراق هَمًّا أي: حزناً.

فَرُمْ أمرٌ حاضر من الرَّوْم والطلب أي: اطلب لِلْعُلَا في العلم. وهذه الجملة جواب (إذا)، وَازْدَدْ مِنَ العِلْمِ إِنَّهُ أي: لأنَّه والضمير للشأن.

مَنِ ازْدَادَ عِلْمًا تمييزٌ أي: من جهة العلم.. زَادَ حَاسِدَهُ غَمًّا.

---

(١) وهو محمد بن الحسين البخاري، ومعناه (ابن أخت عالم)، إذ هي لفظة فارسية.

(٢) من قبيح فعله، لأن الفعل عنوان الفاعل.

(٣) أَرْغَم أنفه كنايةٌ عن قهره وغلبته، لأنَّ الأنف علامة رِفعة الإنسان، والإرغامُ وضعه في الرغم؛ وهو التراب.

قِيْلَ: عَلَيْكَ أي: الزم أنْ تَشْتَغِلَ بِمَصَالِحِ نَفْسِكَ؛ لَا بِفَهْمِ عَدُوِّكَ، فَإِذَا أَقَمْتَ أي: أدَّيت وحصَّلت مَصَالِحَ نَفْسِكَ تَضْمَنُ بِذَلِكَ قَهْرَ عَدُوِّكَ لأنَّ العدوَّ إذا رأى مصالِحَك حاصلة وأمورك منظَّمة اغتمَّ واضطرب أشدَّ اضطراب؛ فكان ذلك قهراً له.

شؤم المعاداة: وَإِيَّاكَ أي: اِتَّقِ وَالْمُعَادَاةَ أي: العداوة بالغير فَإِنَّهَا أي: المعاداة تَفْضَحُكَ وَتُضَيِّعُ أَوْقَاتَكَ. لأنَّك إذا اشتغلتَ بالعداوة وبأسبابها تشغَلُك عن العبادة وتفرِّقُ في خواطرك؛ فلا تقدِرُ على تحصيل العلم فتضيع أوقاتك، وَعَلَيْكَ بِالتَّحَمُّلِ أي: بتحمُّل الجَوْر والأذى.. لَا سِيَّمَا مِنَ السُّفَهَاءِ[1].

قَالَ عِيْسَى ابنُ مَرْيَمَ صَلَوَاتُ الله عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِ:

احْتَمِلُوا[2] مِنَ السَّفِيْهِ وَاحِدَةً كَيْ تَرْبَحُوا عَشْرَاً أي: احتملوا من السفيه أذيَّة واحدة كي تتخلَّصوا من عشر.

---

(١) وخيره معهم الصمت، وقد قيل:

إِذَا نَطَقَ السَّفِيْهُ فَلَا تُجِبْهُ ... فَخَيْرٌ مِنْ إِجَابَتِهِ السُّكُوتُ

فَإِنْ كَلَّمْتَهُ فَرَّجْتَ عَنْهُ ... وَإِنْ خَلَّيْتَهُ كَمَداً يَمُوتُ

وقد وصف الحقُّ تعالى خيار عباده ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان: ٦٣].

(٢) لأنَّك إن رددت عليه سَفَهه.. ازداد جرأة عليك.

بَلَوْتُ أي: اختبرتُ وامتحنت[1] النَّاسَ قَرْنَاً بَعْدَ قَـرْنٍ أي: زمانـاً بعـد زمان.

فَلَمْ أَرَ من الرؤية غَيْرَ خَتَّالٍ وَقَالِ أي: غير غدَّار ومبغض.

وَلَمْ أَرَ فِي الخُطُوبِ جمع: خَطْب؛ بفتح الخاء وسكون الطاء وهـو الأمـر العظيم، أي: ولم أَرَ في الأمور العظام أَشَدَّ وَقْعَاً أي: شيئاً أشدَّ تأثيراً

وَأَصْعَبَ بالنصب عطف عـلى (أشـدَّ) مِـنْ مُعَـادَاةِ الرِّجَـالِ أي: مـن عداوة بعضهم لبعض.

وَذُقْتُ على صيغة المتكلِّم من الذوق مَرَارَةَ الأَشْيَاءِ طُرَّاً أي: جميعاً

وَمَا ذُقْتُ شيئاً أَمَرَّ مِنَ السُّؤَالِ أي: ليس شيء أشدَّ مرارةً مـن الـسؤال وعرضِ الاحتياج.

سوء الظن: وَإِيَّاكَ أَنْ تَظُنَّ شَرَّاً بِالْمُؤْمِنِيْنَ، فَإِنَّـهُ أي: ذلـك الظـنُّ الـسوء مَنْشَأُ العَدَاوَةِ أي: محلُّ نشأتها وحصولها، وَلَا يَحِلُّ ذَلِـكَ أي: سـوء الظـنِّ، لِقَوْلِهِ ﷺ: « ظُنُّوا بِالْمُؤْمِنِيْنَ خَيْرَاً»[2].

---

(١) الأبيات من الوافر.

بلوت: امتحنت. القرن: الجيل، أو مطلق الزمن. الختَّال: الغادر. القالي: الكـاره. الخطـوب: جمع خطب: الأمر المهم. الوقع: الأثر. طرَّاً: جميعاً.

(٢) ويشير إلى معناه ما ورد في تفسير قولـه تعـالى ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتُ لِلطَّيِّبِينَ﴾ [النـور: ٢٦]. عـن سعيد ابن جبير رضي الله عنه: الذين يظنُّون بالمؤمنين والمؤمنات خيراً.

أسبابه: وَإِنَّمَا يَنْشَأُ ذَلِكَ أي: سوء الظَّنِّ مِنْ خُبْثِ النِّيَّةِ، وَسُوءِ السَّرِيْرَةِ أي: السِّرِّ؛ وهو اسم لما يُكتَم.

كَمَا قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ[1]:

إِذَا سَاءَ فِعْلُ المَرْءِ سَاءَتْ ظُنُونَهُ يعني: إذا قبح فعل الإنسان قبُحت ظنونه، فينبغي حسن ظنِّه بأصدقائه.

وَصَدَّقَ مَا يَعْتَادَهُ مِنْ تَوَهُّمِ أي: صدَّق ما يعتاده من توهُّم وخاطر يخطر على قلبه.

وَعَادَى مُحِبِّيْهِ أي: أظهر المعاداة على محبِّيه بِقَوْلِ عِدَاتِهِ في حقِّ الأحبَّة قولاً فاسداً

وَأَصْبَحَ فِي لَيْلٍ مِنَ الشَكِّ مُظْلِمِ أي: صار في حقِّ الأحبَّاء في شكٍّ مظلم كالليل يعني: يشكُّ في صداقة أحبَّائه وكمال مودَّتهم له بقول الأعداء، بناءً على ما قيل: مَنْ يَسْمَعْ يُخِلّ[2].

التنزه عن الجاهل: وَأَنْشَدْتُ لِبَعْضِهِمْ[3]:

تَنَحَّ عَنِ القَبِيْحِ وَلَا تَرُدَّهُ بل اتركه بالكليَّة وَمَنْ أَوْلَيْتَهُ أي: أعطيته حُسْنَاً أي: شيئاً حسناً من الأنعام فَزِدْهُ أي: ما أعطيته

---

(١) من البسيط.

(٢) معناه: مَن يستمع قول واشٍ أخلَّ بالصحبة.

(٣) من الوافر. تنحَّ: ابتعد. أوليتَه: قدَّمت له. الكيد: المكر والبغضاء.

سَتُكْفَى بصيغة المخاطب المبنيَّة للمفعول، أي: سيكفيك الله تعالى مِنْ عَدُوِّكَ كُلَّ كَيْدٍ أي: جميع مَكْرِه وحِيَلِهِ فيرجع إليه ضرره

إذَا كَادَ من الكيد العَدُوُّ فَلَا تَكِدْهُ أي: تكده أنت، بل فوَّضه لله تعالى فيجازيه.

وَأَنْشَدْتُ لِلْشَيْخِ العَمِيْدِ أَبِي الفَتْحِ البُسْتِيِّ رَحِمَهُ الله:

ذُو العَقْلِ لَا يَسْلَمُ مِنْ جَاهِلٍ أي: لا يخلص من كيد جاهل ومكرِهِ للمعاداة الواقعة بينهما على ما يُنبئ عنه: المرءُ عدوٌّ لَمَا جَهِلَ

يَسُومُهُ أي: يكلِّفه العمل الشاقُّ ظُلْمَاً مفعول له أي: لأجل الظلم وَإِعْنَاتَاً[1] يقال: أعنته؛ أي:أوقعه فيما لا يستطيع الخروج منه.

فَلْيَخْتَرْ السِّلْمَ بكسر السين أي: الصلح عَلَى حَرْبِهِ أي: فليختر ذو العقل الصالح على حرب الجاهل

وَلْيَلْزَمِ الإنْصَاتَ أي: السكوت إنْ صَاتَا[2] الألف للاشباع أي: إن حمل وصاح الجاهل فيلزم العاقل السكوت ولا يقابله، لأنَّ جواب الأحمق السكوت. وفيه من الجناس التامِّ ما لا يخفى.

---

(١) لا يسلم: من السلامة. يسومه: يذيقه. إعناتا: مشقة.

(٢) الإنصات: الصمت والسكوت. صاتا: رفع صوته بالصياح.

الفصل العاشر

فِي

الاسْتِفَادَةِ، وَالاكْتِسَابِ، وَالأَدَبِ

دوام الفائدة: وَيَنْبَغِي أنْ يَكُونَ طَالِبُ العِلْمِ مُسْتَفِيْدَاً أي: طالباً لفائدة العلم فِي كُلِّ وَقْتٍ حَتَّى يَحْصُلَ لَهُ الفَضْلُ والكمال في العلم، وَطَرِيْقُ الاسْتِفَادَةِ: أنْ يَكُونَ مَعَهُ أي: مع الطالب فِي كُلِّ وَقْتٍ مِحْبَرَةٌ[1] أي: وعاء المداد حَتَّى يَكْتُبَ مَا يَسْمَعُ مِنَ الفَوَائِدِ، فَقَدْ قِيْلَ: مَنْ حَفِظَ فَرَّ أي: من حفظ شيئاً فرَّ ذلك الشيء ممن حفظه، فحذف المفعول لظهوره. وَمَنْ كَتَبَ شَيْئَاً قَرَّ[2] أي: استقرَّ ذلك الشيء.

تخير العلم: وَقِيْلَ: العِلْمُ أي: العلم الكامل الحسن مَا يُؤْخَذُ مِنْ أَفْوَاهِ الرِجَالِ أي: المهرة الكاملين، لِأَنَّهُمْ يَحْفَظُونَ أَحْسَنَ مَا يَسْمَعُونَ، وَيَقُولُونَ

---

(١) وقد صار اصطحاب القلم من أيسر الأسباب، بل ربَّما كان جزءاً من التزيُّن!! فلابدَّ أن يصاحبه دفتر فوائد صغيرة الحجم يودَع الجيب دائماً. وقد قيل: من مروءة الرجل أن يرى على ثوبه أثر الحبر.

(٢) المعنى: لا يعتمد على حفظه لئلا يفرَّ المحفوظ من الذاكرة، وإنَّما يدوَّن! لأنَّ المكتوب يستقرُّ ويثبت. وقيل في الحكمة: أضعفُ أضعفِ الحبر أقوى من أقوى الحفظ (الذاكرة).

أَحْسَنَ مَا يَحْفَظُونَ[1].

وصية نبوية: وَسَمِعْتُ الشَّيْخَ الإِمَامَ الأَدِيْبَ الأُسْتَاذَ زَيْنَ الإِسْلَامِ؛ المَعْرُوفُ بِـ« الأَدِيْبِ المُخْتَارِ» يَقُولُ -وهذه الجملة مفعول (سمعت)-: قَالَ هِلَالُ بنُ يَسَارٍ[2]: رَأَيْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ لِأَصْحَابِهِ شَيْئَاً مِنَ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ أي: بيَّن لهم شيئاً منهما، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ الله؛ أَعِدْ أي: كرِّر؛ أمرٌ من الإعادة لِي مَا قُلْتَ بصيغة الخطاب لَهُمْ. فَقَالَ لِي:« هَلْ مَعَكَ مِحْبَرَةٌ؟».فَقُلْتُ: مَا مَعِيَ مِحْبَرَةٌ أي: ليس معي محبرة فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: « يَا هِلَالُ؛ لَا تُفَارِقِ المِحْبَرَةَ، فَإِنَّ الخَيْرَ فِيْهَا وَفِي أَهْلِهَا إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ».

الوصية بالحفظ: وَوَصَّى الصَّدْرُ الشَّهِيْدُ حُسَامُ الدِّيْنِ ابْنَهُ شَمْسَ الدِّيْنِ أَنْ يَحْفَظَ كُلَّ يَوْمٍ شَيْئَاً يَسِيْرَاً مِنَ العِلْمِ وَالحِكْمَةِ، فَإِنَّهُ أي: ذلك الشيء يَسِيْرٌ أي: قليل.. وَعَنْ قَرِيْبٍ أي: بعد قريب يَكُونُ كَثِيْرَاً يعني: بكثرة مرور الأيام يكون ما حفظتَه كلَّ يوم كثيراً.

وَاشْتَرَى عِصَامُ بنُ يُوسُفَ[3] قَلَمَاً بِدِيْنَارٍ أي: بمقابلة دينار لِيَكْتُبَ مَا

---

(١) في حفظي أنَّه من وصايا عبد الملك بن مروان لبنيه: جالسوا العلماء واستمعوا منهم، فإنَّهم يقولون أحسن ما يحفظون، ويحفظون أحسن ما يكتبون، ويكتبون أحسن ما يقرؤون...

(٢) هلال بن زيد بن يسار (مولى النَّبيِّ ﷺ)، أو مولى أنس رضي الله عنه) قال ابن حبان: لا يجوز الاحتجاجُ به بحال؛ في الكتابة بالقلم وعلم الخط!!.

(٣) بلخيٌّ ثبت، يحدِّث عن ابن المبارك والثوري وشعبة، توفي ببلخ سنة: ٢١٥ هـ.

سَمِعَهُ فِي الحَالِ ظرف لـ(يكتب) أي: يكتب ما سمعه في حال سماعه؛ فَالعُمْرُ قَصِيْرٌ؛ وَالعِلْمُ كَثِيْرٌ

غنيمة الوقت: فَيَنْبَغِي أَلَّا يُضَيِّعَ الأَوْقَاتِ وَالسَّاعَاتِ بتعطيلها وصرفها إلى ما لا ينبغي، وَيَغْتَنِمَ اللَّيَالِيَ وَالخَلَوَاتِ أي: المقامات التي يخلو فيها المؤمن عن الموانع والأغيار.

عَنْ يَحْيَى بِنِ مُعَاذٍ الرَّازِيِّ[1] أَنَّهُ قَالَ: اللَّيْلُ طَوِيْلٌ؛ فَلَا تَقَصِّرْهُ من التقصير بِمَنَامِكَ يعني: بالصرف إلى منامك، وَالنَّهَارُ مُضِيْءٌ أي: ذو ضياء فَلَا تُكَدِّرْهُ بِآثَامِكَ، أي: لا تجعله ذا كدورةٍ وظلمة بتلوُّثات آثامك.

غنيمة الشيوخ: وَيَنْبَغِي أَنْ يَغْتَنِمَ الشُّيُوخَ، لقوله ﷺ: «البَرَكَةُ مَعَ أَكَابِرِكُمْ». أي: البركة مع صحبة أكابركم وأقدمكم زماناً، لأنَّهم جرَّبوا الأشياء كثيراً فيعلَّمون أنَّ الفائدة في أيِّ فعل؛ وفي أيِّ قول. وَأن يَسْتَفِيْدَ مِنْهُمْ[2] في أيِّ قول وفي أيِّ فعل منهم، وَلَيْسَ كُلُّ مَا فَاتَ من العلوم يُدْرَكُ على صيغة المبنيِّ للمفعول، أي: لا يقدر أحد أن يصلَه؛ كَمَا قَالَ أُسْتَاذُنَا شَيْخُ الإِسْلَامِ رَحِمَهُ الله فِي «مَشْيَخَتِهِ»: اسم كتاب لـ(صاحب

---

(١) أبو زكريا يحيى بن معاذ، من مشاهير الصوفية الحكماء، من حِكَمِه العشرات مما يظنُّه الناس أحاديثَ نبوية، من كبار الزاهدين، من تصانيفه: كتاب المريدين. توفي سنة: ٢٥٨هـ.

(٢) ويبادر الى استجازة المتقدِّمين منهم بالسِّنِّ ليحافظ على علوِّ الإسناد، ولو لم يتهيَّأ له التلقي عنهم.

«الهداية»): كَمْ مِنْ شَيْخٍ كَبِيْرٍ أَدْرَكْتُهُ وَمَا اسْتَخْبَرْتُهُ[1] أي: ما طلبت منه الخِبْرة.

وَأَقُولُ عَلَى هَذَا الفَوْتِ مُنْشِئاً هَذَا البَيْتَ:

لَهَفِي عَلَى فَوْتِ التَّلَاقِي لَهَفاً كلمة (لهفاً) كلمة تحسُّر يتحسَّر بها على شيءٍ فائت وهي منادى، وألفُها منقلبة عن ياء المتكلِّم. والمعنى: يا حسرتا ويا ندامتا على فوت التلاقي مع أكابر العلماء وأكابر الفضلاء، أحضري فهذا أوانك. ولهفا الثاني تأكيد للأول.

مَا كُلُّ مَا فَاتَ وَيَفْنَى يُلْفَى[2] (ما) الأولى نافية؛ والثانية موصولة، وقوله: (يُلْفَىٰ) على صيغة المبنيِّ للمفعول أي: يوجد؛ والمعنى: لا يوجد كلُّ ما فات ويفنى، ولا يمكن تحصيلُه! فهذا تحسُّر وتأسُّف محض، والتأسُّف لا ينفع بعد مضيِّ الحال.

خزي الإعراض: قَالَ عَلِيٌّ كَرَّمَ الله وَجْهَهُ: إِذَا كُنْتَ فِي أَمْرٍ أي: إذا كنت في تحصيل شيءٍ من الأشياء فَكُنْ فِيْهِ[3]، يعني: داوم في تحصيله ولا تهمله، وَكَفَى بِالإِعْرَاضِ الباء مزيدةٌ كما في قوله تعالى ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا﴾ [الرعد: ٤٣]. أي: كفى الإعراض عَنْ عِلْمِ الله خِزْيَاً وَخَسَارَاً نصب على

---

(١) من كلام شيخه المرغيناني في «مشيخته». ولعل الصواب: استجزته!!.

(٢) من الكامل. ولهف: كلمة تحسر. التلاقي: لقاء أهل العلم. يلفي: يوجد ويتيسَّر تحصيله.

(٣) يعني: أعطِ اهتمامك جميعَه لما تنجزه.

التمييز، أي: الإعراض عن علم الله تعالى خزيٌ وفظاعة في الدنيا والآخرة يجب أن يحترز عنها.

و اسْتَعِذْ بِالله مِنْهُ أي: من الإعراض عن علم الله تعالى وفواته لَيْلَاً وَنَهَارَاً نصب على الظرفية أي: في الليل والنهار.

التحمل والتملق: وَلَابُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنْ تَحَمُّلِ المَشَقَّةِ وَالمَذَلَّةِ الكائنتين فِي طَلَبِ العِلْمِ، وَالتَمَلُّقِ يقال: تملَّقه.. تملَّق له.. تملُّقاً: تودَّد إليه وتلطَّف فيه مَذْمُوْمٌ في شيءٍ من الأشياء إلَّا فِي طَلَبِ العِلْمِ فالاستثناء مفرَّغ[1]، فَإِنَّهُ لَا بُدَّ لَهُ أي: لطالب العلم مِنَ التَّمَلُّقِ لِلْأُسْتَاذِ وَالشُّرَكَاءِ وَغَيْرِهِمْ من العلماء لِلاسْتِفَادَةِ مِنْهُمْ.

قِيْلَ في تأييد هذا المعنى: (العِلْمُ عِزٌّ أي: عزَّة لَا ذُلَّ بضمِّ الذال أي: لا مذلَّة ولا حقارة فِيْهِ، وَلَا يُدْرَكُ أي: لا يتوصَّل إليه إلَّا بِذُلٍّ لَا عِزَّ فِيْهِ. المراد بهذا الذلِّ: تملُّق الطالبين للأستاذ والشركاء، وعرض الاحتياج إليهم في التعلُّم، وهذا ذلٌّ يؤدِّي إلى عزٍّ أبديٍّ، وفي هذا القول من العكس المستوي ما لا يخفى.

وَقَالَ القَائِلُ ولعلَّه لم يذكر اسم الشاعر لعدم علمه به!:

أَرَى لَكَ نَفْسَاً تَشْتَهِي أي: تطلب بلذَّة أَنْ تُعِزَّهَا أن تجعلها عزيزة!!

فَلَسْتَ بصيغة الخطاب تَنَالُ العِزَّ حَتَّى تُذِلَّهَا[2] أنت بذلِّ التملُّق.

---

(١) معناه: أن المستثنى من غير جنس المستثنى منه كـ(قام القوم إلا حماراً).

(٢) من الطويل.

الفصل الحادي عشر

فِي الوَرَعِ فِي حَالِ التَّعَلُّمِ أي: التحرُّز عن الحرام فِي حَالِ التَّعَلُّمِ.

فقد التورع: رَوَى بَعْضُهُمْ حَدِيْثَاً فِي هَذَا البَابِ أي: باب الورع عَنْ رَسُولِ الله ﷺ أَنَّهُ قَالَ: « مَنْ لَمْ يَتَوَرَّعْ فِي تَعَلُّمِهِ ابْتَلَاهُ الله تَعَالَى بِأَحَدِ ثَلَاثَةِ أَشْيَاءَ: إمَّا ١- أَنْ يُمِيْتَهُ فِي شَبَابِهِ بأن قدِّر في العلم الأزليِّ أن ذلك الرجل إن لم يتورَّع في حال تعليمه يموت في زمان شبابه، وهذا قضاء معلَّق أَوْ ٢- يُوْقِعَهُ بالنصب معطوف على (أن يميته) فِي الرَّسَاتِيْقِ أي: في القرى بين قوم جاهلين أَوْ ٣- يَبْتَلِيْهِ بِخِدْمَةِ السُّلْطَانِ»[1] فيضيع ما حصَّل من العلوم.

فَمَهْمَا كَانَ طَالِبُ العِلْمِ أَوْرَعَ.. كَانَ عِلْمُهُ أَنْفَعَ، وَالتَّعَلُّمُ لَهُ أي: لمثل هذا الطالب أَيْسَرُ، وَفَوَائِدَهُ أَكْثَرُ ببركة الورع.

الورع الكامل: وَمِنَ الوَرَعِ الكَامِلِ ١- أَنْ يَحْتَرِزَ عَنِ الشِّبَعِ بكسر الشين وفتح الباء: ضدُّ الجوع وَكَثْرَةِ النَّوْمِ، وَكَثْرَةِ الكَلَامِ فِيْمَا لَا يَنْفَعُ أي: كثرة

---

(١) لم أجد تخريجه! والرساتيق: القرى والبساتين، وفي الحالات الثلاثة يحرم ثمرة نشر العلم، وأهم الورع العمل بالعلم فينال جزاءه « مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ أَوْرَثَهُ الله عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ».

ولا نعلم شيئاً من العبادات جزاؤه من مثله إلَّا العلم، إذ لا لذَّة لمن عاناه فوق لذَّته، وما عدا ذلك لا تمتُّع فيه لأهله. وفي هذا جوزي ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ وَيُعَلِّمُكُمُ ٱللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

البحث فيما لا ينفع من العلوم، لأنَّها لغو محض وتضييع عمر، وَأَنْ ٢- يَتَحَرَّزَ عَنْ أَكْلِ طَعَامِ السُّوقِ إِنْ أَمْكَنَ الاحتراز عنه، لِأَنَّ طَعَامَ السُّوْقِ أَقْرَبُ لِلْنَجَاسَةِ وَالخَبَاثَةِ، لعدم مبالاة أهله من وقوع النجاسة فيه، وَأَبْعَدُ عَنْ ذِكْرِ الله، وَأَقْرَبُ إِلَى الغَفْلَةِ؛ لوقوعه في مقام أهل الغفلة، وَلِأَنَّ أَبْصَارَ الفُقَرَاءِ تَقَعُ عَلَيْهِ؛ أي: على ذلك الطعام.. وَلَا يَقْدِرُونَ عَلَى الشِّرَاءِ مِنْهُ، فَيَتَأَذَّوْنَ بِذَلِكَ أي: بوقوع نظرِهم عليه مع عدم القدرة على اشترائه فَتَذْهَبُ بَرَكَتُهُ.

ترك الحيطة: وَحُكِيَ أَنَّ الشَّيْخَ الإِمَامَ الجَلِيْلَ مُحَمَّدَ بنَ الفَضْلِ رَحِمَهُ الله[1] كَانَ فِي حَالِ تَعَلُّمِهِ لَا يَأْكُلُ مِنْ طَعَامِ السُّوْقِ، وجملة (لا يأكل) في محلِّ نصب على أنَّها خبر (كان)، وَكَانَ أَبُوهُ يَسْكُنُ فِي الرِّسْتَاقِ أي: في القرية، وَيُهَيِّءُ لَهُ طَعَامَهُ، وَيَدْخُلُ إِلَيْهِ يَوْمَ الجُمُعَةِ، فَرَأَى معطوف على مقدَّر تقديره: فدخل فرأى فِي بَيْتِ ابْنِهِ خُبْزَ السُّوْقِ يَوْمَاً، فَلَمْ يُكَلِّمْهُ سَاخِطَاً عَلَيْهِ أي: غاضباً على ابنه، فَاعْتَذَرَ ابْنُهُ أي: بيَّن العذر؛ فَقَالَ: مَا اشْتَرَيْتُهُ؛ وَلَمْ أَرْضَ بِهِ أي: بشراء ذلك الخبز من السوق، وَلَكِنْ أَحْضَرَهُ شَرِيْكِي! فَقَالَ لَهُ أَبُوهُ: لَوْ كُنْتَ تَحْتَاطُ وَتَتَوَرَّعُ عن مثله.. لَمْ يَجْتَرِئ ولم يقدر شَرِيْكُكَ: مرفوعٌ على أنَّه فاعلُ (لم يجترئ) على بِذَلِكَ، أي: بإحضار طعام السوق عندك.

---

(١) أبو بكر الفضلي البخاري الكماري، ومن أئمة مذهبنا المشاهير، وكان معتمداً يُرحَل ويرجع إليه في الرواية والدراية، تفقه على الأستاذ السَّبْذَموني. وتوفي سنة: ٣٨١ هـ، أو ٣٧٠هـ وفتاواه مشهورة معتبرة.

ثمرة الورع: وَهَكَذَا -أي: بمثل ذلك التورُّع - كَانُوا أي: العلماء يَتَوَرَّعُونُ، فَلِذَلِكَ وُفِّقُوا- على صيغة المبنيِّ للمفعول؛ أي: جعلوا موفَّقين- لِلْعِلْمِ وَالنَّشْرِ أي: نشر العلم إلى طالبيه حَتَّى بَقِيَ اسْمُهُمْ إِلَى يَوْمِ القِيَامَةِ بالذكر الجميل والثناء الجزيل.

حذر المكثار: وَوَصَّىٰ فَقِيْهٌ مِنْ زُهَّادِ الفُقَهَاءِ طَالِبَ العِلْمِ منصوب على أنَّه مفعول (وصَّى): عَلَيْكَ أَنْ تَتَحَرَّزَ عَنِ الغِيْبَةِ أي: الزم التحرُّز عن الغيبة؛ وَعَنْ مُجَالَسَةِ المِكْثَارِ[1] أي: كثير الكلام.

وَقَالَ أي: ذلك الفقيه: إنَّ مَنْ يُكْثِرِ الكَلَامَ من الإكثار يَسْرِقُ من باب ضرب عُمُرَكَ، وَيُضَيِّعُ أَوْقَاتَكَ[2]، لأنَّه ليس في إكثاره كثيرُ نفع فباستماعه ينقص العمر ويضيع الأوقات.

تجنب الفساد وأهله: وَمِنَ الوَرَعِ ١ - أَنْ يَجْتَنِبَ أي: طالبُ العلم أَهْلَ الفَسَادِ وَالمَعَاصِي وَالتَّعْطِيْلِ، أي: المفسدين العاصين الباطلين المضيِّعين أعمارهم فيما لا يهمُّ، فَإِنَّ المُجَاوَرَةَ أي: المقارنة مُؤَثِّرَةٌ لَا مَحَالَةَ والمحالة مصدر التحوُّل أي: لا تحوُّل ولا انقلاب، بل التأثير لسبب المجاورة ثابت بلا شكٍّ، فلابدَّ من التحرُّز عن أمثالهم؛ تحرُّزاً عن التخلُّق بأخلاقهم.

وَ٢- أَنْ يَجْلِسَ مُسْتَقْبِلاً القِبْلَةَ، وَيَكُونَ بالنصب عطف على (أن

---

(١) المكثار من الكلام الفارغ، أو مما لا فائدة فيه.

(٢) والوقت كالسيف إن لم تقطعه قطعك.

يجلس) مُسْتَنّاً أي: آخذاً وعاملاً بِسُنَّةِ النَّبِيِّ ﷺ، وَيَغْتَنِمَ دَعْوَةَ أَهْلِ الخَيْرِ، من العلماء والصالحين وَ٣- يَتَحَرَّزَ عَنْ دَعْوَةِ المَظْلُومِيْنَ، لأنَّ دعوتهم مستجابة بالحديث الصحيح[1].

ثمرة الأدب: حُكِيَ أنَّ رَجُلَيْنِ خَرَجَا فِي طَلَبِ العِلْمِ لِلْغُرْبَةِ لديار الغربة.. وَكَانَا شَرِيْكَيْنِ فِي العِلْمِ، فَرَجِعَا بَعْدَ سِنِيْنَ إلَى بَلَدِهِمَا، وَقَدْ فَقِهَ أَحَدُهُمَا أي: والحال أنَّه صار أحدهما فقيهاً.. وَلَمْ يَفْقَهِ الآخَرُ!! فَتَأَمَّلَ فُقَهَاءُ البَلْدَةِ، وَسَأَلُوا عَنْ حَالِهِمَا وَتَكْرَارِهِمَا وَجُلُوسِهِمَا! فَأُخْبِرُوا أي: أخبر الرجال الذين يقارنونهم في زمان تحصيلهم: أَنَّ جُلُوسَ الَّذِي تَفَقَّهَ فِي حَالِ التَّكْرَارِ كَانَ أي: وجد وثبت مُسْتَقْبِلَ القِبْلَةِ حالٌ من الضمير المستكنِّ في (كان)، وَالمِصْرِ الَّذِي حَصَّلَ العِلْمَ فِيْهِ، وَالآخَرِ بالجرِّ أي: وجلوسَ الآخر كَانَ مُسْتَدْبِرَ القِبْلَةِ وَوَجْهُهُ إلَى غَيْرِ المِصْرِ!! جملة اسمية في موضع الحال.

فَاتَّفَقَ العُلَمَاءُ وَالفُقَهَاءُ أنَّ الفَقِيْهَ المعهود فَقُهَ من باب حَسُن أي: صار فقيهاً بِبَرَكَةِ اسْتِقْبَالِ القِبْلَةِ، إذْ هُوَ السُّنَّةُ فِي الجُلُوسِ في جميع الأحوال، إلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ المستدعيةِ للجلوس إلى غير القبلة، وَبِبَرَكَةِ دُعَاءِ المُسْلِمِيْنَ، فَإِنَّ المِصْرَ لَا يَخْلُو عَنِ العُبَّادِ جمع: عابد وَأَهْلِ الخَيْرِ، فَالظَّاهِرُ أنَّ عَابِدَاً مِنَ العُبَّادِ دَعَا لَهُ فِي اللَّيْلِ، وتقييد الدعاء بالليل!! لكونه من مظانِّ الإجابة غالباً.

---

(١) بل بأحاديث، ومنها قوله ﷺ: «دَعْوَةُ المَظْلُومِ مُسْتَجَابَةٌ»، أخرجه أحمد؛ عن أبي هريرة، وعنه الطيالسي بزيادة: «وَإِنْ كَانَ فَاجِرَاً.. فَفُجُورُهُ عَلَى نَفْسِهِ».

الحرمان للتهاون: فَيَنْبَغِي لِطَالِبِ العِلْمِ أنْ لَا يَتَهَاوَنَ أي: لا يتكاسل بِالآدَابِ وَالسُّنَنِ، فَإِنَّ مَنْ يَتَهَاوَنُ بِالآدَابِ.. حُرِمَ بشآمته السُّنَنَ أي: من السنن، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالسُّنَنِ حُرِمَ الفَرَائِضَ أي: من أداء الفرائض، وَمَنْ تَهَاوَنَ بِالفَرَائِضِ.. حُرِمَ الآخِرَةَ[1] أي: من ثواب الآخرة الموعودِ لأهل الفرائض. وَبَعْضُهُمْ قَالَ: هَذَا حَدِيْثٌ عَنْ رَسُولِ الله ﷺ.

عون التحصيل: وَيَنْبَغِي أَنْ يُكْثِرَ من الإكثار الصَّلَاةَ أي: النوافل والتطوُّعات، وَيُصَلِّي صَلَاةَ الخَاشِعِيْنَ، فَإِنَّ ذَلِكَ أي: أداء الصلاة على وجه الخشوع عَوْنٌ لَهُ أي: لطالب العلم عَلَى التَّحْصِيْلِ وَالتَّعَلُّمِ.

وَأُنْشِدْتُ على صيغة المبنيِّ للمفعول لِلْشَيْخِ الجَلِيْلِ الزَّاهِدِ الحَاجِّ نَجْمِ الدِّيْنِ عُمَرَ بنِ مُحَمَّدٍ النَّسَفِيِّ[2]:

كُنْ لِلْأَوَامِرِ وَالنَّوَاهِي حَافِظَاً ومعنى حفظهما: الامتثال بالأوامر والاجتناب عن النواهي، فكأنَّه بالامتثال والاجتناب حفظَهُما عن أن لا يطاع بهما، ويجوز أن يكونا بمعنى المأمورات والمنهيَّات!! والمعنى ظاهر.

---

(١) لأن كلاً من هذه سياجٌ لما دونها. فالآداب سياجُ السنن، والسنن سياجُ الفرائض، والفرائض سياج الآخرة.

(٢) المعروف بـ«مفتي الثقلين» نجم الدين عمر بن محمد، من مشاهير الأعيان فقهاً وأصولاً وحديثاً وكلاماً ونحواً، رزق القبول عند الخاصَّة والعامَّة، تفقَّه على البزدوي وعنه ابنه المجد، له تصانيف قريباً من مئة، منها «طَلْبة الطلبة» (ط)، و«القند في علماء سمرقند» (ط)، ونظم «الجامع الصغير» وهو أول نظم فقهي، توفي بسمرقند سنة: ٥٣٧ هـ.

وَعَلَى الصَّلَاةِ مُوَاظِبَاً وَمُحَافِظَاً أي: وكن على الصلاة مداوماً ومحافظاً، وهي وإن كانت داخلة تحت الأوامر.. إلَّا أنَّها أُفردت بالذكر تعظيماً لشأنها وإيذاناً بأنَّها أمُّ العبادات ومستتبعة لسائر الطاعات، والاجتناب عن الفواحش والمنكرات بشهادة القرآن؛ وهو قوله تعالى ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ﴾ [العنكبوت: ٤٥].

وَاطْلُبْ عُلُومَ الشَّرْعِ وَاجْهَدْ وَاسْتَعِنْ أي: اطلب المعاونة

بِالطَّيِّبَاتِ أي: بالأعمال الصالحات والأخلاق المرضيَّة تَصِرْ مجزومٌ على أنَّه جواب الأمر فَقِيْهَاً حَافِظَاً.

وَاسْأَلْ إِلَهَكَ أي: من إلهك حِفْظَ حِفْظِكَ أي: اسأل من الله حفظ لحفظ الذي أعطاك إياه بأن يحفظ القوَّة الحافظة عن الآفات المخلَّة لها رَاغِبَاً أي: مظهراً الرغبة.

فِي فَضْلِهِ ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا﴾.

وَقَالَ أي: عمر النسفي أيضاً رحمه الله:

أَطِيْعُوا أي: أطيعوا الله ورسوله وَجِدُّوا -بكسر الجيم أي: اجتهدوا- وَلَا تَكْسَلُوا في الطاعات

وَأَنْتُمْ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ أي: والحال أنَّكم إلى حكم ربِّكم ترجعون.. فترون ما أعدَّ للمطيعين من الدرجات، وللعاصين من الدَّرَكات.

وَلَا تَهْجَعُوا من الهجوع وهو النوم؛ أي: لا تناموا فَخِيَارُ الوَرَى الفاء

للتعليل والخيار :جمع خير بالتشديد، والورى: المخلوق؛ أي: أشرف المخلوقين وأبرارهم.

﴿ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[1] انتصاب (قليلاً) على الظرفية، و(ما) تأكيد معنى القلَّة أي: زماناً قليلاً من الليل ينامون.

ثبوت الحكمة: وَيَنْبَغِي أَنْ يَسْتَصْحِبَ دَفْتَرَهُ أي: يتَّخذه مصاحباً عَلَى كُلِّ حَالٍ لِيُطَالِعَهُ[2]، أي: لأنْ يطالعه. وَقِيْلَ في تأييد هذا المعنى: مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ دَفْتَرٌ فِي كُمِّهِ بضم الكاف وتشديد الميم بالفارسية (آستين).. لَمْ تَثْبُتِ الحِكْمَةُ فِي قَلْبِهِ.

وَيَنْبَغِي أنْ يَكُونَ فِي الدَّفْتَرِ بَيَاضٌ ليكتب فيه ما سمعه من أفواه الرجال، وَيَسْتَصْحِبَ المِحْبَرَةَ أي: وعاء المداد لِيَكْتُبَ مَا سَمِعَ من العلماء المَهَرة، وَقَدْ ذَكَرْنَا حَدِيْثَ هِلَالِ بنِ يَسَارٍ رَضِيَ الله عَنْهُ[3] وهو قوله: رأيت النَّبِيَّ ﷺ يقول لأصحابه شيئاً من العلم والحكمة.. إلخ؛ فقد علم منه أنَّ استصحاب المحبرة خيرٌ.

---

(١) وهما من المتقارب. لا تهجعوا: لا تضعوا جوانبكم للفراش (كناية عن النوم). الورى: الخلق. وقد مدحهم القرآن الكريم ﴿ كَانُواْ قَلِيلًا مِّنَ ٱلَّيۡلِ مَا يَهۡجَعُونَ ﴾[الذاريات: ١٧].

(٢) ومن دأب شيوخنا أن يصطحبوا منوَّعاتٍ علميَّةً خفيفة في منتزهاتهم، أو رحلاتهم وأسفارهم العادية، فلا ينقطعون عن العلم في سفر أو حضر.

(٣) تقدم ص١٦٩.

الفصل الثاني عشر

فِيمَا يُورِثُ الحِفْظَ وَفِيمَا يُورِثُ النِّسْيَانَ أي: يعطي.

أسبابه: وَأَقْوَى أَسْبَابِ الحِفْظِ: ١- الجِدُّ أي: الاجتهاد، وَ٢- المُوَاظَبَةُ، وَ٣- تَقْلِيْلُ الغِذَاءِ -بالغين والذال المعجمتين: اسم لما يتغذَّى به- وَ٤- صَلَاةُ اللَّيْلِ أي: الصلاة في الليل تطوُّعاً كالتهجُّد، وَ٥- قِرَاءَةُ القُرْآنِ مبتدأٌ.. مِنْ أَسْبَابِ الحِفْظِ خبره.

نظر المصحف: قِيْلَ: لَيْسَ شَيْءٌ أَزْيَدَ بالنصب خبر(ليس) لِلْحِفْظِ مِنْ قِرَاءَةِ القُرْآنِ نَظَرَاً، أي: بالنظر إلى وجه المصحف، وَقِرَاءَةُ القُرْآنِ نَظَرَاً لا من ظهر القلب أَفْضَلُ[1]. لِقَوْلِهِ ﷺ: « أَفْضَلُ أَعْمَالِ أُمَّتِي قِرَاءَةُ القُرْآنِ نَظَرَاً»[2].

وَرَأَى شَدَّادُ بنُ حَكِيْمٍ[3] بَعْضَ إِخْوَانِهِ فِي المَنَامِ بَعْدَ وَفَاتِهِ، فَقَالَ أي: شدَّاد بن حكيم لِأَخِيْهِ :أيُّ شَيْءٍ وَجَدْتَهُ أَنْفَعَ؟ قوله: (أيُّ شيء) مبتدأ

---

(١) من تلاوته غيباً من الذاكرة.

(٢) أخرجه الحكيم الترمذي في « نوادر الأصول» ٣٣٤؛ عن عبادة رضي الله عنه.
وفي «كشف الخفا» ٤٢١: « أَعْطُوا العَيْنَ حَظَّهَا مِنَ العِبَادَةِ». قيل: ما حظُّها؟: قال: «النَّظَرُ فِي المُصْحَفِ». الحكيم أيضاً ٣٣٣. وفي البيهقي؛ عن أبي موسى: « أَعْطُوا أَعْيُنَكُمْ حَظَّهَا...».

(٣) القاضي البلخي من أصحاب زفر، توفي سنة: ٢٢٠ هـ.

و(وجدته) على صيغة الخطاب خبرُه، أي: أيُّ الكتاب الذي قرأه وطالعه!! قال: قراءة القرآن نظراً.

الأوراد اللفظية: ويقول عند رفع الكتاب بِاسْمِ الله، وَسُبْحَانَ الله، وَالحَمْدُ لله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ، وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله العَلِيِّ العَظِيْمِ العَزِيْزِ العَلِيْمِ؛ عَدَدَ كُلِّ حَرْفٍ -منصوب بنزع الخافض أي: أقول هذه الكلمات بعدد كلِّ حرفٍ كُتِبَ في الماضي، وَيُكْتَبُ في الحال المستقبل- أَبَدَ الآبِدِيْنَ وَدَهْرَ الدَّاهِرِيْنَ منصوبان على الظرفية لـ (يكتب).

وَيَقُولُ بَعْدَ كُلِّ مَكْتُوبَةٍ[1] أي: صلاة مفروضة آمَنْتُ بِالله الوَاحِدِ الأَحَدِ الحَقِّ؛ وَحْدَهُ لَا شَرِيْكَ لَهُ، وَكَفَرْتُ بِمَا سِوَاهُ.

وَيُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ، فَإِنَّهُ أي: النَّبيُّ ﷺ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِيْنَ[2] أي: رحمة لهم، فببركة الصلاة عليه نرجو نزول الرحمة وشدَّة الحفظ وزوالَ النسيان، قَالَ الشَّافِعِيُّ رَضِيَ الله عَنْهُ:

شَكَوْتُ إِلَى وَكِيْعٍ اسم رجل سُوءَ حِفْظِي أي: من سوء حفظي وعدم تيسيره،

فَأَرْشَدَنِي إِلَى تَرْكِ المَعَاصِي أي: عهد التوجُّه إلى ترك المعاصي فحذف

---

(١) أي: الفرائض الخمس من الصلوات.

(٢) والصلاة عليه مفتاحُ كلِّ خير، وحديث: «إِذَاً تُكْفَى هَمَّكَ وَغَمَّكَ، وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ، وَيُقْضَى دَيْنُكَ». أوضح دليل على ذلك! فصلى الله عليه وآله وسلم.

مفعولَه بقرينة متعلِّقه.

فَإِنَّ الحِفْظَ فَضْلٌ مِنْ إِلَهِي

وَفَضْلُ الله لَايُهْـــدَى لِعَـاصِي[1] أي: والحـال أنَّ فـضل الله لا يعطـى للعاصي، فوجب لمن يطلـب الحفـظ الـذي هـو فـضل الله أن يتحـرَّز عـن المعاصي والآثام، أويجتنب عن الذنوب والإجرام.

أسباب صحية: وَالسِّوَاكُ أي: استعماله وَشُرْبُ العَسَلِ، وَأَكْلُ الكُنْدُرِ بالتركي (كون لك) مَعَ السُّكَّرِ -بالسين المهملة المضمومة والكاف المشدَّدة المفتوحة: عربيٌّ، وبالشين المعجمة المفتوحة والكاف المخفَّفة: فارسي، وَأَكْلُ إِحْدَى وَعِشْرِيْنَ زَبِيْبَةً حَمْرَاءَ كُلَّ يَوْمٍ عَلَى الرِّيْقِ أي: على الجوع يُوْرِثُ الحِفْظَ. قوله: (والسواك) مبتدأ؛ وما بعده عطف عليه، وقوله: (تُورِث الحفظ) خبرُه، وَيَشْفِي مِنْ كَثِيْرٍ مِنَ الأَمْرَاضِ وَالأَسْقَامِ[2].

---

(١) هذا؛ وقد ذكر الذهبي في « السير » (٩/ ١٥١): قال علي بن خشرم: ما رأيت بيد وكيع كتاباً قطُّ، إنما هو حفظ!! فسألته عن أدوية الحفظ؛ فقال: إن علَّمتُك الدواءَ استعملته؟! قلت: إي؛ والله! قال: ترك المعاصي، ما جرَّبتُ مثله للحفظ.

(٢) أما السواك! ففضائله مشهورة أشرنا إلى شيء منها فيما تقدَّم.

وعن أنسﷺ: « عَلَيْكُمْ بِالسِّوَاكِ فَنِعْمَ الشَّيْءُ السِّوَاكُ... يَذْهَبُ بِالحَفَرِ، وَيَنْزِعُ البَلْغَمَ، وَيَجْلُو البَصَرَ، وَيَشُدُّ اللَّثَةَ، وَيَذْهَبُ بِالبَخَرِ، وَيُصْلِحُ المَعِدَةَ، وَيَزِيْدُ فِي دَرَجَاتِ الجَنَّةِ، وَيَحْمَدُ المَلَائِكَةَ، وَيُرْضِي الرَّبَّ، وَيُسْخِطُ الشَّيْطَانَ». قال السيوطي: صحيحٌ. وأقره المُناوي.

وأمَّا العسل!! فشفاء الناس كما تفضَّل الحقُّ جل جلاله. وأفضل شرابه أن يكون محلولاً =

وَكُلُّ مَا يُقَلِّلُ الـبَلْغَمَ وَالرُّطُوبَـاتِ يَزِيْـدُ فِي الحِفْـظِ كالأشـياء اليابـسة المجففَّة. كُلُّ مَا يَزِيْدُ فِي البَلْغَمِ يُورِثُ النِّسْيَانِ كالأشياء المرطبة.

مورثات النسيان: وَأَمَّا مَا يُوْرِثُ النِّسْيَانَ!! فَـ ١- المَعَـاصِي وَ٢- كَثْـرَةُ الذُّنُوبِ، وَ٣- الهُمُومُ، وَ٤- الأَحْزَانُ فِي أُمُورِ الدُّنْيَا، وَ٥- كَثْـرَةِ الأَشْـغَالِ وَالعَلَائِقِ.

وَقَدْ ذَكَرْنَا أي: والحال أنَّه قد ذكرنا أَنَّهُ لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يَهْتَمَّ أي: يحزن لِأَمْرِ الدُّنْيَا، لِأَنَّهُ أي: أمر الدنيا يَضُرُّ وَلَا يَنْفَعُ يعني: قـال المـصنِّفُ في (فـصل التوكل): ولا يهتمُّ العاقل لأمر الدنيا، لأنَّ الهمَّ والحـزن لا يـردُّ المـصيبة؛ ولا ينفع، بل يضرُّ بالقلب والعقل والبدن، ويخلُّ بأعمال الخير. انتهى.

بالماء البارد على الريق صباحاً، فإنَّ فيه سِرَّاً عجيباً.

والكُنْدُر: نوع من العلك نافع جداً لقطع البلغم، ولفظه فارسي معربه «اللُّبَان». وقد نقل البيهقي في « مناقب الشافعي» أنَّه كان يكثر من استعماله لأجل الذكاء والفهم. لكن نقل ابن عبد الحكم عن الشافعيِّ أنَّه أعقبه صبَّ الدم سنة (يعني من البواسير، وكان يوضع له الطست تحت السرير).

وعند الديلمي ـ مما لا يصحُّ ـ: «الكُنْدُر طيبي وطيب الملائكة...».

وفيما يخصُّ الزبيب: أخرج أبو نعيم في «الطبِّ النبويِّ» وابن السُّنِّيِّ؛ عن عليٍّ قال: مَن أكل إحدى وعشرين زبيبة حمراء كلَّ يوم.. لم يَرَ في جسده شيئاً يكرهه.

وفي الحديث: «عَلَيْكُمْ بِالزَّبِيْبِ؛ فَإِنَّهُ يَكْشِفُ الـمِرَّةَ، وَيَذْهَبُ بِالبَلْغَمِ، وَيَشُدُّ العَـصَبَ، وَيَذْهَبُ بِالقِيَاءِ، وَيُحَسِّنُ الخُلُقَ، وَيُطَيِّبُ النَّفْسَ، وَيَذْهَبُ بِالغَمِّ». أخرجه أبـو نعـيم في «الطب»، وأشار السيوطي لضعفه.

ظلمة الهموم: وَهُمُومُ الدُّنْيَا لَا تَخْلُو عَنِ الظُّلْمَةِ فِي القَلْبِ، وَهُمُومُ الآخِرَةِ لَا تَخْلُو عَنِ النُّورِ فِي القَلْبِ، وَيَظْهَرُ أَثَرُهُ أي: أثر ذلك النور في الصَّلَاةِ بأن صلَّاها منشرحاً قلبه وواجداً لذَّاتِها وحلاوتَها.

فَهَمُّ الدُّنْيَا أي: إذا كان همُّ الدنيا لا يخلو عن الظلمة في القلب، وهمُّ الآخرة لا يخلو عن النور في القلب يَمْنَعُهُ أي: العاقل عَنِ الخَيْرِ، لأنَّ سبب الظلمة وسبب النور لا يجتمعان لأنَّهما متنافيان، وَهَمُّ الآخِرَةِ يَحْمِلُهُ عَلَيْهِ أي: على الخير ويحرِّضه عليه؛ لأنَّهما متناسبان.

منفاة الهم: وَالاشْتِغَالُ بِالصَّلَاةِ عَلَى الخُشُوعِ، وَتَحْصِيْلِ العُلُومِ بالجر عطف على قوله (بالصلاة). يَنْفِي الهَمَّ وَالحُزْنَ. قوله (والاشتغال) مبتدأٌ وقوله (ينفي الهمَّ والحزن) خبرُه، كَمَا قَالَ الشَّيْخُ الإمَامُ نَصْرُ بنُ الحَسَنِ المَرْغِيْنَانِيُّ فِي قَصِيْدَةٍ لَهِ أي: قصيدة ألَّفها لنفسه وهي هذه:

اسْتَعِنْ نَصْرَ بنَ حَسَنٍ أي: اطلب المعونة، يا نصر بن الحسن، حذف حرف النداء! لأنَّ حذفه مع العلم شائع.

فِي كُلِّ عِلْمٍ يُحْتَزَنُ أي: يحفظ؛ يعني: اطلب المعونة في تحصيل العلوم التي لا بدَّ من حفظها من الأستاذ والشركاء.

ذَاكَ الَّذِي يَنْفِي الحَزَنَ أي: ما يحفظ من العلوم الَّذي ينفي الحزن والهمَّ، لأنَّه لكمال لذَّته ينفي سائر الخواطر ويجعل صاحبه مشغولاً به فقط.

وَغَيْرُهُ باطل لَا يُؤْتَمَنُ أي: لا يعتبر.

وَقَالَ الشَّيْخُ الإمَامُ بالرفع عطف على (الشيخ نصر بن الحسن) الأجَلُّ نَجْمُ الدِّيْنِ عُمَرُ بنُ مُحَمَّدٍ النَّسَفِيُّ فِي أُمِّ وَلَدٍ لَهُ أي: في وصف جارية مستولَدَة له:

سَلَامٌ أصله سلَّمْتُ سلاماً، فحذف الفعل، وعدل إلى الرفع! لقصد الدوام والاستمرار، فكأنَّه قال: سلامي، أي: سلام من قِبَلي فخصَّص بالمتكلِّم عَلَى مَنْ تَيَّمَتْنِي بتشديد الياء أي: عبَّدَتْه وذلَّلَتْه وتأنيث الفعل! باعتبار المعنى، لأنَّ (مَنْ) عبارةٌ عن الجارية المستولدة بِظُرْفِهَا أي: بظرافتها ولطافتها. وَلَمَعَةِ خَدَّيْهَا أي: بلمعان خدَّيْها وَلَمحَةِ طَرْفِهَا: اللمحة بمعنى اللمعة، والطرْف: العين.

سَبَتْنِي أي: جعلتني أسيراً ومفتوناً بعِشْقها من (سبى العدوَّ سبياً): جعله أسيراً، وَأَصْبَتْنِي: أمالتني إليها فَتَاةٌ مَلِيْحَةٌ بالرفع فاعل لقوله (سبتني) و(أصبتني) على سبيل التنازع، والفتاةُ تأنيث فتىً أي: شابَّة حسنة.

تَحَيَّرَتِ الأوْهَامُ، والوهم ههنا بمعنى: القوَّة الواهمة؛ لا بمعنى الوَهَم الذي هو الطرف المرجوح، والجملة صفة لقوله (فتاةٌ) فِي كُنْهِ وَصْفِهَا أي: في حقيقة وصفها، يعني: تحيَّرت العقول وعجزت عن إدراك الصفات الكمالية التي اتَّصفت بها تلك الفتاة المليحة.

فَقُلْتُ: ذَرِيْنِي أي: اتركيني ودعيني في حالي، وَاعْذُرِيْنِي أي: اقبلي

عذري في عدم اتباعي لك وعدم اشتغالي بهواك؛ فَإِنَّنِي تعليل لما قبله.

شُغِفْتُ يقال: شغف به كـ(فرح): عَلِق به بِتَحْصِيْلِ العُلُومِ وَكَشْفِهَا، فمن كان جلُّ هِمَّته مصروفاً إلى تحصيل العلوم وكشف غوامضها.. لا يتيسَّر له الاشتغال بهوى المحبوبة.

وَلِي أي: ثابت لي، وهو خبر مقدَّم فِي طِلابِ العِلْمِ وَالفَضْلِ وَالتُّقَى أي: في طلب حصولهما.

غِنَىً -بكسر الغين ضِدُ الفقر؛ وهو مبتدأ مؤخَّر- عَنْ غِنَاءِ الغَانِيَاتِ الغِناء بالكسر والمدِّ بمعنى: التغنِّي والغانيات الغنيات وَعَرْفِهَا[1] بفتح العين وسكون الراء، بمعنى: الرائحة طيِّبةً كانت؛ أو منتنة وأكثر استعماله في الطَّيِّبة، والمراد هنا: الطيبة، يعني: حصل لي غنىً عن استعمال الملاهي واتباع الشهوات بطلب العلم والفضل والتقى.

فعُلِم من كلام الشيخين أنَّ الاشتغال بتحصيل العلوم ينفي الهمَّ والحُزْن واتباع الهوى والشهوات.

أسباب النسيان: وَأَمَّا أَسْبَابُ نِسْيَانِ العِلْمِ! فَـ١- أَكْلُ الكُزْبَرَةِ[2] الرَّطْبَةِ مبتدأ خبره فيما بعده تورث النسيان والكزبرة بالتركي (كشيخ)، وَ٢- أَكْلُ التُّفَاحِ الحَامِضِ أي: المزِّ الجامع بين الحلاوة والمرارة، وَ٣- النَّظَرُ إِلَى

---

(١) من البحر الطويل.

(٢) عشبة حولية من فصيلة السرخسيات، وهي شبيه بالبقدونس شبهاً كبيراً.

المَصْلُوبِ، وَ٤- قِرَاءَةُ لَوْحِ القُبُورِ[١] أي: قراءة الخطِّ المكتوب على أحجار القبور، وَ٥- المُرُورُ بَيْنَ قِطَارِ[٢] الجِمَالِ القطار بالكسر معروف، وَ٦- إِلْقَاءُ القَمْلِ -بفتح القاف وسكون الميم معروف- الحَيِّ عَلَى الأَرْضِ، وَ٧- الحِجَامَةُ عَلَى نُقْرَةِ القَفَا[٣] أي: حفرتها، ففي الحديث: «الحِجَامَةُ فِي حُفْرَةِ الرَّأْسِ تُورِثُ النَّسَيَانَ».. فَتَجَنَّبُوهَا كُلَّهَا تأكيد تُورِثُ النَّسَيَانَ[٤]. وردت الآثار في كلِّها.

---

(١) هي ما يُكتَب عليه شيء من الآيات. أو اسم الميت أو بعض رثائه. وهي ما يعرف بـ«الشواهد».

(٢) سلسلة من الإبل مربوط بعضها بالبعض الآخر؛ إما بذيل الذي قبله، أو رحله.

(٣) النُّقْرة: أسفلُ الرأس مما يلي العنق؛ وهو ما بين العصبين، وفي الديلمي؛ عن أنس رضي الله عنه مرفوعاً: «الحِجَامَةُ فِي نُقْرَةِ الرَّأْسِ تُوْرِثُ النَّسَيَانَ فَتَجَنَّبُوا ذَلِكَ».

والحِجَامة: بذل الدم الفائض في البدن. وقد تداوى به سيِّد الخلق صلوات الله عليه.

(٤) بل وأشياء كثيرة غيرها. انظر للتوسع رسالة « الكشف والبيان» بتحقيقنا ونشر دار النعمان للعلوم بدمشق.

الفصل الثالث عشر

فِي مَا يَجْلُبُ الرِّزْقَ أي: في الأسباب التي تجلب الرِّزق وتجرُّه، وَمَا يَمْنَعُ، وَمَا يَزِيْدُ فِي العُمُرِ وَمَا يَنْقُصُ.

روافد الرزق: ثُمَّ لَا بُدَّ لِطَالِبِ العِلْمِ مِنَ القُوْتِ كي يتقوَّى به في طلب العلم وَمَعْرِفَةِ مَا يَزِيْدُ فِيْهِ أي: معرفة شيءٍ يزاد بسببه القوت، وَمَا يَزِيْدُ فِي العُمُرِ وَالصِّحَّةِ[1] أي: لابدَّ من معرفتهما؛ لِيَتَفَرَّغَ علَّة قوله: (لابدَّ لطالب العلم.... إلخ) أي: ليكون فارغاً لِطَلَبِ العِلْمِ، وَفِي كُلِّ ذَلِكَ المذكور صَنَّفُوا كُتُبَاً تبيِّن دلائل الكلِّ، فَأَوْرَدْتُ بَعْضَهَا أي: بعض الكتب المصنَّفة، أي: بعض ما فيها هُنَا أي: في هذا المختصر عَلَى سَبِيْلِ الاخْتِصَارِ، ولـمَّا أراد أن يشرع في بيانه قال على سبيل الاستئناف:

قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: « لَا يَرُدُّ القَدَرَ هو: تحديد كلِّ مخلوق بحدِّه الذي يوجد من الحسن والقبح والنفع والضُّرِّ، وما يحويه من زمان ومكان، وما

---

(١) وينبغي أن ينويَ الاستزادة منهما لطلب العلم وتحصيله ونشره، ولله دَرُّ الإمام أبي الفرج ابن الجوزي إذ يقول: لا ينبغي لأحد أن يطيل الأمل، إلَّا أهل العلم للاستزادة والتصنيف، فطولُ الأمل لهم محمودٌ دون مَن عداهم!

أمَّا صِحَّة البدن! فمقصد أصيل في تحصيل العلم، ومِن أبدع لزومِه: أنَّ العقل السليم في الجسم السليم.

يترتَّب عليه من ثواب وعقاب... إلى غير ذلك إلَّا الدُّعَاءُ، وَلَا يَزِيْدُ فِي العُمُرِ إلَّا البِرَّ أي: الاحسان.

إشكال وجواب: فإن قيل: الآجال والأرزاق مقدَّرة لا تزيد ولا تنقص بالنصوص الدالَّة عليها، فما وجه الحديث؟!

أجيب: بأنَّ الأشياء قد تكتب في اللوح المحفوظ متوقِّفة على الشروط كما يكتب: إنَّ أحسن فلان فعمره سبعون سنة، وإلَّا! فخمسون. وهو المعنيُّ من قوله تعالى ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ [الرعد: ٣٩]. لكن هذا بالنسبة إلى ما يظهر للملائكة في اللوح المحفوظ؛ لا بالنسبة إلى علم الله تعالى الأزليِّ، إذ لا محو فيه ولا زيادة.

الذنب والرزق: فَإِنَّ الرَّجُلَ -هذا من تتمَّة الحديث- لَيُحْرَمُ الرِّزْقَ أي: من الرزق بِالذَّنْبِ يُصِيْبُهُ»[1]. أي: بسبب ذنب يرتكبه، وجملة (يصيبه) في محلِّ النصب على أنَّه حالٌ، أو في محلِّ الجرِّ على أنَّه صفة لـ(الذنب) باعتبار كون اللام للجنس، فتصير كالنكرة في العموم كقوله تعالى ﴿كَمَثَلِ ٱلْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْفَارًا﴾ [الجمعة: ٥].

ثَبَتَ بِهَذَا الحَدِيْثِ ١- أنَّ ارْتِكَابَ الذَّنْبِ سَبَبُ حِرْمَانِ الرِّزْقِ، خُصُوصاً نصب على أنَّه مفعول مطلق لفعل محذوف، أي: أخصُّ خصوصاً

---

(١) أخرجه أحمد: ٥/ ٢٧٧، والترمذي: ٢١٤٠ بلفظ «القَضَاءَ»، بدل «القَدَرَ»، وغيرهما.

الكَذِبُ رفع على أنَّه مبتدأ، فَإِنَّهُ يُورِثُ الفَقْرَ خبره، وَقَدْ وَرَدَ فِيْهِ حَدِيْثٌ خَاصٌّ[1]!! أي: والحال أنَّه قد ورد الحديث خاصٌّ دالٌّ على كون الكذب بخصوصه مورثاً للفقر.

موانع الرزق: وَكَذَا ٢- نَوْمُ الصُبْحَةِ -بضمَّ الصاد وسكون الباء أي: النوم وقت الصبح- يَمْنَعُ الرِّزْقَ[2] وقد ورد الحديث في هذا المعنى، وَ٣- كَثْرَةُ النَّوْمِ تُوْرِثُ الفَقْرَ أي: الاحتياج من جهة المال، وَفَقْرَ العِلْمِ أي: الجهل أَيْضَاً أي: كالفقر من جهة المال.

قَالَ القَائِلُ[3]:

سُرُورُ النَّاسِ فِي لِبْسِ اللِّبَاسِ وَجَمْعُ العِلْمِ فِي تَرْكِ النُّعَاسِ

أي: النوم، والمعنى ظاهر.

وَقَالَ أي: القائل[4]:

أَلَيْسَ الاستفهام للتقرير مِنَ الخُسْرَانِ أنَّ لَيَالِيَاً جمع: ليلة.

تَمُرُّ بِلَا نَفْعٍ وَتُحْسَبُ على صيغة المبنيِّ للمفعول من الحساب مِنْ عُمُرِي!!

---

(١) بل أحاديث عدَّة تطلب من مظانِّها.

(٢) ومما يدلُّ على ذلك: «يَا فَاطِمَةُ؛ قُومِي اشْهَدِي رِزْقَ رَبِّكِ فَإِنَّهُ الآنَ يُقْسَمُ».! وكان الوقت بُعيْد الفجر.. ما لم تطلع الشمس.

(٣) من الوافر.

(٤) من الطويل.

وَقَالَ آخَرُ[1]:

قُمِ اللَّيْلَ أي: في الليل للعبادة يَا هَذَا أي: أيُّها الطالب لَعَلَّكَ تَرْشُدُ أي: مرجوٌّ منك الرشاد.

إِلَى كَمْ أي: إلى أيِّ مدَّةٍ تَنَامُ اللَّيْلَ وَالعُمْرُ يَنْفَدُ!! أي: يمضي.

وَ٣- النَّوْمُ عُرْيَانَاً، وَ٤- البَوْلُ عُرْيَانَاً، وَ٥- الأَكْلُ جُنُبَاً، وَ٦- الأَكْلُ مُتَّكِئَاً عَلَى جَنْبٍ بفتح الجيم وسكون النون، وَ٧- التَّهَاوُنُ أي: عدم الاعتبار والتضييع بِسُقَاطِ[2] بضم السين: ما سقط من الشيء المَائِدَةِ من الخبز ونحوه، وَ٨- حَرْقُ قِشْرِ البَصَلِ وَالثُّومِ هما شجرتان معروفتان، وَ٩- كَنْسُ البَيْتِ بِالمِنْدِيْلِ، وَ١٠- كَنْسُ البَيْتِ فِي اللَّيْلِ، وَ١١- تَرْكُ القُمَامَةِ أي: الكناسة بالتركي (سبرندى) فِي البَيْتِ، وَ١٢- المَشْيُ قُدَّامَ المَشَايِخِ جمع: شيخ وهو الكبير في السن،

وَ١٣- نِدَاءُ الأَبَوَيْنِ أي: الأب والأم بِاسْمِهِمَا لأنه ينافي تعظيمهما وَ١٤- الخِلَالُ أي: تخليل الأسنان[3] بِكُلِّ خَشِنَةٍ، وَ١٥- غَسْلُ اليَدِ بِالطِّيْنِ وَالتُّرَابِ[4]، وَ١٦- الجُلُوسُ عَلَى العَتَبَةِ، وَ١٧- الاتِّكَاءُ عَلَى أَحَدِ

---

(١) من الطويل.

(٢) ما يتساقط من الفتات أثناء الطعام.

(٣) ما يتخلل به الأسنان. ويستحب السواك.

(٤) ولا بأس به لإزالة زهومة الطعام، أو الدهن إن لم يجد نحو صابون.

مِصْرَاعَي[1] البَابِ أي: على أحد شقَّي الباب، وَ١٨- التَّوَضُّؤُ فِي المَبْرَزِ[2] بفتح الميم وسكون الباء: المستراح، وَ١٩- خِيَاطَةُ الثَّوْبِ عَلَى بَدَنِهِ[3]، وَ٢٠- تَجْفِيْفُ الوَجْهِ أي: إزالة بلله بِالثَّوْبِ، وَ٢١- تَرْكُ بَيْتِ العَنْكَبُوتِ فِي البَيْتِ، وَ٢٢- التَّهَاوُنُ بِالصَّلَاةِ بأن لا يصلِّي، أو يصلِّي ولكن بترك التعديل والخضوع، وَ٢٣- إِسْرَاعُ الخُرُوجِ مِنَ المَسْجِدِ بَعْدَ صَلَاةِ الفَجْرِ، وَ٢٤- الابْتِكَارُ[4] بِالذَّهَابِ إِلَى السُّوْقِ أي: الذهاب إليه بكرة، وَ٢٥- الإِبْطَاءُ فِي الرُّجُوعِ مِنْهُ أي: التأخُّر في الرجوع من السوق، وَ٢٦- شِرَاءُ كُسَيْرَاتِ الخُبْزِ بضم الكاف وفتح السين جمع: كسرة وهي القطعة من الخبز مِنَ الفُقَرَاءِ السُّؤَّالِ[5] بضم السين وتشديد الهمزة جمع: سائل، وَ٢٧- دُعَاءُ الشَّرِّ أي: الدعاء بالشرِّ عَلَى الوَلَدِ، وَ٢٨- تَرْكُ تَخْمِيْرِ[6] الأَوَانِي أي: ترك سترها، وَ٢٩- إِطْفَاءُ السِرَاجِ بِالنَّفَسِ[7] بفتحتين. كُلُّ ذَلِكَ يُوْرِثُ الفَقْرَ[8]

---

(١) شقَّيه.

(٢) مكان التبرز وقضاء الحاجة.

(٣) بمعنى رقعه، أو اصلاح خرقة، وتركيب زره.

(٤) المسارعة بكرةً.

(٥) جمع سائل، وهو المتكدي (الشحاد) للشبهة في جمعها بالحياء.

(٦) تغطيتها.

(٧) النفخ.

(٨) ذكرها جميعاً مع ما بعدها سيدي الشيخ عبد الغني النابلسي في « الكشف والبيان»؛ على أنَّها مما يورث النسيان. فراجعه.

قوله: و(النوم عرياناً) مبتدأ و(كلُّ ذلك) تأكيد، و(يورث الفقر) خبره، عُرِفَ ذَلِكَ أي: كونه مورثاً للفقر بِالآثَارِ جمع: أثر؛ وهو خبر الصحابة.

وَ٣٠- كَذَا أي: مثل الأشياء السابقة في إيراث الفقر الكِتَابَةُ بِالقَلَمِ مَعْقُودٌ[١] أي: منكسر فعُقد بشيء، وَ٣١- الامْتِشَاطُ بِمُشْطٍ بضم الميم مُنْكَسِرٍ ثبت ذلك بالأثر المرويِّ، وَ٣٢- تَرْكُ الدُّعَاءِ بِالخَيْرِ لِلْوَالِدَيْنِ، وَ٣٣- التَّعَمُّمُ أي: لفُّ العمامة قَاعِدَاً، وَ٣٤- التَّسَرْوُلُ أي: لبس السراويل قَائِمَاً[٢]، وَ٣٥- البُخْلُ أي: المنع عن الفقراء وَ٣٦- التَّقْتِيْرُ أي الإنفاق على وجه المضايقة وَ٣٧- الإسْرَافُ ضد التقتير، وَ٣٨- الكَسَلُ وَالتَّوَانِي أي: الضعف، وَ٣٩- التَّهَاوُنُ فِي الأُمُورِ[٣] ذَلِكَ يُوْرِثُ الفَقْرَ.

* ولما فرغ من بيان الأسباب المورثة للفقر.. شرع في بيان الأسباب الجالبة للغنى، فقال: قَالَ رَسُولُ الله ﷺ: «اسْتَنْزِلُوا الرِّزْقَ أي: اطلبوا نزول الرزق بِالصَّدَقَةِ»[٤].

---

(١) الذي فيه عقد.

(٢) التعمُّم: لف العمامة. التسرول: لبس السراويل. وينبغي أن يكون فيهما العكس؛ وهو الأدب أو السنة؛ فيتعمَّم قائماً، ويتسرول قاعداً.

(٣) الشرعية، وذلك بإهمالها، وترك المبادرة إليها سريعاً.

(٤) أخرجه البيهقيُّ في «شعب الإيمان»؛ عن عليٍّ كرم الله وجهه، وابن عدي في «الكامل»؛ عن جبير بن مطعم رضي الله عنه، وأبو الشيخ في «الثواب»؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه. ورمز السيوطي: ١٠٠٥، لضعفه وأقرَّه المُناوي: ١/ ٥٠١.

وَالبُكُورُ أي: القيام بُكْرَة مُبَارَكٌ يَزِيْدُ فِي جَمِيْعِ النِّعَمِ[1]؛ خُصُوصَاً فِي الرِّزْقِ، وَحُسْنُ الخَطِّ مِنْ مَفَاتِيْحِ الرِّزْقِ[2] أي: من أسباب انفتاح الرزق، لما ورد في الأثر: عليكم بحسن الخطِّ، فإنَّه من مفاتيح الرزق، وَبَسْطُ الوَجْهِ أي: بشاشته وانبساطه، وَطِيْبُ الكَلَامِ يعني: حسن الأداء بلين ورفق يَزِيْدُ فِي الحِفْظِ وَالرِّزْقِ.

وَعَنِ الحَسَنِ بنِ عَلِيٍّ رَضِيَ الله عَنْهُمَا: (كَنْسُ الفِنَاءِ أي: قدَّام الدار، وَغَسْلُ الإنَاءِ الذي يستعمل للطعام ونحوه مَجْلَبَةُ الغِنَى)[3] بكسر الغين وبالقصر: ضدُّ الفقر، والمَجْلبة: بفتح الميم وسكون الجيم مصدر بمعنى الجَلْب. أي: سبب جلب الغنى.

أسباب الرزق: وَأَقْوَى الأَسْبَابِ الجَالِبَةِ لِلْرِزْقِ: ١- إِقَامَةُ الصَّلَاةِ

---

(١) و«بُوْرِكَ لِأُمَّتِي فِي بُكُورِهَا» نصٌّ في ذلك. وقد أخرجه الطبراني في «الأوسط»: ٧٥٨؛ عن أبي هريرة رضي الله عنه. وعبد الغني في « الإيضاح»؛ عن ابن عمررضي الله عنهما. كذا عند السيوطي في «الجامع الصغير»: ٣١٦٣، ورمز لضعفه.

(٢) لا يحتاج الى بيانٍ بعد أن عُرف أنَّه من المهن النفيسة التي اعتمدها كثيرٌ مورداً للرزق؛ سواء للاستنساخ أو كتابة الخط، ومثله في عصرنا الآلات الراقنة (الكاتبة) والحواسب (الكمبيوتر). وهذا في حقِّ طالب العلم أصبح حاجة شبه أساسيَّة فليحرص عليه من استطاع اقتناءه.

(٣) أبو محمد الحسن بن علي المطَّلبي الهاشمي (السبط السعيد) أحد سيِّدي شباب أهل الجنة، ابن الزهراء البتول صلى الله وسلم على أبيها ورضي الله عنها وعن ولديها وزوجها وأحفادهما. ثم هذا مما له حكمُ المرفوع إلى رسول الله ﷺ، أو مما علم بالتجربة والمشاهدة، وعلى كلٍّ فهذا كلامٌ صدر عن بيت النبوة.

بِالتَّعْظِيْمِ وَالخُشُوعِ أي: الاحتياج والتواضع والخضوع واللين والانقياد، ولذلك يقال: الخشوعُ بالجوارح والخضوعُ بالقلب، وَتَعْدِيْلِ الأرْكَانِ أي: تسكين الجوارح في الركوع والسجود والقَوْمة بينهما والقعدة بين السجدتين وَسَائِرِ وَاجِبَاتِهَا أي: باقي واجباتها، وإنَّما أُفرد التعديل بالذكر.. مع كونه واجباً أيضاً!! اهتماماً لشأنه لوقوع إهمال الخلق إيَّاه كثيراً.

وقال إبراهيم النَّخَعي: إذا رأيتم رجلاً يخفِّف الركوع والسجود فارحموا عياله من ضيق المعيشة. ذكره في « الروضة».

وَسُنَنِهَا وَآدَابِهَا، وَ٢- صَلَاةُ الضُحَى فِي ذَلِكَ أي: في جلب الغِنى مَعْرُوفَةٌ مَشْهُورَةٌ[1].

رُوي عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّه قال: (إنَّ الله تعالى يقول: يا ابن آدم؛ اكفني أوَّل النهار بأربع أكفِكَ بهنَّ أمر يومك -يعني: أقضي حوائجك- وأدفعُ عنك ما تكره بعد صلاتك إلى آخر النهار). كذا في شرح « الشرعة».

---

(١) فهي أولاً: «تُجْزِيء عَنْ ثَلَاثِ مِئَةٍ وَسِتِّيْنَ صَدَقَةٍ..» كما أخرجه أحمد: ٥/ ٣٥٤، وأبو داود: ١٢٥٨، وابن حبان: ١٦٤٢، وابن خزيمة: ١٢٢٦ في « صحيحيهما»، والطحاوي في « المشكل»: ٩٩.

وهي ثانياً: كفايةٌ يوم من الخير، كما في الحديث القدسي الذي أخرجه أحمد: ٤/ ١٥٣، وأبو يعلى ١٧٥٧؛ عن عقبة بن عامر الجهني رضي الله عنه:« ... أنَّ الله عز وجل يقول: (يَا ابْنَ آدَمَ؛ اكْفِنِي أوَّلَ النَّهَارِ بِأرْبَعِ رَكَعَاتٍ أَكْفِكَ بِهِنَّ آخِرَ يَوْمِكَ)». وغير ذلك مشهور.

والمراد بالأربع صلاة الضحى، والأحاديث في فضيلتها كثيرة.

تلاوات الرزق: وَ٣- قِرَاءَةُ سُورَةِ الوَاقِعَةِ؛ خُصُوصاً بِاللَّيْلِ وَقْتَ النَّوْمِ، وَ٤- قِرَاءَةُ سُورَةِ المُلْكِ وَالمُزَّمِّلِ، « وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى»، وَ« أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ»[1]، وَ٥- حُضُورُ المَسْجِدِ قَبْلَ الأَذَانِ، وَ٦- المُدَاوَمَةُ عَلَى الطَّهَارَةِ أي: الوضوء، وَأَدَاءُ سُنَّةِ الفَجْرِ وَالوِتْرِ فِي البَيْتِ، لقوله ﷺ: « مَنْ صَلَّى سُنَّةَ الفَجْرِ فِي بَيْتِهِ يُوَسَّعُ لَهُ رِزْقُهُ، وَيَقِلُّ المُنَازَعَةُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِهِ، وَيُخْتَمُ لَهُ بِالإِيْمَانِ». كذا في شرح «التحفة».

وَ٧- أَلَّا يَتَكَلَّمَ بِكَلَامِ الدُّنْيَا بَعْدَ الوِتْرِ، وَ٨- لَا يُكْثِرَ مُجَالَسَةَ النِّسَاءِ إِلَّا عِنْدَ الحَاجَةِ أي: لمجالستهنَّ، وَ٩- أَلَّا يَتَكَلَّمَ بِكَلَامٍ لَغْوٍ غَيْرِ مُفِيْدٍ لِدِيْنِهِ وَدُنْيَاهُ.

قِيْلَ: مَنِ اشْتَغَلَ بِمَا لَا يَعْنِيْهِ أي: بما لا يهمُّه يَفُوتُهُ أي: ذلك الرجل مَا يَعْنِيْهِ[2] أي: ما يهمُّه.

قَالَ بُزَرْجُمْهَرَ[3] وزير أنوشروان.. وكان عاقلاً كاملاً: إِذَا رَأَيْتَ

---

(١) يجب على طالب العلم أن يعنىٰ بهذا كلِّه عناية فائقة؛ خصوصاً في بداية تحصيله شريطة أن لا يكون على حساب أيِّ درس. وينبغي الاطلاع على أسرار ذلك وتحصيلُه في كتبه ومراجِعِه.

(٢) إذ الوظائف موزَّعة على الأوقات، والأوقاتُ محصورةٌ، ولذا لا يرى بعض الصالحين قضاءَ ما يفوت من الأوراد، لأنَّ لكلِّ وقت وظيفةً، فلا يتصوَّر فيها قضاء ما فات فيما قبله.

(٣) من مشاهير حكماء الفرس الأسبقين كان من جلساء الملوك، وقد فتك به كسرى لجرأته بالحقِّ.

الرَّجُـلَ يُكْثِرُ الكَلَامَ فَاسْتَيْقِنْ بِجُنُونِهِ أي: احكم يقيناً بجنونه؛ لأنَّ العاقل لا يضيع أنفاسه فيما لا يعني.

وَقَالَ عَلِيٌّ رَضِيَ الله عَنْهُ: إذَا تَـمَّ العَقْـلُ.. نَقُـصَ الكَـلَامُ أي: صـار ذا نقصان، على أنَّ (نقص) لازم من النقصان.

وَقَالَ الْمُصَنِّفُ رَحِمَهُ الله: اتَّفَقَ لِي فِي هَذَا المَعْنَى[1]:

إذَا تَمَّ عَقْلُ المَرْءِ قَلَّ كَلَامُهُ

وَأَيْقِنْ أي: من الإيقان، أي: أُحكم بيقين بِحُمْـقِ المَـرْءِ إنْ كَـانَ مُكْثِـرَا لكلامه ويتكلَّم بما لا يهمُّه، كيف لا؟! وهو تضييع عُمُـــر نفـيس في تكلُّـم كلام خسيس.

وَقَالَ آخَرُ[2]:

النُّطْقُ زَيْنٌ وَالسُّكُوتُ سَلَامَةٌ لأنَّ: في النطق خطراً، فإذا سكت يكـون سالماً عن ذلك.

فَإِذَا نَطَقْتَ بتاء الخطاب فَلَا تَكُنْ مِكْثَارَاً مبالغـة (كـاثر)، لأنَّـه يـورث الكلال في العقل.

مَا إِنْ نَدِمْتَ عَلَى سُـــكُوتٍ مَـرَّةً (مـا) نافيـة، و(نـدمت) عـلى صـيغة الخطاب أي: ما ندمت على كونك ساكتاً مرَّة.

---

(١) من البحر الطويل. الحمق: قلَّة العقل وفسادُ الرأي.

(٢) من البحر الكامل. الزين: الجمال والزينة.

وَلَقَدْ نَدِمْتَ عَلَى الكَلَامِ مِرَارَاً أي: لقد ندمت على تكلُّم الكلام مراراً كثيرة، تقول: لم قلتُ هذا الكلام القبيح؟! فثبت أنَّ السلامة في السكوت.

أوراد سعة الرزق: وَمِمَا يَزِيَدُ فِي الرِّزْقِ[1] أي: من الأسباب المزيدة للرزق:

١- أَنْ يَقُولُ كُلَّ يَوْمٍ بَعْدَ انْشِقَاقِ الفَجْرِ إِلَى وَقْتِ الصَلَاةِ: (سُبْحَانَ الله العَظِيْمِ، سُبْحَانَ الله وَبِحَمْدِهِ، أَسْتَغْفِرُ الله وَأَتُوبُ إِلَيْهِ) مِئَةَ مَرَّةٍ، لأنَّ في هذا الكلام تسبيحاً وتحميداً واستغفاراً وتوبة، وقد وعد المستغفرين في نصِّ القرآن بزيادة الأموال؛ قال الله تعالى ﴿ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ الآية.[نوح: ١٠-١٢].

وَ٢- أَنْ يَقُولَ: (لَا إِلَهَ إِلَّا الله المَلِكُ الحَقُّ المُبِيْنُ) كُلَّ يَوْمٍ صَبَاحَاً وَمَسَاءً أي: في وقت الصبح والمساء مِئَةَ مَرَّةٍ، وَ٣- أَنْ يَقُولَ بَعْدَ صَلَاةِ الفَجْرِ كُلَّ يَوْمٍ (الحَمْدُ لله وَسُبْحَانَ الله، وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله، وَالله أَكْبَرُ) ثَلَاثَاً وَثَلاثِيْنَ مَرَّةً، وَبَعْدَ صَلَاةِ المَغْرِبِ أَيْضَاً أي: ثلاثاً وثلاثين مرَّة.

وَ٤- يَسْتَغْفِرَ -بالنصب عطف على (أن يقول)- الله تَعَالَى سَبْعِيْنَ مَرَّةً بَعْدَ صَلَاةِ الفَجْرِ، وَ٥- يُكْثِرَ -بالنصب من الإكثار- مِنْ قَوْلِ: (لَا حَوْلَ

---

(١) هذه الأوراد والأذكار جميعها ورد فيها من النصوص ما يطول ذكره، وهي وإن لم تكن دعاءً- وعندنا أن الدعاء ينفع -ولكنَّها قد تؤدِّي الثمرة المرجوة من الدعاء، بل أكثر لقوله ﷺ فيما يحكيه عن ربِّه جلَّ جلاله: «مَنْ شَغَلَهُ ذِكْرِي عَنْ مَسْأَلَتِي أَعْطَيْتُهُ أَفْضَلَ مَا أُعْطِي السَّائِلِيْنَ».

وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِالله العَلِيِّ العَظِيْمِ أي: الانصراف عن معصية الله تعالى و(لا قوَّة) على طاعة الله تعالى.. إِلَّا بتوفيق الله تعالى؛ وَ٦- الصَّلَاةِ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ بالجرِّ عطف على قولِ (لا حول) أي: يكثر من الصلاة على النَّبِيِّ ﷺ.

وَ٧- يَقُولَ يَوْمَ الجُمُعَةِ سَبْعِيْنَ مَرَّةً: (اللَّهُمَّ أَغْنِنِي -بفتح الهمزة من الإغناء- بِحَلَالِكَ عَنْ حَرَامِكَ أي: عن الأشياء التي جعلتَها محرَّمة، وَاكْفِنِي من الكفاية بِفَضْلِكَ عَمَّنْ سِوَاكَ أي: كن لي كافياً بفضلك عن الاحتياج إلى من سواك.

وَ٨- يَقُولَ هَذَا الثَّنَاءَ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ: (أَنْتَ اللهُ العَزِيْزُ أي: الغالب من قولهم (عزَّ): إذا غلب فيرجع إلى القدرة. وقيل: عديم المثل فيكون من أسماء التنزيه الحَكِيْمُ أي: ذو الحكمة؛ وهي العلم بالأشياء على ما هي عليه، والإتيان بالأعمال على ما ينبغي. وقيل: بمعنى المحكَم من الإحكام؛ وهو إتقان التقدير وإحسان التدبير، فعلى الأوَّل: مركَّب من وصفين: أحدهما من صفات الذات، والآخر من صفات الأفعال، وعلى الثاني: يرجع التقدير. وقيل: مبالغة الحاكم الذي لا مردَّ لقضائه؛ ولا معقِّب لحكمه، فيرجع إلى القويِّ.

أَنْتَ الله المَلِكُ، معناه: ذو الملك، والمراد به: القدرة على الإيجاد من قولهم: (فلان يملك الإيقاع بكذا..) إذا تمكَّن. فيكون مرجعه إلى صفة القدرة القُدُّوْسُ أي: المنزَّه عن المعايب، وقيل: هو الذي لا تدركه الأوهامُ والأبصار، وهو صفة سلبيَّة على الوجهين.

أَنْتَ اللهُ الحَلِيْمُ أي: الذي لا يحمله غيظٌ على استعجال العقوبة والمسارعة إلى الانتقام؛ ولكنه جعل لكلِّ شيءٍ مقدار فهو منتهٍ إليه، وهو راجع إلى التنزيه. الكَرِيْمُ أي: المتفضِّل الذي يعطي من غير مسألة ولا وسيلة، وقيل: المتجاوز الذي لا يستقصي في العقاب، وقيل: المقدَّس عن النقائص والعيوب، من قولهم: كرائم الأموال لنفائسها، ومنه يسمى شجرُ العنب كرماً!! لأنَّه أطيب الثمرة، قريب للتناول وسهل القطاف، عار عن الشوك بخلاف النخل.

أَنْتَ اللهُ خَالِقُ الخَيْرِ وَالشَّرِّ، أَنْتَ اللهُ خَالِقُ الجَنَّةِ وَالنَّارِ، عَالِمُ الغَيْبِ أي: الغائب عن الحسِّ وَالشَّهَادَةِ أي: الحاضر له، عَالِمُ السِّرِّ وَأَخْفَى من السرِّ؛ وهو ضمير النفس.

أَنْتَ اللهُ الكَبِيْرُ وهو نقيض الصغير؛ وهما يستعملان للأجسام باعتبار مقاديرها، ثمَّ لعالي المرتبة، قال الله تعالى حكاية عن فرعون ﴿إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ ٱلَّذِى عَلَّمَكُمُ ٱلسِّحْرَ﴾ [طه: ٧١].

معنى أنَّه تعالى كبير

والله تعالى كبير بالمعنى الثاني، أمَّا ١- باعتبار أنَّه أكمل الموجودات وأشرفُها من حيث إنَّه واجب الوجود بالذات من جميع الجهات غنيٌّ على الإطلاق، وما سواه حادثٌ بالذات نازلٌ في حضيض الحاجة والافتقار، وإمَّا ٢- باعتبار أنَّه كبير عن مشاهدة الحواسِّ وإدراك العقول.

وعلى الوجهين.. فهو من أسماء التنزيه المُتَعَالِ هو البالغ في العلا والمرتفع عن النقائص.

أَنْتَ اللهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ؛ وَإِلَيْهِ أي: إلى حكمه يَعُودُ كُلُّ شَيْءٍ.

أَنْتَ اللهُ دَيَّانُ يَوْمِ الدِّيْنِ ومعنى الديَّان: القهَّار والقاضي والمجازي الذي لا يُضِيع عملاً بل يجزي بالخير والشَّرِّ لَمْ تَزَلْ في الماضي، وَلَا تَزَالُ في المستقبل.

أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ، أَنْتَ اللهُ الأَحَدُ في الصفات.. لا يشاركه أحدٌ فيها الصَّمَدُ أي: السيِّد؛ سمِّي بذلك! لأنَّه يصمد في الحوائج ويقصد إليه في الرغبات. وقيل: هو العليُّ في الدرجة لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُوْلَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوَاً أَحَدٌ.

معنى الرحمان الرحيم

أَنْتَ الله لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الرَّحْمَانُ الرَّحِيْمُ اسمان بُنيَا للمبالغة من (رحم) كـ(غضبان) من (غضب)، والعليم من (علم). والرَّحمة في اللغة: رِقَّةُ القلب، وانعطافٌ يقتضي التفضُّل والإحسان على مَن رقَّ له، وأسماء الله تعالى وصفاته.. إنَّما تؤخذ بالغايات التي هي أفعالٌ؛ دون المبادئ التي هي انفعالات، فرحمة الله تعالى: إمَّا ١- إرادة الإنعام عليهم؛ فيكون من صفات الذات، أو ٢- نفس الإنعام! فيعود إلى صفات الأفعال.

و(الرحمانُ) أبلغ من (الرحيم) لزيادة بنائه[1]، وذلك يؤخذ تارة باعتبار الكميَّة. يقال: يا رحمان الدنيا والآخرة؛ لأنَّه يعمُّ المؤمن والكافر، ورحيم

---

(١) يعني: عددأحرف الاسم.

الآخرة! لأنَّه يخصُّ المؤمن، وأخرى باعتبار الكيفيَّة ويقال: يا رحمان الدنيا والآخرة ورحيم الدنيا، لأنَّ النعمة الأخرويَّة بأسرها تامَّة عظيمة، والنعمة الدنيوية جليلٌ وحقير، وكان معنى الرحمان: المنعم الحقيقيُّ تامُّ الرحمة عميمُ الإحسان، ولذلك لا يطلق على غيره تعالى، وغيرُه إنَّما يفعل ما يفعل لغرض نفسه؛ فيرجو بإنعامه.. إمَّا من الله ثواباً، وإمَّا من الخلق عوضاً! أو ثناءً.

أَنْتَ اللهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ المَلِكُ القُدُّوسُ السَّلَامُ أي: ذو السلامة من النقائص مطلقاً في ذاته وصفاته وأفعاله، وقيل: معناه معطي السلامة في المبدإ والمعاد، فعلى الأوَّل صفة سلبيَّة[1] وعلى الثاني: صفة فعلية.

المُؤْمِنُ أي: المصدِّق بنفسه فيما أخبر به؛ كالوحدانيَّة مثلاً في قوله تعالى ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾، ومصدِّقٌ لرسله بالقول نحو ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ﴾. فهو صفة كلامية.

المُهَيْمِنُ أي: الرقيب البالغ في المراقبة والحفظ، من قولهم: (هيمن الطير): إذا نشر جناحيه على فرخه؛ صيانةً له، فلا أجعله مراد فاً له، فإذن في المهيمن من المبالغة باعتبار الاشتقاق والزنة ما ليس في الرقيب كالرحمان الرحيم.

العَزِيْزُ الجَبَّارُ بناء مبالغة من الجَبْر، وهو في الأصل إصلاحُ الشيء بضَرْبٍ من القهر، ومنه جبر العظم، ونحوُه قول عليٍّ رَضِيَ الله عَنْهُ: (يا جابرَ كلِّ كسير ومسهِّلَ كلِّ عسير).

---

(١) معناها: تسلب عن المولى سبحانه أضدادها.

وقيل: من الجبر بمعنى الإكراه، يقال: جَبَره السلطان على كذا وأجبر: إذا أكرهه، فمرجعه على المعنيين صفةٌ فعليَّة.

الْمُتَكَبِّرُ أي: العظيم ذو الكبرياء، وهو المتعالي عن صفة الخلق.

لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ الخَالِقُ البَارِئُ ومعنى البارئ: خالق الخلق بريئاً من التفاوت، ومميِّزاً بعضها عن بعض بالهيئآت والصور المختلفة.

الْمُصَوِّرُ قال الغزالي: قد يظنُّ أنَّ هذه الثلاثة مرادفة؛ وأنَّها راجعة إلى الخلق والاختراع!! والأَوْلى أن يقال: ما خرج من العدم إلى الوجود أوَّلاً: إلى التقدير. وثانياً: إلى الإيجاد على وفق ذلك التقدير. وثالثاً: إلى التصوير والتزيين؛ كالبناء يقدِّرُه المهندس والرسَّام، ثم يبنيه الباني، ثم يزيِّنُه النقَّاش! فالله سبحانه وتعالى خالقٌ من حيث إنَّه مقدِّر، وبارئ من حيث إنَّه موجد، ومصوِّر من حيث إنَّه يرتِّبُ صور المخترعات أحسنَ ترتيب، ويزيِّنُها أكملَ تزيين.

لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى، لأنَّها دالَّة على محاسن المعاني، يُسَبِّحُ لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ ينزِّهُه عن النقائص، وَهُوَ العَزِيْزُ الحَكِيْمُ الجامع للكمالات بأسرها، فإنَّها راجعة إلى الكمال في القدرة والعلم.

ولما فرغ من بيان الأسباب المزيدة للرزق.. شرع في بيان الأسباب المزيدة للعمر؛ فقال:

أوراد بركة العمر: وَمِمَّا يَزِيْدُ فِي العُمُرِ: ١- البِرُّ أي: الإحسان، وَ٢- تَرْكُ الأَذَى أي: أذى المسلمين، وَ٣- تَوْقِيْرُ الشُّيُوخِ أي: تعظيمهم؛ وقد وعد في

الأخبار لمن عظَّم الشيوخ الكبار السن أن يعطى له مثل عمرهم، وَ٤- صِلَةُ الرَّحِمِ، روي عن النَّبيِّ ﷺ: «إِنَّ العَبْدَ لَيَصِلُ رَحِمَهُ.. وَقَدْ بَقِيَ مِنْ عُمُرِهِ ثَلَاثَةُ أَيَّامٍ؛ فَيَزِيْدُ الله أَجَلَهُ ثَلَاثِيْنَ سَنَةً، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَقْطَعُ رَحِمَهُ.. وَقَدْ بَقِيَ مِنْ أَجَلِهِ ثَلَاثُونَ سَنَةً؛ فَيُرَدُّ أَجَلَهُ إِلَى ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ».

وَ٥- أَنْ يَقُولَ حِيْنَ يُصْبِحُ أي: يدخل في الصباح وَيُمْسِي أي: حين يدخل المساء كُلَّ يَوْمٍ (ثَلَاثَ مَرَّاتٍ): سُبْحَانَ الله مِلْءَ المِيْزَانِ (المِلء) بكسر الميم وسكون اللام: اسم لما يأخذه الإناء إذا امتلأ. والمراد بـ(الميزان): ميزان الأعمال يوم القيامة الذي عرف كبره في كتب الأحاديث، وَمُنْتَهَى العِلْمِ والمراد منه التكثير على وجه المبالغة بمعنى: أنَّ علم الله تعالى لا يتناهى فكذلك التسبيح، يعني: أسبِّحُ الله تعالى بتسبيح غيرِ محصور ومعدودٍ كعلمه تعالى، وَمَبْلَغَ الرِّضَا أي: مبلغاً ومقداراً يصيبه رضا الله تعالى، وَزِنَةَ العَرْشِ (الزِّنَة) مصدر بمعنى: الوزن؛ كالعِدَة بمعنى: الوعد. والمراد من هذه الألفاظ كثرة التسبيح لا التحديد والتعيين.

وَالحَمْدُ لله مِلْءَ المِيْزَانِ، وَمُنْتَهَى العِلْمِ، وَمَبْلَغَ الرِّضَا، وَزِنَةَ العَرْشِ.

وَلَا إِلَهَ إِلَّا الله مِلْءَ المِيْزَانِ، وَمُنْتَهَى العِلْمِ، وَمَبْلَغَ الرِّضَا، وَزِنَةَ العَرْشِ؛ وَالله أَكْبَرُ مِلْءَ المِيْزَانِ، وَمُنْتَهَى العِلْمِ، وَمَبْلَغَ الرِّضَا، وَزِنَةَ العَرْشِ. والمراد أيضاً كثرةُ التهليل والتكبير.

وَ٦- أَنْ يَحْتَرِزَ عَنْ قَطْعِ الأَشْجَارِ الرَّطْبَةِ؛ لأَنَّه ما من شيءٍ إِلَّا ويسبح!

والقطع منه لها عن تسبيحها، لأنَّها تسبِّح إذا قامت على ساقها بشهادة الأثر المرويِّ إلَّا عِنْدَ الضَّرُورَةِ[1] المقتضية مثل الطبخ ونحوه. وَ٧- إِسْبَاغُ الوُضُوءِ أي: إتمام سننه وآدابه، وَ٨- الصَّلَاةُ بِالتَّعْظِيْمِ، وَ٩- القِرَانِ بكسر القاف مصدر بمعنى المقارنة بَيْنَ الحَجِّ وَالعُمْرَةِ، وَ١٠- حِفْظُ الصِّحَّةِ؛ بأن لا يُلقِيَ نفسه في المهالك، ويقي نفسه من الحرِّ والبرد.

وبالجملة ملازمة أسباب الصحَّة مزيدة للعمر.

توصية: وَلَا بُدَّ مِنْ أَنْ يَتَعَلَّمَ شَيْئَاً مِنَ الطِّبِّ أي: من علم الطب المبيَّن فيه أحوالُ بدن الإنسان؛ من حيث الصحَّةُ والسَّقم، وَيَتَبَرَّكَ بِالآثَارِ الوَارِدَةِ فِي (الطِّبِّ)[2] الَّتِي جَمَعَهَا الشَّيْخُ الإمَامُ أَبُو العَبَّاسِ المُسْتَغْفِرِيُّ رَضِيَ الله عَنْهُ[3] فِي كِتَابِهِ المُسَمَّى بِـ« طِبُّ النَّبِيِّ ﷺ» وكأن قائلاً قال: فأين نجد ذلك

---

(١) أما ترك اليابس.. فممَّا يورث النسيان والفقر، ويجب أن يقدَّرَ الضرورة بقَدْرِها، وفي الحديث النبوي مزيد تأكيد على العناية بالأشجار والحضِّ على زرعها وتكثيرها، وقد قال ﷺ: «إِذَا قَامَتِ القِيَامَةُ.. وَبِيَدِ أَحَدِكُمْ فَسِيْلَةٌ فَلْيَغْرِسْهَا». والفسيلة: الشجيرة الصغيرة.

(٢) إما لنفسه لدوام العلم، وإمَّا لمن يجب عليه القيام بشؤونه؛ كولد ونحوه ليتفرَّغ ذهنه. وإلَّا! فإن تعلم الطب فرض كفائي كما قدَّمناه أولاً.

(٣) هو جعفر بن محمد ابن المستغفر، محدِّث، مؤرِّخ؛ له تصانيف قيمة منها « دلائل النبوة»، «فضائل القرآن»، «معرفة الصحابة» توفي بـ« نسف» سنة: ٤٣٢ هـ خطيباً لها.

وكتاب «الطب النبوي» ذكره في «كشف الظنون»: ١٠٩٥! ولا أعلم عن وجوده شيئاً!! وإن كان هناك كثير من الطب النبوي مطبوع متداول.

الكتاب؟ فأجابه بقوله: يَجِدُهُ مَنْ يَطْلُبُهُ. وهو كتاب مشهور ومعتبر بين العلماء؛ فلابدَّ للطالب من أن يجدَه ويتبرَّك بالآثار والأخبار المذكورة فيه.

وَالحَمْدُ لله عَلَى التَّمَامِ، وَصَلَّى اللهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ أَفْضَلِ الرُّسُلِ الكِرَامِ، وَآلِهِ وَصَحْبِهِ الأَئِمَّةِ الأَعْلَامِ.. عَلَى مَمَرِّ الدُّهُورِ وَتَعَاقُبِ الأَيَّامِ. آمِيْن*.

والحمد لله رب العالمين

---

* تم بفضل الله وتوفيقه تنقيحُه، ورَقْمُه، وعنونته، والتعليقُ عليه في مجالسَ قليلةٍ وزمن يسير: آخره ضحى يوم الأربعاء: ٣/ ١/ ١٤١٩، الموافق: ٢٩/ ٤/ ١٩٩٨ قدر الوسع والطاقة؛ مستعيناً بالله، شاكراً لأنعمه، مصلِّياً على حبيبه وآله وصحبه، داعياً بالقبول ودوام التوفيق. إنَّه تعالى نعم المولى ونعم النصير؛ وهو حسبنا ونعم الوكيل، وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين. (**عبد الجليل العطا البكري**).

*ووجدنا بخاتمة أصل الشرح المطبوع ما نصُّه:

يقول الفقير إليه تعالى إبراهيم بن حسن الأنبابي خادم العلم ورئيس لجنة التصحيح بمطبعة الشيخ الجليل مصطفى البابي الحلبي وأولاده بمصر المحروسة:

الحمد لله الذي علَّم الإنسان ما لم يعلم، وامتنَّ عليه بإكمال الدين فتفضَّل وأنعم، وشرَّفنا بسيِّد الهداة الأعظم صلى الله عليه وعلى آله وسلم.

أما بعد: فقد تمَّ طبع الشرح الجليل للشيخ إبراهيم بن إسماعيل على الرسالة المسمَّاة بتعليم المتعلِّم..... في أول شهر شوال من شهور سنة: ١٤٣٢ هـ على صاحبها أفضل صلاة وأتمُّ تحيَّة. آمين.

هذا وقد وقع في سبع وأربعين صحيفة من القطع الكبير، وأكمل في الصحيفة التالية بفهرس لفصوله، وقد حصر المتن ضمن الشرح بين قوسين، وجعل المتن كاملاً في هامشه.

فهرس الأحاديث

طرف الحديث	الراوي	نسبته	الصحيفة
أعوذ بالله	أبو أمامة		١٤٨
استنزلوا الرزق	علي		١٩٣
ألا إن هذا	أنس		١٠٤
أنا عبد من علمني	علي	موقوف	٧٦
إن الله يحب	الحسن بن علي		١٠٧
إن شر الناس			٨٠
إن من الذنوب	أبو هريرة		١٥٤
إنما الأعمال	عمر		٤٩
أي داء أدوأ	أبو بكر	موقوف	١٤٥
إياك والطمع	جابر		١٤٧
ثلاثة نفر			١٢٢
الحكمة ضالة	علي/ أبو هريرة/ جبير		١٣٧
خير الأمور	علي		١٥٠
ظنوا بالمؤمنين			١٦٥
طلب العلم	أنس/ أبو هريرة/ بن مسعود		٢٦
فقيه واحد أشد	ابن عباس		٣٩
كل مولود يولد			٧٣
كم من عمل			٥٠
كنس الفناء	الحسن بن علي	موقوف	١٩٤
لا طاعة لمخلوق	عمران والحكم الغفاري		٧٩
لا يرد القدر	ثوبان		١٨٨
ليس للمؤمن أن	أبو حذيفة		١٤٦
ما من شيء بدئ			١٢٤

طرف الحديث	الراوي	نسبته	الصحيفة
ما هلك امرؤ	علي	موقوف مرتان	٦٥
من أشراط الساعة	أنس	هامش	٦٣
من تفقه في	عبد الله بن الحارث		١٥٢
من عرف نفسه			٤٧
من لم يتورع			١٧٢
الناس في خوف			
نعم المال الصالح	عمرو بن العاص		١٤١
نفسك مطيتك			١٠٥
هل معك محبرة	هلال		١٦٩
يا هلال	هلال		١٦٩

فهرس الأعلام

أبو حفص الكبير = أحمد بن حفص

أبو حنيفة ٤٦-٤٧-٥٩-٦٠-٦٣-٦٤-٦٦-٨٦-٨٨-١٠٨-١٢٥-١٣٩-١٤٢-١٥٢

أبو زيد (الدبوسي) = عبيد الله بن عمر

أبو الطيب (المتنبي) = أحمد بن الحسين

أبو العباس (المستغفري) = جعفر بن محمد ٢٠٥

أبو نصر الصفار = أحمد بن إسحاق

أبو الفتح البستي ١٦٧

أبو يوسف (يعقوب بن إبراهيم) ٣٦-١٠٨-١٣٧-١٣٩-١٤١-١٤٦-١٥٠-١٥٦

أبي (والد المؤلف) ١٢٥-١٢٦

أحمد بن إسحاق الصفار (ترجمته: ١٠٩)

أحمد بن الحسين (أبو الطيب المتنبي) (ترجمته: ٩٧)، ١٠٥-١٦٦

أحمد بن حفص (الكبير) (ترجمته: ١٤٠)

أحمد بن عبد الرشيد (ترجمته: ١٢٥)

أحمد بن عبد العزيز (الصدر السعيد) (ترجمته: ١٦١)

أحمد بن نصر (والد الحلواني) ١٤٥

الأديب المختار = محمد بن أبي بكر

الأرسانبدي = محمد بن الحسين

الاسبيجابي = علي بن محمد

الإسكندر الرومي (ذو القرنين) (ترجمته: ٥٦)

الأصمعي = عبد الملك بن قريب
برهان الأئمة = عبد العزيز بن عمر
برهان الدين، برهان الأئمة = علي بن أبي بكر
بزرجمهر (الحكيم) (ترجمته: ١٩٦)
جالينوس (الحكيم) (ترجمته: ١٢٢)
جعفر بن محمد (الصادق) (ترجمته: ٦٦)
جعفر بن محمد (المستغفري) (ترجمته: ٢٠٥)
الحسن بن علي (السبط الهاشمي) (ترجمته: ١٩٤)
حسن بن علي (الظهير المرغيناني) (ترجمته: ١١٣)
حسن بن منصور (قاضيخان) (ترجمته: ٨٦)، ١٥١
الحسين بن محمد (الراغب الأصفهاني) ٤١
الحسين بن منصور الحلاج (ترجمته: ١٥٣)
حكيم سمرقندي ٦٦
الحلواني (شمس الأئمة) = عبد العزيز بن أحمد
حماد بن إبراهيم (الصفار) الأنصاري (ترجمته: ١٢٩)
حماد بن مسلم [أبي مسلم] (ترجمته: ٦٣)
خواهرزاده = محمد بن أبي بكر
الدبوسي = عبيد الله بن عمر
ذو القرنين = الاسكندر الرومي
رضي الدين النيسابوري = المؤيد بن محمد ١٠٦
السجزي = الخليل بن أحمد
سديد الدين الشيرازي ٧٨-٩٥
السرخسي = محمد بن أحمد

السرخكتي (مجد الدين) = محمد بن عبد الله
سفيان بن سعيد (الثوري) (ترجمته: ٦٦)
الشافعي = محمد بن إدريس
شداد بن حكيم (ترجمته: ١٨٠)
شرف الدين العقيلي = عمر بن محمد
شمس الأئمة الحلواني = عبد العزيز بن أحمد
شمس الأئمة الزرنجري = محمد بن علي
شمس الأئمة السرخسي = محمد بن أحمد
شمس الدين بن الصدر الشهيد ١٦٩
الشيرازي = سديد الدين
صاحب الهداية = علي بن أبي بكر المرغيناني
الصدر السعيد (تاج الدين) = أحمد بن عبد العزيز
الصدر الشهيد (حسام الدين) = عمر بن عبد العزيز
الصفار = حماد بن إبراهيم
ظهير الدين المرغيناني = حسن بن علي
عبد العزيز بن أحمد (الحلواني) (ترجمته: ٨١)، ٨٤، ١٤٥
عبد العزيز بن عمر بن مازه (الصدر الكبير)، (البرهان الكبير) (ترجمته: ١٦١)
عبد الله بن الحارث الزبيدي ١٥٢
عبد الله بن عباس ١٣-١٦٠
عبد الملك بن قريب (الأصمعي) (ترجمته: ٨٣)
عبيد الله بن عمر (أبو زيد الدبوسي) (ترجمته: ٨١)
العقيلي: شرف الدين = عمر بن محمد

علي بن أبي بكر (المرغيناني، شيخ المؤلف، صاحب الهداية) (ترجمته: ٥٠)
٨٠-٨٦-٩٠-١١٣-١١٥-
١٢٤-١٥٠-١٦١
علي بن أبي طالب ٧٠-٧٦-١١٢-١٧١
علي بن محمد (الإسبيجابي) (ترجمته: ١٥٠)
عمر بن بكر (الزرنجري) (ترجمته: ٨٢)
عمر بن عبد العزيز (الصدر الشهيد) ١٦٩
عمر بن محمد (العقيلي) (ترجمته: ١٢٧)
عمر بن محمد (النسفي/ مفتي الثقلين) (ترجمته: ١٧٧)، ١٨٥
عيسى ابن مريم صلى الله عليه وسلم ١٦٤
عصام بن يوسف (ترجمته: ١٦٩)
فخر الاسلام الأرسابندي = محمد بن الحسين
فخر الاسلام (قاضيخان) = حسن بن منصور
فخر الدين الكاشاني ١٣٧
المؤيد بن محمد (رضي الدين النيسابوري) (ترجمته: ١٠٦)
مجد الدين السرخكتي = محمد بن عبد الله
محمد بن أبي بكر (الحسين) خواهر زاده ١٦٣
محمد بن أبي بكر المرغيناني (الأديب المختار) (ترجمته: ٥٧)، ١٦٩
محمد بن أحمد (السرخسي) (ترجمته: ٨٤)
محمد بن إدريس (الشافعي) ٤٥-٩٥
محمد بن إسماعيل (البخاري) (ترجمته: ٩٠)
محمد بن الحسن بن عبد الله ٣٥
محمد بن الحسن الشيباني (ترجمته: ٢٩)، ٣٥-١٤٥

محمد بن الحسين (الأرسابندي) (ترجمته: ٨٠)
محمد بن عبد الله السرخكتي (ترجمته: ٨٧)
محمد بن علي الزرنجري (ترجمته: ٨٢)
محمد بن الفضل الكماري (ترجمته: ١٧٤)
محمد بن يحيى (الجرجاني) (ترجمته: ١٣٣)
المرغيناني (شيخ المؤلف، برهان الدين) = علي بن أبي بكر
المستغفري = جعفر بن محمد
منصور الحلاج = الحسين بن منصور
موسى بن عمران صلى الله عليه وسلم ١٥٤
نصر بن حسن المرغيناني ١٨٤
النعمان بن ثابت = أبو حنيفة
ناصر الدين أبو القاسم = الحسين بن محمد
هارون الرشيد (الخليفة) ٨٣
هلال بن يسار (ترجمته: ١٦٩)، ١٧٩
وكيع بن الجراح (ترجمته: ١٨٢)
يحيى بن معاذ الرازي (ترجمته: ١٧٠)
يعقوب بن إبراهيم = أبو يوسف
يوسف بن أيوب الهمداني (ترجمته: ١٢٥)، ١٦٣
يوسف بن خالد السمتي ٦٠

فهرس الأشعار

المطلع	القافية	القائل	البحر	عدد الأبيات	الصحيفة
الجاهلون	فأحياء	ظهير المرغيناني	البسيط	١	١١٣
إذ العلم	المواكب	المرغيناني	الطويل	١١	١١٥
إن كنت	عائب	-	الكامل	٢	٧٥
ذو العقل	وإعناتا	البستي	الوافر	٢	١٦٧
لكل الى	ثبات	-	الطويل	١	٦٧
أخدم العلم	حميد	-	الخفيف	٨	١٢٩
تعلم	المحامد	محمد بن	البسيط	٥	٣٦
قم الليل	ينفد	-	الكامل		١٩١
لاتصحب	يفسد	-	الكامل		٧٦
من طلب	الرشاد	أبو حنيفة			٥٤
ياربد	الصمد	بالفارسية			٧٥
إذا تم	مكثراً	المصنف	الطويل	١	١٩٧
النطق زين	مكثاراً	-	الكامل	٢	١٩٧
وفي الجهل	قبور	المرغيناني	الطويل	٢	١١٤
إذا ما اعتز	باعتزاز	-	الوافر	٢	١١٨
سرور الناس	النعاس	-	الوافر	١	١٩٠
كن للأوامر	محافظاً	عمر النسفي	الكامل	٣	١٧٧
أوصيك	مطيعاً	-	الكامل	٢	١٣٥
يا طالب	الشبعا	-		٢	١٠٢
لهفي	يلفى	المرغيناني	الكامل	١	١٧١
الجد يدني	مغلق	الشافعي	الكامل	٤	٩٥
فساد كبير	متنسك	المرغيناني	المتقارب	٢	٥١
رضينا قسمة	مال	علي بن أبي	الوافر	٢	١١٢

المطلع	القافية	القائل	البحر	عدد الأبيات	الصحيفة
كم من حياء	كسل	-	البسيط	٢	١١١
يا نفس	مهل	الصفار	البسيط	٢	١٠٩
هي الدنيا	الذليل	-	الوافر	٢	٥٥
من شاء	جملا	المؤلف		٢	١٠٠
رأيت أحق	مسلم	-	الطويل	٢	٧٧
إذا ساء	توهم	أبو الطيب	البسيط	٢	١٦٦
فعار ثم عار	الطعام	-	الوافر	١	١٢١
فلا تعجل	كمستديم	-	الوافر	٦	١٠٨
ولم أر	التمام	أبو الطيب	الوافر	١	١٦٥
أخو العلم	ريم	-	الطويل	٢	١١٤
بقدر الكد	يقوم	-	الوافر	٢	٩٨
على قدر	المكارم	أبو الطيب	الطويل	٢	١٠٥
إذا شئت	هما	-	الطويل	٢	١٦٣
إن المعلم	يكرما	-	الكامل	٢	٨٣
ألا لا تنال	ببيان	-	الطويل	٢	٧٠
إن الهوى	هوان	-	الكامل	١	٦٩
دعي نفسي	الهوان	المصنف	الوافر	٢	١١٠
تمنيت	فتون	-	الطويل	٢	٩٧
أطيعوا وجدوا	ترجعون	عمر النسفي	المتقارب	٢	١٧٨
استعن نصر	يختزن	نصر المرغيناني	مجزوء الرجز	٢	١٨٤
تنح عن	فزده	-	الوافر	٢	١٦٦
العلم من	خدمه	-	البسيط	١	١٣٤
الفقه أنفس	مفاخره	-	البسيط	٢	١١٩
حياة القلب	فاجتنبه	-	الوافر	١	١١٤
ولا تجز	فاعله	يوسف	الطويل	١	١٦٣

المطلع	القافية	القائل	البحر	عدد الأبيات	الصحيفة
أرى لك	تذلها	–	الطويل	١	١٧٢
سلام على	طرفها	عمر النسفي	الطويل	٤	١٨٥
العلم حرب	العالي	–	البسيط	١	٩٢
إن التواضع	يرتقي	الأديب المختار	الكامل	٤	٥٧
بجدي	بمجدي	–	الوافر	٢	٩٣
بقدر الكد	الليالي	الشافعي	الوافر	٦	٩٨
بلوت الناس	وقالي	–	الوافر	٣	١٦٥
عن المرء لا	يقتدي	–	الطويل	٢	٧١
أليس من	عمري	–	الطويل	١	١٩٠
دع المكارم	الكاسي	الحطيئة	البسيط	١	١٥٣
شكوت الى	المعاصي	الشافعي	الوافر	٢	١٨١

فهرس الكتب

اسم الكتاب	المؤلف	الصحيفة
الأخلاق	الراغب الأصفهاني	٤١
أصول الفقه	السرخسي	١٣٥
الصلاة	محمد بن الحسن	٩٠
طب النبي ﷺ	المستغفري	٢٠٥
مكارم الأخلاق	رضي الدين النيسابوري	١٠٦
الهداية	المرغيناني	٥٠
الوصية	الإمام أبي حنيفة	٦٠

فهرس الموضوعات

الإهداء ٥
مقدمة التحقيق ٩
ترجمة المؤلف ١٢
مقدمة الطبع ١٤
تفصيل النص ١٧

الفصل الأول
في ماهية العلم والفقه وفضله

فرضية العلم ٢٦
علم الحال ٢٧
فضيلته ٢٨
حقيقة الزهد ٢٩
علم القلب ٣٠
شرف العلم ٣١
كرامة التقوى ٣٣
تنقية الأخلاق ٤٠
فرض الكفاية ٤١
تفاضل العلوم ٤٢
واجب المسلم نحو البلاء ٤٣
علم الفلك ٤٤
علم الطب ٤٤
مجلى العلم ٤٥
علم الفقه ٤٥
ثمرة الفقه ٤٦
يقظة العاقل ٤٧
اعتذار ٤٧

الفصل الثاني
في النية حال التعلم

أصالة النية ٤٩
النية للعلم ٥٠
فتنة عظيمة ٥٠
محترز النية ٥٢
طلب الجاه ٥٤
التفكر بالدنيا ٥٥
رفعة العالم ٥٦
هيئة العالم ٥٩
وصية أبو حنيفة ٦٠
وصية المرغيناني ٦٠

الفصل الثالث
في اختيار العلم والأستاذ والشريك

اختيار العلم ٦١
آفة الجدل ٦٢
اختيار الأستاذ ٦٣
أهمية المشاورة ٦٤
مراتب الناس ٦٥
وصية حكيم ٦٦
أصل أصيل ٦٧
مجالي الصبر ٦٨
اختيار الشريك ٧١

أثر الصحبة ٧١

الفصل الرابع
في تعظيم العلم وأهله

سر الانتفاع ٧٦
تعظيم الحرم ٧٦
تعظيم المعلم ٧٦
استخلاف العلماء ٧٨
توقير المعلم ٧٩
جملة أدبه ٧٩
توقير أولاده ٨٠
خادم أستاذه ٨٠
خادم والدته ٨١
ولد الخليفة ٨٣
تعظيم الكتاب ٨٤
نور على نور ٨٤
ترتيب العلوم ٨٥
جودة الكتابة ٨٦
أدب النسخ ٨٧
هيئة الكتاب ٨٨
تعظيم الشركاء ٨٨
أدب التلقي ٨٩
التفويض للأستاذ ٨٩
ثمرة التفويض ٩٠
ناصح البخاري ٩٠
مجلس الطالب ٩١
كلاب معنوية ٩١
أسوأ الأخلاق ٩٢

الفصل الخامس
في الجد والمواظبة والهمة

الحاجة إليه ٩٤
محتاجو الجد ٩٥
سهر الليالي ٩٨
وقت المواظبة ١٠١
رفق الطلب ١٠٣
وصية نبوية ١٠٤
علو الهمة ١٠٥
رأس التحصيل ١٠٦
الهمة للدنيا ١٠٦
ثمرة المواظبة ١٠٨
عاقبة الكسل ١٠٩
الحض على العلم ١١٢
العلم النافع ١١٢
موت الأحياء ١١٣
أعلى الرتب ١١٥
داعية التحصيل ١١٨
عوارض النسيان ١٢٠
من فوائد السواك ١٢٠
تقليل الأكل ١٢١
المبغضون ١٢٢
كثرة الطعام ١٢٣
طريق التقليل ١٢٣

الفصل السادس
في بداية السبق وقدره وترتيبه

يوم الأربعاء ١٢٤

بركة اليوم ١٢٦
تحضير الدرس ١٢٦
التوسع بالمدارسة ١٢٦
تسهيل البدء ١٢٧
تمكن التلقي ١٢٨
التأمل للفهم ١٢٨
تحري الفهم ١٢٩
توصية لطالب ١٢٩
أدب المذاكرة والمناظرة ١٣١
محترز المناظر ١٣٢
تصحيح النية ١٣٢
الحيلة للحق ١٣٢
التروي بالالتزام ١٣٣
ثمرة التذاكر ١٣٣
غلبة الطبع ١٣٣
التأمل بالدقائق ١٣٤
التقويم بالتأمل ١٣٤
أصل كبير ١٣٥
الوصايا الخمس ١٣٥
غنيمة الحكمة ١٣٦
أستذة جارية ١٣٧
مدرك العلم ١٣٧
وسيلة التعلم ١٣٩
الماتقولي ١٣٩
الكسب والتعلم ١٣٩
العالم المتكسب ١٤٠
تعلم الغني ١٤١
التعلم بالشكر ١٤٢
الاشتغال بالشكر ١٤٢
التفويض للهادي ١٤٣
آفة الاعتداد ١٤٤
داء البخل ١٤٤
بركة الجود ١٤٥
اقتناء الكتب ١٤٥
التعزز بالعلم ١٤٦
كراهة الطمع ١٤٧
كراهة البخل ١٤٧
طمع العالم ١٤٨
الرجاء والخوف ١٤٨
ضبط الدرس ١٤٩
تكرار السبق ١٤٩
همة المدارسة ١٤٩
نشاط المذاكرة ١٥٠
آفة الفتور ١٥٠
دأب التحصيل ١٥٠
أس الحفظ ١٥١

الفصل السابع
في التوكل

ضمان الرزق ١٥٢
وصية الحلاج ١٥٣
الهم الممدوح ١٥٤
غربة الطالب ١٥٤

سفر التعلم ١٥٤
العوض باللذة ١٥٥
لزوم التعلم ١٥٥
لذة العلم وسكرات الموت ١٥٦

الفصل الثامن
في وقت التحصيل

دوامه. أفضل أوقاته. عند الملال ١٥٩

الفصل التاسع
في الشفقة والنصيحة

خلق العلم ١٦١
وراثة العلم ١٦١
بركة الشفقة ١٦١
ترك الخصام ١٦٢
شؤم العادات ١٦٤
سوء الظن ١٦٥
أسبابه ١٦٦
التنزه عن الجاهل ١٦٦

الفصل العاشر
في الاستفادة

دوام الفائدة ١٦٨
تخير العلم ١٦٨
وصية نبوية ١٦٩
الوصية بالحفظ ١٦٩
غنيمة الوقت ١٧٠
غنيمة الشيوخ ١٧٠
خزي الإعراض ١٧١
التحمل التملق ١٧٢

الفصل الحادي عشر
في الورع في حال التعلم

فقد التورع ١٧٣
الورع الكامل ١٧٣
ترك الحيطة ١٧٤
ثمرة الورع ١٧٥
حذر المكثار ١٧٥
تجنب الفساد وأهله ١٧٥
ثمرة الأدب ١٧٦
الحرمان للتهاون ١٧٧
عون التحصيل ١٧٧
ثبوت الحكمة ١٧٩

الفصل الثاني عشر
فيما يورث الحفظ

أسبابه ١٨٠
نظر المصحف ١٨٠
الأوراد اللفظية ١٨١
أسباب صحية ١٨٢
مورثات النسيان ١٨٣
أسباب النسيان ١٨٦

الفصل الثالث عشر
فيما يجلب الرزق وما يمنعه وما يزيد في العمر وما ينقص

روافد الرزق ١٨٨
موانع الرزق ١٩٠
أسباب الرزق ١٩٤
أوراد سعة الرزق ١٩٨
أوراد بركة العمر ٢٠٣
توصية ٢٠٥

الإهداء

- إلى من يريد أن يكون حنيفيًا

لا مجرّد مقلّد لمذهب الإمام أبي حنيفة

- إلى كلّ طالب علم سيخرج إلى النّاس ...

أقدّم هذه الصحيفة التربويّة السّديدة

لمنهجٍ إيمانيٍّ صحيح

وتقويمٍ أخلاقيٍّ راشد

وصيّة عظمى من إمامٍ أعظميّ

وصية الإمام الأعظم

أبي حنيفة

لتلميذه يوسف السمتي

حققه وعنونه وعلق عليه

عبد الجليل العطا

«البكري»

دار النعمان للعلوم

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٣٠هـ - ٢٠٠٩م

دار النعمان للعلوم

دار المعالي للعلوم

دمشق -برامكة -جانب دار الفكر -هاتف: ٢٢٢١٧٦٧

دمشق- حي النزهة : ٥١١١٣٠٦ - ص.ب : ١٨٧

شارع بغداد-عقيبة-قرب جامع التوبة - هاتف: ٢٣١٩٧٦٧

شارع بغداد- سادات - جادة عاصم- هاتف: ٤٤٧٤٧١٦

جوال : ٠٩٣٢٦٦٧٣٣٩-٠٩٥٥٨٩٣٢٨٣

E-mail:alnouman1@yahoo.com

تمهيد:

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمدُ لله ربِّ العالمين، وأفضل الصلاة وأتمُّ التسليم على سيِّدنا محمَّد الصادق الوعد الأمين، المبعوث هدى ورحمة للموقنين، وعلى آله وصحبه، ومن اقتفى أثره وتبع هديه إلى يوم الدين.

أما بعد؛ فقد استحوذت الوصاية على اهتمام كبير في ديننا الحنيف وشرعنا المنيف بله الشرائع كلِّها، وذلك لأنَّ الإيصاء تركيز اهتمامي لشأن خطير، يجب المحافظة عليه أو العناية به، والعملُ على بِرِّ الموصي، وقد شرعها الله تبارك وتعالى، وفعلها خيرةُ خلقه من الأنبياء والمرسلين.

فقد وصَّى الله تعالى بإجمال دينه وشريعته بقوله تبارك وتعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ ﴾ [الشورى: ١٣].

فالدين الذي شرعه الله تعالى وأوصى به إلى أنبيائه فأقامه بها، ونهاهم عن التفرقة فيه.. قد خوطب به هؤلاء المرسلون من أولي العزم.

وكذلك جاءت التوصية على لسان خليل الرحمان عليه السلام

﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾[البقرة: ١٣٢].

فهذه الوصاية الجليلة من الله عز وجل، ومن خِيرة المرسلين من أنبيائه التي انصبَّت حول محورٍ.. هو التبعيَّة الكاملة للدين القويم الذي هو الإسلام الحنيف؛ كما ورد عن مجاهد في قوله تعالى ﴿ شَرَعَ لَكُم ﴾: أوصيناك يا محمَّد وإيَّاهم ديناً واحداً.

والذي جاء به هؤلاء جميعاً لم يقتصر على إجمالي ما ذكر من الدين والإسلام.. بل سرى ذلك إلى الثمرة المرادة منه بشموليَّة الخطاب بقوله تبارك وتعالى ﴿ وَلَقَدْ وَصَّيْنَا ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَإِيَّاكُمْ أَنِ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ﴾ [النساء: ١٣١].

ثمَّ سرى ذلك أيضاً إلى فروع تلك العموميَّات بقول سيِّدنا عيسى ﴿وَأَوْصَٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴾ [مريم: ٣١].

ولم يقتصر الأمر على الأمر الإلهيِّ، بل جعل الوصاية بين المؤمنين علامة جليلة على وفائهم للانتماء الذي أعلنوه، أو التمسُّك بالنهج الذي سلكوه.. ﴿ ثُمَّ كَانَ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْمَرْحَمَةِ ﴿١٧﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْمَيْمَنَةِ ﴾[البلد: ١٧ – ١٨].

ولقد كان هذا التواصي ثالث الإيمان والعمل الصالح، وعنوان النجاة

من خسارة خالدة..

﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ﴾ [العصر: ٢ - ٣].

وعلى محور آخر.. وفي حقوق العباد أخذ تبارك وتعالى على نفسه التوصية دون وساطةٍ لجليل شأنها وعظيم خطرها، فلم يدعها لنبيٍّ مرسلٍ، ولا لملكٍ مقرَّبٍ، ولا أرسلها بين المؤمنين يتداولونها.. وإنما أمر بها وعزاها لذاته العليِّ؛ فقال عزَّ من قائل ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ ﴾ [العنكبوت: ٨].

فكان في هذا إشارة عظيمة إلى ١- شأن اتباع الدين، و٢- وحدة صفوف أصحابه، و٣- العناية بالوالدين، ثمَّ الأهمية العظمى لهذه الجوانب الثلاثة في مقابلة إطلاق الحق، والصبر، والمرحمة.

وبقي للمسلمين ما يتداولونه فيما بينهم من معاني الوصاية.

ومن ثَمَّ جاءت التعاليم النبويَّة على نطاق التكليف بالوصاية ذاته، فاهتمَّ بها النَّبيُّ ﷺ، وأولاها عناية شبيهة بما جاء عن الله تبارك وتعالى؛ فقال ﷺ: « إنَّ الله يُوصِيكُمْ بِآبَائِكُمْ... بِأُمَّهَاتِكُمْ...»[1]. ولكنَّه من جانب آخر لم يغفل الاهتمام بجميع ما يوصي به منبِّهاً إلى خطره، لأنَّ التوصية لا تكون إلَّا بـ ١- مهمٍّ، كما يتبادر من قول عمر رضي الله عنه: (أُوْصِيكُمْ

(١) أخرجه ابن ماجه: ٣٦٦١؛ عن المقداد بن معد يكرب رضي الله عنه.

بِذِمَّةِ الله)[1].

أو ٢- بما يتوهَّم الغَلَبةُ عليه لضعفه، كقوله ﷺ: « اسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرَاً»[2].. « أُوْصِيْكُمْ بِمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»، أو ٣ ـ بمزيد الاهتمام، كقوله ﷺ: «الصَّلاةَ.. الصَّلاةَ.. وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ»[3].

في آخر ما نطق به صلوات الله عليه.

ومن الأخيرين تقديم الوصيَّة على الدَّيْن في آيات المواريث على الرغم من أن سيِّدنا رسول الله ﷺ قضى بالدَّين قبل الوصية، وانعقد مِن بعده الإجماعُ على أولويَّة الدَّيْن!! فقد جاءت الآية حفزاً للعناية والاهتمام ﴿مِنۢ بَعۡدِ وَصِيَّةٖ يُوصِينَ بِهَآ أَوۡ دَيۡنٍ﴾ [النساء: ١٢].

ومن ههنا أيضاً تنبَّه أهل العلم والفضيلة إلى قيمة الوصاية وكبير أثرها كزادٍ تربويٍّ؛ أو قوتٍ ضروريٍّ من علم؛ أو توجيه، وقد كان للإمام أبي حنيفة بعد سيِّد الخلق صلوات الله عليه وصحابته الكرام ريادةٌ في هذا الشأن وأيَّةُ ريادة، لسنا بحاجة للتدليل عليها بعد الذي بين أيدينا، ولكننا لا نتجاهل وصايا أخرى لعلماء أجلَّاء وأئمَّة هداة.. منها على سبيل المثال «وصيَّة الإمام مالك» لهارون الرشيد، و« وصيَّة الإمام الشافعي»..

---

(١) أخرجه البخاري: ٢٩٢٧.

(٢) متفق عليه.. البخاري: ٥١٨٦، ومسلم ٦٠-١٤٦٨، عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(٣) أخرجه الإمام أحمد: ٥٥٢؛ عن عليٍّ كرَّم الله وجهه.

وكلتاهما مطبوعتان، وغيرهما الكثير مما يعسر حصره، ولعلَّنا في قادمات الأيام ييسر الله تعالى لنا شرحاً على وصية الإمام أبي حنيفة الشهيرة للقاضي الأجلِّ أبي يوسف يعقوب (تلميذه) التي كان لها دويٌّ كريم بين أهل العلم.

وهذا من الوصايا المقصودة، أمَّا ما كان من وصايا عفوية! فمبعثر في طيَّات الكتب تذكر في مناسباتها دون أن تتَّسمَ بمنهج أو سِمَة، يحضرني منها وصيته أبي حنيفة لأبي يوسف وهو محتضر؟! (الخُفَّاشُ يُمْنِي كَمَا تُمْنِي الرِّجَالُ) وقصَّته المشهورة في بيت الرشيد وزبيدة..

وإذا كان الغالب في الوصيَّة أن تكون لمن يودِّعُ إلى زمن بعيد؛ أو سفر طويل، أو يقدم على الموت والآخرة.. كما يشير إليه العِرْبَاض بن سارية رضي الله عنه بقوله: (يا رسول الله؛ كأنَّها موعظة مودِّع فأوصنا...). وكذلك يشير قوله ﷺ: « مَنْ مَاتَ عَلَى وَصِيَّةٍ مَاتَ عَلَى سَبِيْلٍ وَسُنَّةٍ»[1]... فإنَّ «الوَصِيَّ أَمِيْنٌ فِيْمَا أُوْصِيَ إِلَيْهِ بِهِ»[2]، والحقُّ تبارك وتعالى يلزمنا بصريح الأمر﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وهكذا ـ بعد أن تلقَّينا بالترحيب والتكريم كما أمرنا بذلك صلوات الله عليه.. فقد كان أبو سعيد رضي الله عنه إذا رأى طلبة العلم.. قال: (مرحباً

---

(١) أخرجه ابن ماجه: ٢٦٩٢؛ عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الدارمي: ٣٢٠٣. من كلام إبراهيم النخعي.

بوصيَّة رسول الله)[1] ــ نجد لزاماً علينا أن نودِّعَه بالحفاوة والتقدير، ونزوِّده بهذه الوصيَّة الأعظميَّة التربويَّة، والأخلاقيَّة الفاذَّة، والتي جمعت في مجملها من توجيهات نبويَّة رشيدة وسديدة بعد أن اخترنا له تلك الأحكام الفقهيَّة العتيدة مستقاةً من صاحب الشرع الشريف ﷺ ودستوره الخالد.

رحم الله الإمام الأعظم أبا حنيفة بما ترك للأمَّة من علم وتربية، وجمعنا وإيَّاه تحت لواء سيِّد الخلق ﷺ. إنه سميع قريب.

والحمد لله ربِّ العالمين...

---

(١) الترمذي: ٢٥٧٤، وابن ماجه: ٢٤٥. ومثله عند الدارمي.. عن أبي الدرداء رضي الله عنه.

مقدمة التحقيق

هذه الوصية الجليلة التي نقدِّمها لقرَّآءنا الكرام محقَّقة عن ثلاث نسخ:

إحداهما: مطبوعة ضمن «مناقب أبي حنيفة».

والثانية: محفوظة بمكتبة الأسد بدمشق نقلت إليها من المكتبة الظاهرية بالرقم: ٣٨٦٦، وقد وجد بهامشها أحاديث شريفة ضمَّنْتُها جميعاً مع الهوامش مشيراً إليها بعبارة « في هامش (ظ)».

والثالثة: نسخة خطية محفوظة عندي ـ تامة الطرفين ـ مجدولة بالحمرة.

ومن مجموع هذه النسخ الثلاث ستجد أيُّها القارئ نسخة تامَّة موثَّقة.

مشيراً إلى فوارق النسخ بالهامش بـ «المناقب» إلى الأولى، وبـ (ظ) إلى الثانية، وبـ « نسختي» إلى الثالثة. مع تضمين كلِّ هوامش (ظ) إلى هوامش علَّقْتُها استكمالاً للفائدة.

هذا؛ وقد وفَّق الله تبارك وتعالى لتحقيق هذه الوصيَّة لتطبع إتماماً لفائدة كتاب «تعليم المتعلم» (انظر ص٦٠) الذي يعدُّ أساساً لطالب العلم، ثمَّ تجيء هذه الوصية لتنير دربه في معاشرة الناس، ولذا رأيت إتماماً لهذه الفائدة أن أُلحق بها قصيدة عصماء توجِّهُ العالم (كخطوة ثالثة بعد التلقِّي والمعاشرة) إلى ما يجب أن يحفظ به علمه عن الابتذال والمهانة.

أسأل الله تعالى أن ينفعنا بها، وأن يجعلها لنا زاداً في مسالك الحياة الوعرة، ومصباحاً وهَّاجاً في دياجيرها المدلهمَّة، إنَّه نعم المولى ونعم النصير.

بسم الله الرحمن الرحيم

هذه وصية الإمام أبي حنيفة رحمه الله لتلميذه يوسف بن خالد السَّمْتي البصري.

مضمون الوصية: وصَّى بها حين استأذنه الخروج إلى وطنه البصرة[1].

---

(١) روى الموفَّق المَكِّيُّ في كتابه «مناقب أبي حنيفة»: ٣٦٠ بسنده إلى يوسف السَّمْتي يذكر قصَّة رحلته من البصرة إلى الكوفة؛ فقال: اختلفت إلى عثمان البَتِّي فقيهِ أهل البصرة، وكان يذهب مذهب الحسن وابن سيرين ومذهب البصريين، فأخذت من مذاهبهم، وناظرت عليها، ثم استأذنته في الخروج إلى الكوفة للقي مشايخها والسماع عنهم والنظر في مذاهبهم؛ فأذن لي، فلمَّا قدمت الكوفة مضيت إلى سليمان الأعمش، لأنَّهم دلُّوني عليه، وقالوا: هو أعلمهم بالحديث، وكان مسائلُ بالحديث كنت سألت عنها أهل الحديث فلم أجد من يعرفها، فذكرت بعض ذلك في حلقة الأعمش.. والأعمشُ غائب، فذكر ذلك للأعمش، فقال: ايتوني به. فمضيت إليه، فقال: لعلك تقول (إنَّ أهل البصرة أعلم من أهل الكوفة)!! كلَّا وربِّ البيت والحرم..ما ذلك كما حدَّثَتْك نفسك!!

وهل أخرجت البصرة إلَّا قاصَّاً، أو معبِّراً، أو نائحاً؟؟؟ والله لو لم يكن بالكوفة إلا رجل ليس من عَرَبها؛ ولكن من مواليها.. يعلم من هذه المسائل ما لم يكن يعلمه الحسن ولا ابن سيرين؛ ولا قتادة الأعمى ولا البتي؛ ولا غيره... وغضب علي غضباً خشيت أن يضربني بعصا رفعه من بين يديه.. ثم قال لبعض مَن كان في مجلسه: اِذهب به إلى مجلس نعمان، فو الله، لو رأى أصغر أصحابه.. علم أنه لو قام لأهل الموقف لوسعهم...

ثم ذكر لقاءه بأبي حنيفة وما جرى بينهم.. وكيف كان استقباله أصحاب أبي حنيفة بتوجيهه، وذكر كيف كان الإمام يعاملهم حتى ذكر الوصية بتمامها.

فقال: لا، حتَّى أتقدَّم إليك بالوصيَّة فيما تحتاج إليه في معاشرة الناس، ومراتب أهل العلم، وتأديب النفس، وسياسة الرعيَّة، ورياضة الخاصَّة والعامَّة، وتفقُّد أمر العامَّة.. حتَّى إذا خرجتَ بعلمك كان معك آلةٌ تصلحُ لك وتَزِيْنُك، ولا تَشِينُك[1].

قواعد العِشرة: واعلم أنَّك متى أسأت عِشرة النَّاس.. صاروا لك أعداءً؛ ولو كانوا أمَّهاتٍ وآباءً، ومتى أحْسَنْتَ عِشرةَ الناس من أقوام ليسوا لك أقرباءَ.. صاروا لك أقرباء[2]. ثمَّ قال لي: اصبر يوماً[3] حتى أُفرِّغَ لك نفسي، وأجمَعَ لك هِمَّتِي، وأعرِّفك من الأمر ما تحمدُني؛ وتجعل نفسك عليه، ولا توفيق إلَّا بالله.

فلما مضى الميعاد؛ قال:

بسم الله الرحمن الرحيم

كشف حال: أنا أكشف لك عمَّا عزمتَ عليه..

كأنِّي بكَ.. وقد دخلْتَ بصرة؛ وأقبلْتَ على المناقضة مع مخالفيكَ،

---

(١) «في المناقب»: تصلح له، وتزينه، ولا تشينه. بضمير الغيبة!! يعني العلم. والشين: العيب. والزين: الجمال.

(٢) «في المناقب»: صاروا لك أمهات وآباءً.

(٣) «في المناقب»: يومين.

ورفعت نفسك عليهم، وتطاولت بعلمك لديهم، وانقبضتَ عن معاشرتهم ومخالطتهم، وهجرتَهم فهجروك، وشتمتهم فشتموك، وضلَّلتَهم فضلَّلوك، و[بدَّعتهم] فبدَّعوك[1]، واتصل ذلك الشينُ بنا وبك، واحتجتَ إلى الهرب؛ والانتقال عنهم، وليس هذا برأي! فإنَّه ليس بعاقلٍ من لم يدارِ[2] مَن ليس له مِن مداراتِه بُدٌّ، حتَّى يجعل الله تعالى له مخرجاً. قال السَّمتيُّ: ولقد كنتُ مُزْمعاً[3] على ما قال!.

ثمَّ قال أبو حنيفة رحمه الله: إذا دخلت البصرة واستقبلك الناس، وزاروك وعرفوا حقَّك؛ فأنزل كلَّ رجُلٍ منهم منزلته[4]، وأكرمْ أهل الشرف[5]،

---

(١) نسبتهم إلى الضلال والبدعة. وما بين المنعكفين من (ظ).

(٢) من المداراة، انظر «سر الروح» للبقاعي ص٤٧ بتحقيقنا لتعلم الفرق المداراة والنفاق.

(٣) أي: قاصداً ومصرَّاً. وهذه اللفظة من « المناقب».

(٤) في هامش (ظ) ما يلي: ذكر الإمام مسلم رحمه الله في أول «صحيحه» تعليقاً، قال: وذكر عن عائشة رضي الله عنها قالت: (أَمَرَنَا رَسُولُ الله ﷺ أَنْ نُنْزِلَ النَّاسَ مَنَازِلَهُمْ). وذكره الحاكم أبو عبد الله في كتابه « معرفة علوم الحديث»، وقال: هو حديث صحيح. اهـ.

(٥) في هامش (ظ): عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «لَيْسَ مِنَّا مَنْ لَمْ يَرْحَمْ صَغِيرنَا، وَيَعْرَفْ شَرَفَ كَبِيرَنا». ولفظ «شَرَفَ كَبِيْرِنَا» أي: ما يستحقُّه من الإكرام.

والحديث أخرجه الترمذي: ١٩٢١ بلفظ. وأخرجه أحمد: ٢/ ١٨٥، وأبو داود: ٤٩٤٣، الترمذي: ١٩٢٠، والبخاريُّ في « الأدب»: ٣٥٥ بلفظ: « حَقَّ كَبِيْرِنَا». وليس المراد السِّنَّ، بل هو أعمُّ للفظ الشرف. فتنبه.

وعظِّم أهل العلم[1]، ووقِّر الشيوخ[2]، ولاطف الأحداث[3]، وتقرَّب من العامَّة[4]،

---

(١) في هامش (ظ): قال الله تعالى ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ۗ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ٩].

وفي الباب أحاديث كثيرة فيها من الدلالة على توقير العلماء وإظهار مراتبهم وبيان مكانتهم أداءً لحقهم.

ويجب التنبيه إلى أن تعظيم العلماء لا يتنافى مع اختلاف وجه النظر العلمية لكل منهم. فالواجب التعظيم ولو اختلف الرأي؛ سواء كان شيخَه؛ أو غير شيخه، والأوَّل أشدُّ تأكيداً.. انظر ما في « تعليم المتعلم» في الفصل الرابع ص٧٦ فما بعد.

(٢) في هامش (ظ): عن أبي موسى الأشعري ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ مِنْ إِجْلَالِ الله تَعَالَى إِكْرَامَ ذِي الشَّيْبَةِ الْمُسْلِمِ».

أخرجه أبو داود: ٤٨٤٣ بزيادة: « وَحَامِلِ الْقُرْآنِ غَيْرِ الغَالِي فِيْهِ؛ وَالجَافِي عَنْهُ، وَإِكْرَامُ ذِي السُّلْطَانِ الْمُقْسِطِ».

وإنَّما أتممته! لما يتَّصل بما نحن فيه من قيد التأدُّب مع أهل العلم، وإكرام السلطان.

(٣) جمع حَدَث، وهو الصغير. وفي التوجيه النبويِّ عناية واضحة بالصغار؛ كالسؤال عن حاله.. « أَبَا عُمَيْرٍ..» والسلام عليهم، وإطعام الباكورة من الثمار لأصغر مَن في المجلس.. وغير ذلك.

انظر باب الصحبة من « شرح عين العلم» بتحقيقنا: «شؤون الأسرة».

(٤) تقرُّبَ الحاجة؛ لنحو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، واستمالة القلوب والتحابب، دون أن يكون لأغراض دنيوية، وإلَّا! فإنَّ الإمام محمد بن الحسن يقول: لو كان العوامُّ كلُّهم عبيدي لأعتقتهم؛ وتبرَّأتُ من ولائهم.

وانظر « تعليم المتعلم» ص٥٢ فما بعد.

ودَارِ الفجَّار[1]، واصحب الأخيار[2]، ولا تتهاون بالسُّلطان[3]، ولا تَحْقِرَنَّ أحداً يقصدُك[4]،

---

(١) من المداراة لمثل ما ذكر قبله، ودفعاً لشرهم ونحورهم. ولأنَّ العامَّة والفِغام ربَّما أُغرِيت بهم فتطاولوا على أهل العلم والفضل ونالوا منهم.

(٢) في هامش (ظ): وعن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه؛ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «إنَّما مَثَلُ الجَلِيْسِ الصَّالِحِ وَجَلِيْسِ السُّوءِ، كَحَامِلِ المِسْكِ، وَنَافِخِ الكِيْرِ، فَحَامِلُ المِسْكِ: إمَّا ١- أَنْ يُحْذِيَكَ، وَإمَّا ٢- أنْ تَبْتَاعَ مِنْهُ، وإمَّا ٣- أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيْحاً طَيِّبَةً، وَنَافِخِ الكِيْرِ: إمَّا ١- أنْ يُحْرِقَ ثِيَابَكَ، وَإمَّا ٢- أنْ تَجِدَ مِنْهُ رِيْحاً مُنْتِنَةً».

أخرجه البخاري: ٥٥٣٤، ومسلم: ١٤٦-٢٠٢٦. وغيرهما.

والكِيْر: زِقٌّ جلدي ينفخ به الحداد على النار ليحميها، ويحذيك: يعطيك مجاناً ادِّهاناً.

(٣) في هامش (ظ): عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « عَلَيْكَ السَّمْعَ وَالطَّاعَةَ فِي عُسْرِكَ وَيُسْرِكَ، وَمَنْشَطِكَ وَمَكْرَهِكَ، وَأَثَرَةٍ عَلَيْكَ»، عسرك ويسرك؛ أي: فقرك وغناك. ومنشطك ومكرهك؛أي: ما تحبُّه وتكرهه. وأَثَرة عليك؛ أي: الاستئثار والاختصاص بأمور الدنيا.

والمعنى: عليكم الطاعة؛ وإن اختصَّ الأمراء بالدنيا، ولم يوصلوكم حقَّكم مما عندهم.

وعن ابن عبَّاس رضي لله عنهما أنَّ رسول الله ﷺ قال: «مَنْ كَرِهَ مِنْ أَمِيْرِهِ شَيْئاً فَلْيَصْبِرْ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ السُّلْطَانِ شِبْرَاً مَاتَ مِيْتَةَ الجَاهِلِيَّةِ». وحديث أبي هريرة ﷺ أخرجه مسلم: ٣٥-١٨٣٦.

أمَّا حديث ابن عبَّاس رضي الله عنهما.. فمتفق عليه: البخاري: ٢٥٤٦، ومسلم: ٥٦-١٨٤٩.

(٤) يقصدك.. ليست في « المناقب»!! وفي هامش (ظ): عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ المُسْلِمَ».

أخرجه أحمد: ٣/ ٤٩١، ومسلم: ٣٢-٢٥٦٤، وأبو داود: ٤٨٨٢، والترمذي: ١٩٢٨، وابن ماجه: ٤٢٦٦.

ولا تقصِّرنَّ في إقامة مَودَّتك إيَّاهُم[1]، ولا تُخْرِجَنَّ سرَّك إلى أحد[2]، ولا تَثِقَنَّ بصحبة أحدٍ حتَّى تَمتحنَه[3]، ولا تُخَادِم[4] خسيساً، ولا وضيعاً، ولا تقولنَّ من الكلام ما يُنكَر عليك في ظاهره[5].

وإيَّاكَ والانبساطَ إلى السُّفهاء[6]، ولا تجيبنَّ دعوةً، ولا تقبلنَّ هديَّةً[7]،

---

(١) سواء كان كفءاً؛ أو لم يكن، لأنك تقدم ما أنت أهله، فتترجم بذلك نفسك.

(٢) فصدرك أوسع لسرِّك، فإن ضاق عنه صدرُك.. فصدر غيرك أضيقُ.

(٣) في هامش (ظ): عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: « الرَّجُلُ عَلَى دِيْنِ خَلِيْلِهِ، فَلْيَنْظُرْ أَحَدُكُمْ مَنْ يُخَالِلُ» ولفظ: يخالل من الخُلَّة؛ وهي: الصداقة، والخليل: الصديق.

أخرجه أحمد: ٢/ ٣٠٣، وأبو داود: ٤٨٣٣، والترمذي: ٢٣٧٨؛ وقال: حسن غريب، لكن قال الحاكم؛ ٤/ ١٧١: صحيح إن شاء الله. وأقرَّه الذهبيُّ.

وفي بعض الألفاظ: «المَرْءُ» بدل «الرَّجُلُ».

وانظر (الباب الثامن في الصحبة) من «شرح عين العلم» بتحقيقنا.

(٤) تتخذه خادماً. لأنَّه يألف الخسَّة فلا يحترز ولا يتحامى، والطبع يسرق من الطبع.

(٥) وفي كلام سيدنا عليٍّ كرم الله وجهه: إياك وما يسبق الى العقول إنكاره؛ وإن كان لديك منه اعتذاره.

(٦) إذ السَّفَه خفة العقل، وعِشرة السفيه عاجلة الموت. وفي عِشرتهم والانبساطِ إليهم فسحُ مجال التطاولِ على الفضلاء.

(٧) في (ظ): مما لابدَّ منه عدمُ الانبساط إلى السفهاء، والصدِّ عنهم، وتوليتُهم الظهر، وعدمُ الالتفاف؛ أو الاهتمامِ بجهالاتهم.

لكن في نسختي، وكذا في « المناقب» كما أثبتُّه!! ولعل المرادَ أن ذلك فيما لو كان قاضياً كما تنبَّأ له الإمام حيث ورد في بعض وصاياه له.. كأنِّي بك قاضياً والقاضي لا تجوز له هدية لم يكن صاحبها يُهدِي قبل التولية، ولا أكثر مما كان يهدي لو كان بينهما مهاداة قبلها. وكذلك لا يجيب القاضي الدعوة الخاصَّة، أيَّ وليمة كانت! ما لم يكن لقريب يدعوه قبلها، والأحسنُ أن لا يجيب أصلاً مدَّة ولايته.

وعليك بالمداراة، والصَّبر والاحتمال، وحُسن الخلق، وسَعة الصَّدر[1].
واستَجِدَّ ثيابك[2]، وأكثِرْ استعمال الطيب[3]،

---

(١) وهذه أخلاق النبوة، وانظر إن شئت « منتهى السول بشرح وسائل الوصول» للحجي بتحقيقنا.

وفي هامش (ظ): عن عبد الله بن عَمْرو بن العاصِ رضي الله عنهما قال: لم يكن رسول الله ﷺ فاحشاً ولا متفحِّشاً، وكان يقول: « إنَّ مِنْ خِيَارِكُمْ أَحْسَنُكُمْ أَخْلَاقاً».

وعن أبي الدرداء عويمر بن زيد ﷺ أنَّ النَّبيَّ ﷺ قال: «مَا مِنْ شَيْءٍ أَثْقَلُ فِي مِيْزَانِ الْمُؤْمِنِ يَوْمَ القِيَامَةِ مِنْ حُسْنِ الخُلُقِ، وَإِنَّ اللهَ يُبْغِضُ الفَاحِشَ البَذِيْءَ».

أمَّا حديث عبد الله.. فمتفق عليه: البخاري: ٣٥٥٩، مسلم: ٦٨-٢٣٢١.

وحديث أبي الدرداء أخرجه الترمذي: ٢٠٠٣ بلفظه، وأحمد: ٦/ ٤٤٢، وأبو داود: ٤٧٩٩.

(٢) في هامش (ظ): عن عَمْرو بن شُعَيب بن محمد بن عبد الله بن عَمْرو بن العاصِ؛ عن أبيه؛ عن جدِّه رضي الله عنهم قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ يُحِبُّ أنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ» أخرجه الترمذي: ٢٨٢٠.

وفي « المناقب»: ثياب كسوتك؛ والمراد اجعلها جديدة ما استطعت.. ما لم يكن ذلك إسرافاً وتكبُّراً، وقد كان هذا ديدنَ الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه قاصداً بذلك أن يقصده السُّؤَّال وأرباب الحاجات؛ دون أصحابه لئلا يحرجهم! ومما يعزى للإمام مالك ﷺ:

حَسِّنْ ثِيَابَكَ مَا اسْتَطَعْتَ فَإِنَّهَا ... زِيَنُ الرِّجَالِ بِهَا تُعَزُّ وَتُكْرَمُ
وَدَعِ التَّخَشُّنَ فِي الثِيَابِ تَوَاضُعاً ... فَاللهُ يَعْلَمُ مَا تُسِرُّ وَتَكْتُمُ
فَجَدِيْدُ ثَوْبِكَ لَا يَضُرُّكَ بَعْدَمَا ... تَخْشَى الإِلَهَ وَتَتَّقِي مَا يَحْرُمُ
وَرَثِيْثُ ثَوْبِكَ لَا يَزِيْدُكَ رِفْعَةً ... عِنْدَ الإِلَهِ وَأَنْتَ عَبْدٌ مُجْرِمُ

وقد تعزى للإمام الشافعيِّ رضي الله عنه!! وهي من الكامل.

(٣) ورد أنَّه ﷺ كان ينفق حوالي ثلث ما يملك على طِيبه مع أنَّه منبع الطيب، وربَّما أخذ من طِيب أهله!.

وقرِّب مَجْلِسَك[1]، وليكن ذلك في أوقات معلومة. واجعل لنفسك خلوة تَرُمُّ[2] بها حوائجك، وابحث عن أخبار حَشَمك، وتَقدَّم في تقويمهم وتأديبهم، واستعمل في ذلك الرِّفْق[3]، ولا تكثر العَتْب فيهون العَذْل[4]، ولا تلِ تأديبَهم بنفسكَ، فإنَّه أبقى لمائك[5]، وأهيبُ لك. وحافظ على صلواتك[6]،

---

(١) الظاهر أنَّه اسم زمان أو مكان! فإنْ كان الأوَّلَ.. فالمراد موعد لقائك بالعامَّة وبه يتفسَّر ما بعده. وإن كان اسمَ مكان؛ أو مصدراً ميمياً!! فالمراد جعلك مجلساً قريباً التناول لمن يقصدك، ويكون ما بعده مراعاة للمعنى الآخر.

(٢) تصلح.

(٣) في «صحيح مسلم»: ٧٧-٢٥٩٣؛ عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ الله رَفِيْقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَا لَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَا لَا يُعْطِي عَلَى مَا سِوَاهُ».

وفي «الصحيحين».. البخاري: ٦٠٣٠، ومسلم: ٧٨-٧٩/ ٢٥٩٤؛ عنها رضي الله عنها: «عَلَيْكَ بِالرِّفْقِ، وَإِيَّاكَ وَالعُنْفَ وَالفُحْشَ». وزاد مسلم ٧٤-٢٥٩٤: «إنَّ الرِّفْقَ لَا يَكُونُ فِي شَيْءٍ إلَّا زَانَهُ، وَلَا يُنْزَعُ مِنْ شَيْءٍ إلَّا شَانَهُ».

وعند أحمد: ٦/ ١٥٩، والبغوي: ٣٤٩١، وأبي نعيم: ٩/ ١٥٩؛ عن عائشة رضي الله عنها مرفوعاً: «مَنْ أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ.. أُعْطِيَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ، وَمَنْ حُرِمَ حَظَّهُ مِنَ الرِّفْقِ.. حُرِمَ حَظَّهُ مِنْ خَيْرِ الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ».

(٤) العتب: العتاب. والعذل: الملامة.

(٥) ماء الوجه كناية على الحياء.

(٦) في هامش (ظ): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «الصَّلَوَاتُ الخَمْسُ، وَالجُمُعَةُ إلَى الجُمُعَةِ، كَفَّارَةٌ لِمَا بَيْنَهُنَّ، مَا لَمْ تُغْشَ الكَبَائِرُ».

وعن عثمان بن عفان رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « مَا مِنِ امْرِئٍ مُسْلِمٍ تَحْضُرُهُ صَلَاةٌ مَكْتُوبَةٌ؛ فَيُحْسِنُ وُضُوءَهَا، وَخُشُوعَهَا، وَرُكُوعَهَا.. إلَّا كَانَتْ كَفَّارَةً لِمَا =

وابذل طعامك؛ فإنَّه ما ساد بخيلٌ قطُّ[1]، ولـيكن لـك بطانـة تعرِّفُـك أخبـار النـاس، فمتـى عَرفـت بفـسادٍ بـادرت إلى صـلاح، ومتـى عرفـت بصلاح.. فازدد رغبة وعناية في ذلك[2]، واعمد في زيارة مَن يزورك ومَن لا يزورك[3]، والإحسان الى مَن أحسن إليك؛ أو أساء[4].

قَبْلَهَا مِنَ الذُّنُوبِ مَا لَمْ تُؤْتَ كَبِيْرَةٌ، وَذَلِكَ الدَّهْرَ كُلَّهُ».

أخرجه مسلم في «صحيحه»، أما حديث أبي هريرة ﷺ: ١٤-٢٣٣؛ بلفظ الإفراد «الصَّلَاةُ»، وحديث عثمان: ٧-٢٢٨.

(١) في هامش (ظ): عن جابر ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « طَعَامُ الوَاحِدِ يَكْفِي الاثْنَيْنِ، وَطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَرْبَعَةَ، وَطَعَامُ الأَرْبَعَةِ يَكْفِي الثَّمَانِيَةَ».

وفي البخل يقول الله سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الحشر: ٩].

والشح: هو البخل والحرص. أخرجه مسلم: ١٧٩-٢٠٥٩.

(٢) لاستكشاف حال المجتمع لا لتتبع عورات المسلمين وسقطاطهم، فقد نهى عن ذلك سيِّد المربين ﷺ وحذَّر منه أشدَّ تحذير « مَنْ تَتَبَّعَ عَوْرَةَ أَخِيْهِ الْمُسْلِمِ...». و« مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ الْمُسْلِمِيْنَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ».

(٣) في هامش (ظ): عن أبي هريرة ﷺ عن النَّبيِّ ﷺ قال: « إِنَّ رَجُلاً زَارَ أَخاً لَهُ فِي قَرْيَةٍ أُخْرَى، فَأَرْصَدَ اللهُ لَهُ عَلَى مَدْرَجَتِهِ مَلَكاً، فَلَمَّا أَتَى عَلَيْهِ قَالَ: أَيْنَ تُرِيْدُ؟ قَالَ: أُرِيْدُ أَخاً لِي فِي هَذِهِ القَرْيَةِ. قَالَ: هَلْ لَكَ عَلَيْهِ مِنْ نِعْمَةٍ تَرِبُّهَا؟. قَالَ: لَا، غَيْرَ أَنِّي أَحْبَبْتُهُ فِي الله عز وجل. قَالَ: فَإِنِّي رَسُولُ الله إِلَيْكَ بِأَنَّ اللهَ قَدْ أَحَبَّكَ كَمَا أَحْبَبْتَهُ فِيْهِ».

أخرجه مسلم: ٣٨-٢٥٦٧ وغيره.

(٤) لأنه إذا لم يكن أهلاً لإحسانك؛ فأنت للإحسان أهل. وقد قيل:

أَحْسِنْ إِلَى النَّاسِ تَسْتَعْبِدْ قُلُـوبَهُمُ ... فَلَطَالَمَا اسْتَعْبَدَ الإِنْسَانَ إِحْسَانُ

وخذ العفو وامُرْ بالمعروف[1]، وتغافل عمَّا لا يَعنيك[2]، واترك كلَّ مَن يؤذيك[3]، وبادر في إقامة الحقوق[4].

ومَن مرض من إخوانك.. فعُدْه بنفسك[5]، وتعاهَدْه برُسُلك.

---

(١) كذا في نسختي!! وفي «المناقب»، و(ظ): والعرف.

(٢) لأنَّ « مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ المَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيْهِ»، وقيل:

لَيْسَ الغَبِيُّ بِسَيِّدٍ فِي قَوْمِهِ ... لَكِنْ سَيِّدَ قَوْمِهِ المُتَغَابِي

(٣) في هامش (ظ): عن أبي هريرة رضي الله عنه أنَّ رجلاً قال: يا رسول الله؛ إنَّ لي قرابةً أصلُهم ويقطعوني، أُحسِنُ إليهم ويسيؤون إليَّ، أحلُمُ عنهم ويجهلون علي؟! فقال ﷺ: « لَئِنْ كُنْتَ كَمَا قُلْتَ.. فَكَأَنَّمَا تَسِفُّهُمُ المَلَّ، وَلَا يَزَالُ مَعَكَ مِنَ اللهِ ظَهِيْرٌ عَلَيْهِمْ مَا دُمْتَ عَلَى ذَلِكَ».

والإمام أبو حنيفة رحمه الله يقصد في قوله هذا (أن لا تؤذي مَن يؤذيك) أي: لا تبادره بما يفعله.

والحديث أخرجه مسلم: ٢٢-٢٥٥٨.

(٤) المادِّيَّة والمعنويَّة،

فالأولى: كالقَرْض، والدَّيْن، الزكاة، وغير ذلك من حقوق الله وحقوقِ العباد، ومِن أدلَّتها نحو قوله تعالى ﴿وَءَاتُواْ حَقَّهُۥ يَوْمَ حَصَادِهِۦ﴾ [الأنعام: ١٤١]. وقوله ﷺ: «أَعْطُوا الأَجِيْرَ أَجْرَهُ قَبْلَ أَنْ يَجِفَّ عَرَقُهُ».

والثانية: كالصلاة في أوَّل وقتها، وتشييع الجنازة، وعيادة المريض.. من حقوق الله، وحقوق العباد كذلك.

والأمر بالمبادرة لمعنيين:

أولهما: قطع العَتْب وسرعة المبادرة الى الطاعة حرصاً وديناً. ودفعاً للغيبة والملام.

والثاني: تسهيلاً للأداء، وتحاشياً عن تراكم الواجبات؛ ومِن ثَمَّ استثقالها.

وفي نسخة (ظ): الحدود. فيكون المرادُ فيما لو كان قاضياً كما ألمحنا إليه.

(٥) في هامش (ظ): عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « مَنْ عَادَ مَرِيْضَاً، أَوْ زَارَ أَخَاً لَهُ فِي اللهِ، نَادَاهُ مُنَادٍ بِأَنْ: طِبْتَ وَطَابَ مَمْشَاكَ، وَتَبَوَّأْتَ مِنَ الجَنَّةِ مَنْزِلَاً». أخرجه الترمذي: ٢٠٠٩.

ومَن غاب منهم فتفقَّد أحواله.

ومَن قَعد منهم عنك؛ فلا تقعد أنت عنه[1].

وصِلْ مَن جفاك، وأكرمْ مَن أتاك[2]، واعفُ عمَّن أساء إليك.

ومَن تكلَّم منهم بالقبيح فيك.. فتكلَّم فيه بالحَسَن الجميل[3].

ومَن مات قَضيتَ له حقَّه، ومَن كانت له فرحةٌ هنَّيتَه[4] بها.

ومَن كانت له مصيبة عزَّيتَه عنها[5].

ومَن أصابه همٌّ فتوجَّعْ له به[6].

---

(١) ما لم يكن ذلك القعود تكبُّراً، وإلَّا! فإهانته والتكبُّر عليه تأديبٌ محمودٌ منك له.

(٢) في هامش (ظ): عن أبي أمامة صُدَي بن عجلان ﷺ قال: قال رسول ا لله ﷺ: « يَا ابْنَ آدَمَ، إِنَّكَ إِنْ تَبْذُلِ الفَضْلَ خَيْرٌ لَكَ، وَإِنْ تُمْسِكْهُ شَرٌّ لَكَ، وَلَا تُلَامُ عَلَى كَفَافٍ، وَابْدَأْ بِمَنْ تَعُولُ، وَاليَدُ العُلْيَا خَيْرٌ مِنَ اليَدِ السُّفْلَى».

وهذا من باب بيان كثرة طرق الخير. أخرجه مسلم: ٩٧-١٠٣٦.

(٣) سواءٌ بلغك فيكون المبلِّغ نمَّاماً مردودَ الخبر، أو سمعت بنفسك.. فالواجب ما أمر به الله تبارك وتعالى في حكاية حال أحبابه ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا﴾[الفرقان: ٦٣].

(٤) في نسختي: « فَهَنِّئْهُ». وقد آثرتُ ما في « المناقب»، و(ظ)!! لمناسبة الطباق مع « عَزَّيْتَهُ».

(٥) وهي بعض الحقوق الخمس التي للمسلم على المسلم؛ كما في الحديث الشريف: « حَقُّ المُسْلِمِ عَلَى المُسْلِمِ خَمْسٌ.. ١- رَدُّ السَّلَامِ، وَ٢- عِيَادَةُ المَرِيْضِ، وَ٣- اتِّبَاعُ الجَنَازَةِ، وَ٤- إِجَابَةُ الدَّعْوَةِ، وَ٥- تَشْمِيْتُ العَاطِسِ».

متفق عليه.. في البخاري: ١٢٤٠، ومسلم: ٤-٣١٦٢.

(٦) داخل تحت عموم: « مَنْ لَمْ يَهْتَمَّ بِأَمْرِ المُسْلِمِيْنَ فَلَيْسَ مِنْهُمْ».

ومَن استنهضك لأمر من أموره.. نهضتَ له، ومَن استغاثك فأغثه[1].

ومَن استنصرك فانصره[2].

وأظهر التودُّد إلى الناس ما استطعت.

وأفشِ السلام؛ ولو على قوم لئام[3].

---

(١) أخرج مسلم ٤٣٠-٢٥٦٩؛ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يَقُولُ يَوْمَ القِيَامَةِ: (يَا ابْنَ آدَمَ؛ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي)!! قَالَ: يَا رَبِّ؛ وَكَيْفَ أَعُودُكَ.. وَأَنْتَ رَبُّ العَالَمِيْنَ؟!.. ثُمَّ يَقُولُ: (اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي...) (اسْتَسْقَيْتُكَ...). ففيه حثٌّ على المبادرة لتلبيةِ جميع ما يحتاج المسلم من أخيه المسلم؛ على قدر وسعه. ويدَّخر ذلك عند الله تبارك وتعالى.

(٢) في «المناقب»: ومن أصابته جائحة توجَّعت له بها.

وفي هامش (ظ): عن النعمان بن بشير رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَلُ المُؤْمِنِيْنَ فِي تَوَادِّهِمْ وَتَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ.. مَثَلُ الجَسَدِ، إذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الجَسَدِ بِالسَّهَرِ وَالحُمَّى».

وقال القرطبيُّ: هذا تمثلٌ يفيد الحضَّ على معاونة المؤمن للمؤمن ونصرته، وأنَّ ذلك أمرٌ متأكِّدٌ لابدَّ منه، فإن البناءَ لا يتمُّ ولا تحصل فائدته إلَّا بأن يكون بعضه لبعض متماسكاً قويّاً، وإن لم يكن ذلك! انحلَّت أجزاؤه وخرب بناؤه، وكذلك المؤمن لا يستقلُّ بأمر دنياه ودينه.. إلَّا بمعاونة أخيه ومعاضَدَتِه ومناصرته، فإن لم يكن ذلك.. عجز عن القيام بكلِّ معالجة، ومقاومة مضاره، فحينئذ لا يتم له نظام دنياه ولا دينه.

والحديث متفق عليه.. البخاري: ٦٠١١، مسلم: ٤٦٨٥.

(٣) في هامش (ظ): عن عبد الله بن عَمْرو بن العاص رضي الله عنهما أنَّ رجلاً سأل رسول الله ﷺ: أيُّ الإسلام خيرٌ؟ قال: «تُطْعِمُ الطَّعَامَ، وَتَقْرَأُ السَّلَامَ.. عَلَى مَنْ عَرَفْتَ؛ وَمَنْ لَمْ تَعْرِفْ».

متفق عليه من حديث البخاري: ٦٢٣٦، ومسلم: ٦٣-٣٩.

=

ومتى جمعك وغيرك مجلسٌ؛ أو ضمَّك وإيَّاهم مسجدٌ؛ وجرت المسائل، وخاضوا فيها بخلاف ما عندك.. لم تُبْدِ لهم منك خلافاً.

فإن سُئلت عنها! أجبتَ بما يعرفُه القوم، ثم تقول: (وفيها قولٌ آخر.. كذا، وحُجَّته كذا)، فإذا سمعوا منك.. عرفوا قدرَك ومقدارَك؟ وإن قالوا: (هذا قول مَن؟) فقل: (قولُ بعضِ الفقهاء[1]).

وهذا يشبهُ ما أخرجه الديلميُّ في « الفردوس»: ٤٩٤؛ عن أبي هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « أَوْحَى اللهُ إلى إبْرَاهِيْمَ عليه السلام: (إنَّكَ خَلِيْلِي.. حَسِّنْ خُلُقَكَ، وَلَوْ مَعَ الكُفَّارِ.. تَدْخُلْ مَدَاخِلَ الأَبْرَارِ)».

وبهذه المناسبة أذكِّر أساتذتي ومَن هم في طبقتهم من أهل العلم، وألفتُ نظر إخواني من الطلبة إلى رأس أمر مجالسِهم، وسياج مراتع عزِّهم، وملجإ أمان وحدَتهم، وحصنِ كريم أخلاقهم...

حكمة عمريَّة فريدة

ذلك هو البيان التوجيهي السديد الذي نبَّه إليه سيِّدنا عمر بن الخطاب ﷺ بهذه الكلمات الكريمة الخالدة:

بلغني أنَّكم تتَّخذون مجالسَ!! لا يجلس اثنان معاً.. حتى يقال: (من صحابة فلان.. من جلساء فلان) حتى تُحُومِيَت المجالس!!

وأيمُ الله؛ إنَّ هذا لسريع في دينكم، سريع في ذات بينكم، ولكأنِّي بمَن يأتي بعدكم يقول: (هذا رأي فلان)!.

قد قسموا الإسلام أقساماً..أفيضوا مجالسكم بينكم، وتجالسوا معاً؛ فإنَّه أدومُ لألفتكم، وأهيبُ لكم في الناس.

(١) لله درُّ التوريـة.. كـم فرَّجـت ضـيقاً؛ أو وسَّـعت مأزقـاً. ومـا أبـدع قولـه ﷺ: «إنَّ فِي المَعَارِيْضِ لَمَنْدُوحَةً عَنِ الكَذِبِ».!!.

وإن استقرُّوا على ذلك، وأَلِفوه، وعرفوا مقدارك وعظَّموا محلَّك؛ فأعطِ كلَّ مَن يختلف إليك نوعاً من العلم ينظرون فيه، ويأخذُ كلٌّ منهم بحظِّ شيء من ذلك.

وخذهم بجَليِّ العلم؛ دون دقيقه.

وآنسهم ومازحهم أحياناً[1]، وحادِثهم، فإنَّها تجلبُ المودَّةُ وتستديم به مواظبةُ العلم، وأطعمهم أحياناً[2]، واقض حوائجهم، واعرف مقدارَهم، وتغافل عن زلَّاتهم، وارفق بهم[3] وسامحهم.

ولا تُبدِ لأحد منهم ضيقَ صدرٍ؛ أو ضَجَراً، وكن كواحد منهم.

وارضَ منهم ما ترضى لنفسك[4].

---

(١) إبعاداً للسآمة والملل، ولا يديم ذلك حفظاً للهيبة والحشمة.

(٢) وقد كان أبو حنيفة رضي الله عنه له دعوة كلَّ يوم جمعة يجمع بها أصحابَه في بيته، ويطبخ لهم ألوانَ الطعام، وألوان الفاكهة، ولا يأكل معهم، بل ينفرد بالطعام بنفسه، ثمَّ يشاركهم الحلوى والشراب؛ كيلا يختشوا في طعامهم.

(٣) في هامش (ظ): عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: « إنَّ الله رَفِيْقٌ يُحِبُّ الرِّفْقَ، وَيُعْطِي عَلَى الرِّفْقِ مَالَا يُعْطِي عَلَى العُنْفِ، وَمَالَا يُعْطِي عَلَى سِوَاهُ». أخرجه مسلم كما تقدَّم تخريجه ص٢٣٩.

(٤) معناه: لا تعب عليهم شيئاً ترتضيه من نفسك، ولا ترضَ من نفسك شيئاً تعيبه على غيرك، وهذا من أدقِّ موازين محاسبة النفس، لأنَّك تنظر إليها بعين النقد حيث تَرجو أنَّك ناظر إليها بعين الرضا. فينكشف لك ما تظنُّ أنها قادرة على إخفائه عنك فتفتضح لديك.

وعامل الناس معامَلَتَك لنفسك[1].

واستعن على نفسك بالصيانة لها، والمراقبة لأحوالها.

ولا تضْجَرْ لمن لا يضجُر عليك[2].

ودع الشَّغَب، واستمع لمن يستمع منك، ولا تكلِّف الناس مالا يكلِّفوك، وارضَ لهم ما رضوا لنفسهم، وقدِّم حسن النيَّة[3]، واستعمل الصدق[4]، واطرح الكِبر جانبا[5].

---

(١) وهذا ميزان تمام الإيمان، كما قال ﷺ: « لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيْهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ».

(٢) فتكون أسوأ منه، ثم يشتطُّ بكما الحال إلى الخصومة والنزاع ثم العداوة والفراق.

(٣) في هامش (ظ): قال الله تعالى ﴿ قُلْ إِن تُخْفُوا۟ مَا فِى صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ ٱللَّهُ ﴾ [آل عمران: ٢٩].

وعن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: « إِنَّمَا الأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ، وَإِنَّمَا لِكُلِّ امْرِئٍ مَا نَوَى، فَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ فَهِجْرَتُهُ إِلَى الله وَرَسُولِهِ، وَمَنْ كَانَتْ هِجْرَتُهُ لِدُنْيَا يُصِيْبُهَا، أوِ امْرَأَةٍ يَنْكِحُهَا فَهِجْرَتُهُ إِلَى مَا هَاجَرَ إِلَيْهِ».

أخرجه الستة، ومالك في الموطأ من رواية محمد: ٩٧٣. بألفاظ عديدة.

(٤) في هامش (ظ): عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « إِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى البِرِّ، وَإِنَّ البِرَّ يَهْدِي إِلَى الجَنَّةِ؛ وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ الله صِدِّيْقًا».

أخرجه مسلم: ٤٧١٩.

(٥) في هامش (ظ): عن سَلَمة بن الأكوع رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: « لَا يَزَالُ الرَّجُلُ يَذْهَبُ بِنَفْسِهِ حَتَّى يُكْتَبَ فِي الجَبَّارِيْنَ، فَيُصِيْبُهُ مَا أَصَابَهُمْ». أخرجه الترمذي: ٢٠٠١.

وإيَّاك والغَدْرَ؛ وإن غدروا بك[1]،

وأدِّ الأمانة؛ وإن خانوك[2].

وتمسَّك بالوفاء، واعتصم بالتقوى[3].

وعاشِر أهل الأديان حسبَ معاشرتهم لكَ، فإنَّك إن تمسَّكَ بوصيَّتي هذه رجوتُ أن تسلم، وتعيشَ سالماً إن شاء الله تعالى[4].

---

(١) في هامش (ظ): عن ابن مسعود ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « لِكُلِّ غَادِرٍ لِوَاءٌ يَوْمَ القِيَامَةِ، يُقَالُ: هَذِهِ غَدْرَةُ فُلَانٍ». أخرجه مسلم: ٣٢٦٩.

والغادر: هو الذي لا يفي بالعهد الذي اتخذه على نفسه.

أقول: ولعلَّ من أجلِّ وأعظم ما سمع من أمثلة الوفاء بالعهد ما ذكره شدَّاد بن حكيم عن إمامنا الأعظم رضي الله عنه قال: نُهي عن الفتيا. فبينما هو وابنته يأكلان تخلَّلت ابنته (نظفت أسنانها بعود)؛ فخرج على خلالِها صفرةُ دم، فقالت: يا أبت؛ عليَّ في هذا وضوء؟ فقال: إنِّي نُهيت عن الفتيا وعاهدتهم، فسلي أخاك حماداً!!.

(٢) في هامش (ظ): قال الله تعالى ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُكُمۡ أَن تُؤَدُّواْ ٱلۡأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهۡلِهَا ﴾ [النساء: ٥٨].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: إنَّ رسول الله ﷺ قال: « آيَةُ المُنَافِقِ ثَلَاثٌ: ١- إذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَ٢- إذَا وَعَدَ أخْلَفَ، وَ٣- إذَا اؤْتُمِنَ خَانَ».

متفق عليه.. البخاري: ٣٣، ومسلم: ٥٩..

(٣) في هامش (ظ) قال الله ﷻ ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وقال ﷻ ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّهُۥ مَخۡرَجٗا ﴾ [الطلاق: ٢].

وعن أبي هريرة ﷺ قال: قيل: يا رسول الله، من أكرم الناس؟ فقال ﷺ: «أَتْقَاهُمْ».

أخرجه البخاري: ٣٣٥٣، ومسلم: ٤٣٨٣.

(٤) إلى هنا تمت نسختي، وما زاد ففي «المناقب»، و(ظ).

ثُمَّ إنَّه ليحزُنُني مفارقَتُك، وتؤنسُني معرفتُك؛ فواصِلْني بكُتُبك، وعرِّفني بحوائجك، وكن لي كابنٍ فإنِّي لك كأب.

* * *

قال يوسف بن خالد السَّمْتيُّ:

ثم أخرج إليَّ دنانير وكسوة وزاداً وخرج معي، وحمَّل ذلك حمَّالاً، وجمع أصحابه حتَّى شيَّعوني، وركب معهم حتَّى بلغنا إلى شطِّ الفرات، ثمَّ ودَّعوني وودَّعتُهم.

وكانت منَّةُ أبي حنيفة رحمه الله بوصيته إليَّ وبِرُّه أعظمَ من كلِّ مِنَّة تقدَّمت عليَّ.

وقدِمْتُ البصرة، فاستعملت ما قال، فما مرَّت عليَّ أيَّامٌ يسيرة حتَّى صاروا كلُّهم لي أصدقاءَ، وانتقضت المجالس، وظهر بالبصرة مذهبُ أبي حنيفة رحمه الله تعالى[1]، كما ظهر بالكوفة، وسقط مذهب الحسنِ، وابن سيرين رضي الله عنهما، فما زالت كتب أبي حنيفة تجيئُني الى أن مات رحمه الله.

فهنيئاً لك من معلِّم صالح وأستاذ صالح.

---

(١) ومثل هذا جاء من زفر حينما خرج الى البصرة؛ وكانوا أشدَّ أهل العراق على أبي حنيفة، فاستمالهم جميعاً نحوه حينما عمل بتوجيه إمامه الجليل رضي الله عنه..

فمَن لنا مثلَه رضي الله عنه وعن جميع المسلمين[1]!!!

* * * *

* * *

* *

*

---

(١) تم بفضل الله وحسن توفيقه ضبطُ ورَقْم والتعليقُ على هذه الوصية المباركة النافعة الجليلة الفائدة في ثلاث مجالس على قَدْر الوسع والطاقة؛ سائلاً الله تعالى أن يديم بها النفع ويجمعنا وإمامنا الأعظم تحت لواء سيِّدنا النَّبيِّ الأفخم، والعاملين بهذه المعاني السامية، وأن يتقبَّل منا كما هو أهله، إنَّه أهل الصفح والقبول.

وتمَّ تصحيحها في مساء الجمعة ٣ / صفر/ ١٤١٩ الموافق ٢٩/ ٥/ ١٩٩٨.

عبد الجليل العطا البكري (جامع المهدي ـ دمشق)

ثم تمَّ تصحيح هذه الطبعة المباركة النافعة مع «التعليم وشرحه» بمعونة الله تعالى ضحى يوم الجمعة: ٢٨ / جمادى الأولى / ١٤٣٠هـ الموافق: ٢٢/ ٥/ ٢٠٠٩، سائلاً المولى سبحانه إكراماً للنداء الحالِّ بعد قليل، ولهذا اليوم الأزهر أن يجعل ذلك محلَّ القبول والرضا والتوفيق والسداد والعمل وسدِّ الخلل.

إنه تعالى أكرم من سُئل وخير من أعطى. وصلى الله على المعلِّم الصادق الناصح الأمين، وعلى آله وصحبه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

عبد الجليل العطا البكري (سادات - دمشق)

خُلُق العالم

«قصيدة تربوية»

نظمها العلاَّمة

أبو الحسن علي بن عبد العزيز الجرجاني

المتوفى بالرَّيّ: ٣٩٢ هـ

ضبطها وشرح مفرداتها

عبد الجليل العطا

«البكريّ»

هذا؛ وقد وجدت من تمام الفائدة التربوية ـ كما كنت وعدتُ في مقدمة التحقيق ـ أن أُلحق القصيدة العصماء التي تعبِّر عن شخصيَّة الوريث النبويِّ الذي لا تلعب الدنيا بقناته، ولا تتحكَّم بهواه، بل ولا تستطيع أن تنال منه حُظوة مهما تزيَّنت وتشوَّفت..

وهي للقاضي الفقيه الأديب الجرجاني[1].

---

(١) أبو الحسن عليُّ بن عبد العزيز بن الحسن بن عليِّ بن إسماعيل الجرجاني.

أحد أعيان العلماء، المفسّر، الفقيه الشافعي، الأديب الشاعر، قدم نيسابور شابّاً وسمع بها الحديث، وبرز كعبه واشتهر في صنوف شتى من العلم، ولي قضاء القضاة بـ (الري) في عِفَّة ونزاهة وعَدْل وصرامة، وكان خطُّه يشبَّه بخطِّ ابن مقلة. وله تجوال في طلب العلم ولقاءِ العلماء واقتباس العلوم والآداب.

له تصانيف، من أشهرها: « الوساطة بين المتنبي وخصومه»، قد أبان فيه عن علم غزير. (مطبوع في أزيد من أربع مئة صفحة). وفيه يقول بعضهم:

أيَا قَاضِيَاً قَدْ دَنَتِ كُتْبُهُ ... وَإِنْ أصْبَحَت دَارُهُ شَاحِطَهْ

كِتَابُ « الوساطة» فِي حُسْنِهِ ... لِعِقْدِ مَعَالِيْكَ كَالوَاسِطَهْ

(شاحطة: بعيدة).

وله تفسير القرآن المجيد، وكتاب « تهذيب التاريخ» وله غيرها.

من تلاميذه: عبد القاهر الجرجاني (أمير البلاغة)، فقد قرأ عليه واغترف من بحره، وكان إذا ذكره تبخبخ (أي قال: بخٍ بخ؛ اعجاباً) وشمخ بأنفه بالانتماء إليه.

=

وهذه الأبيات بهذا النسق لم أَرَها مجتمعةً إلَّا في رسالة لطيفة للشيخ عبد الفتاح أبو غدَّة رحمه الله أسماها « صفحات من صبر العلماء» وأنا أوردها كما اختار ترتيبها هو.. والعهدة إليه رحمه الله.

يَقُولُونَ لِي: (فِيْكَ انْقِبَاضٌ) وَإِنَّمَا
رَأَوْا رَجُلاً عَنْ مَوْقِفِ الذُّلِّ أَحْجَمَا[1]

أَرَى النَّاسَ مَنْ دَانَاهُمُ هَانَ عِنْدَهُمْ
وَمَنْ أَكْرَمَتْهُ عِزَّةُ النَّفْسِ أُكْرِمَا[2]

وَلَمْ أَقْضِ حَقَّ العِلْمِ إنْ كُنْتُ كُلَّمَا
بَدَا مَطْمَعٌ صَيَّرْتُهُ لِي سُلَّمَا

وله ديوان شعر، ومن أشعاره الطروبة ـ كهذه القصيدة ـ قوله:

مَا تَطَعَّمْتُ لَذَّةَ العَيْشِ حَتَّى ... صِرْتُ لِلْبَيْتِ وَالكِتَابِ جَلِيْسَا
لَيْسَ شَيْءٌ أَعَزَّ عِنْدِي مِنَ العِلْـ ... ـمِ فَلَمْ أَبْتَغِ سِوَاهُ أَنِيْسَا!!
إِنَّمَا الذُّلُّ فِي مُخَالَطَةِ النَّـ ... ـنَاسِ فَدَعْهُمْ وَعِشْ عَزِيْزاً رَئِيْسَاً

قال الثعالبي في « يتيمة الدهر»: هو فرد الزمان، ونادرة الفلك، وإنسان حَدَقة العلم، ودرَّة تاج الأدب، وفارس عسكر الشعر، يجمع خطَّ ابنِ مقلة.. إلى نثرِ الجاحظ.. إلى نظم البحتري.

توفي يوم الثلاثاء؛ في الثالث والعشرين من ذي الحجة، سنة: ٣٩٢ هـ؛ قاضياً للقضاة في الري، وحمل تابوته الى جرجان، وتبع الوزراء جنازته مشاةً رحمه الله.

سير أعلام النبلاء: ١٧/ ١٩-٢١، ومعجم الأدباء: ١٤/ ١٤-٢٠ بتصرف بينهما.

(١) أحجم: امتنع.

(٢) داناهم: خالطهم.

وَمَـــا زِلْـــتُ مُنْحَـــازاً بِعِـــرْضِيَ جَانِبَـــاً

عَـــنِ الـــذُّلِّ أَعْتَـــدُّ الـــصِّيَانَةَ مَغْـــنَماً[1]

إِذَا قِيْـــلَ: هَـــذَا مَنْهَـــلٌ. قُلْـــتُ: قَـــدْ أَرَى

وَلَكِـــنَّ نَفْـــسَ الحُـــرِّ تَحْتَمِـــلُ الظَّـــمَا[2]

أُنَزِّهُهَـــا عَـــنْ بَعْـــضِ مَالَا يَـــشِيْنُهَا

مَخَافَـــةَ أَقْـــوَالِ العِـــدَا (فِـــيْمَ! أَوْ: لِمَـــا؟)[3]

فَأُصْـــبِحُ مِـــنْ عَيْـــبِ اللَّئِـــيْمِ مُـــسَلَّمَا

وَقَـــدْ رُحْـــتُ فِي نَفْـــسِ الكَـــرِيْمِ مُعَظَّـــمَا

وَإِنِّي إِذَا مَـــا فَـــاتَنِيَ الأَمْـــرُ لَمْ أَبِـــتْ

أُقَلِّـــبُ كَفِّـــي إِثْـــرَهُ مُتَنَـــدِّمَا

وَلَكِنَّـــهُ إِنْ جَـــاءَ عَفْـــوَاً قَبِلْتُـــهُ

وَإِنْ مَـــالَ لَمْ أُتْبِعْـــهُ (هَـــلَّا، وَلَيْـــتَمَا)[4]

وَأَقْـــبِضُ خَطْـــوِي عَـــنْ حُظُـــوظٍ كَثِـــيْرَةٍ

إِذَا لَمْ أَنَلْهَـــا وَافِـــرَ العِـــرْضِ مُكْرَمَـــا

---

(١) منحازاً: مبتعداً. العرض: موضع المدح والذم من الإنسان. أعتد: أعد وأقرر. مغنما: فوزا.

(٢) المنهل: مورد الماء ويروى في « معجم الأدباء»: مشرب.

(٣) يشينها: يعيبها. العدا: الأعداء.

(٤) عفواً: بدون قصد. مال: تحوَّلَ. (هلَّا وليتما) كناية عن التحسُّر.

وَأُكْـــرِمُ نَفْـــسِي أنْ أُصَـــاحِبَ عَابِـــسَاً

وَأَنْ أَتَلَقَّـــــى بِالمَـــــدِيْحِ مُـــــذَمَّمَا

وَكَـــمْ طَالِـــبٍ رُقِّـــيَ بِـــنَعْمَاهُ لَمْ يَـــصِلْ

إلَيْـــهِ؛ وَإِنْ كَـــانَ الـــرَّئِيْسَ المُعَظَّـــمَا

وَكَـــمْ نِعْمَـــةٍ كَانَـــتْ عَـــلَى الحُـــرِّ نِقْمَـــةً

وَكَـــمْ مَغْـــنَمٍ يَعْتَـــدُّهُ الحُـــرُّ مَغْرَمَـــا

وَلَمْ أَبْتَـــذِلْ فِي خِدْمَـــةِ العِلْـــمِ مُهْجَتِـــي

لِأَخْـــدُمَ مَـــنْ لَاقَيْـــتُ إلَّا لِأُخْـــدَمَا[1]

أَأَشْـــقَى بِـــهِ غَرْسَـــاً وَأَجْنِيْـــهِ ذِلَّـــةً!

إِذَنْ فَاتِّبَـــاعُ الجَهْـــلِ قَـــدْ كَـــانَ أَحْزَمَـــا[2]

فَـــإِنْ قُلْـــتَ: (زِنْـــدُ العِلْـــمِ كَـــابٍ) فَـــإِنَّمَا

كَبَـــا حِـــيْنَ لَمْ نَحْـــرِسْ حِمَـــاهُ وَأَظْلَـــمَا[3]

---

(١) المهجة: القلب أو الروح. ويروى في « المعجم»: لكن لأخدما.

(٢) غرساً: تحصيلاً. أحزما: أشدَّ وأليق. ويروى « المعجم»: ابتياع.

(٣) زند: العود الذي تقدح به النار. كبا الزناد: لم يخرج ناره.

وَلَـوْ أَنَّ أَهْـلَ العِلْـمِ صَـانُوهُ صَـانَهُمْ

وَلَـوْ عَظَّمُـوهُ فِي النُّفُـوسِ لَعُظِّـمَا[1]

وَلَكِـنْ أَهَـانُوهُ فَهَـانَ وَدَنَّسُوا

مُحَيَّـاهُ بِـالأَطْمَاعِ حَتَّـى تَجَهَّمَا[2]

فَـمَا كُـلُّ بَـرْقٍ لَاحَ لِي يَسْتَفِزُّنِي

وَلَا كُـلُّ مَـنْ لَاقَيْـتُ أَرْضَـاهُ مُـنْعِمَا[3]

وَلَكِـنْ إِذَا مَـا اضْـطَرَّنِي الـضُّرُّ لَمْ أَبِـتْ

أُقَلِّـبُ فِكْـرِي مُنْجِـدَا ثُـمَّ مُـتْهِمَا

إِلَى أَنْ أَرَى مَـالَا أَغُـصُّ بِـذِكْرِهِ

إِذَا قُلْـتُ: قَـدْ أَسْـدَى إِلَيَّ وَأَنْعَـمَا

---

(١) قال العلَّامة التاج السُّبْكِيُّ في «معيد النعم» بعد إيراد بعض هذه الأبيات: لقد صدق هذا القائل، لو عظموا العلم لعظَّمَهم..

وأنا أقرأ قوله (لعَظَّما) بفتح العين، فإنَّ العلم إذا عُظِّم عَظَّم.. وهو في نفسه عظيم!! ولهذا أقول: ولكن أهانوه فهانوا، ولكن الرواية: فهان... والأحسن ما أشرت إليه.

ويروى في « المعجم»: تعظَّما. ويروى فيه: ولكن أذلوه. جهاراً ودنسوا.

(٢) المحيا: الوجه. تجهما: عبس وكلح.

(٣) يستفزني: أستبشر به، أو: تتعلَّق به رغبتي وهمتي..